تاريخ ثورة موريسكيي مملكة غرناطة وعقابهم

الكتاب الرابع

الفصل الأول

كيف عزم موريسكيو البيّازين ممن دبروا لإشعال الثورة على تنفيذ مخططهم، والسبيل الذى اتبعوه للوصول إلى بغيتهم

كانت الأجواء الآمنة التى تسود مدينة غرناطة مدعاة لتحلى موريسكيى البيّازين بالهدوء الظاهرى، وذلك خلافًا للمشاعر التى كانت تموج فى صدورهم، فظلوا طيلة أشهر يتظاهرون بالخنوع، وذلك فى أعقاب مجىء ماركيز مونديخار إلى المدينة، وتوجُّه السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس إلى البلاط الملكى. كانوا يتصنعون الخضوع إلى الحد الذى يوحى بتقبلهم التام لتنفيذ بنود المرسوم الملكى. كان هذا هو الحال الذى نقله الرئيس فى رسالته إلى جلالة الملك وأعضاء مجلسه. بيد أن الموريسكيين لمّا أدركوا أن تطبيق البند الخاص بالملابس أضحى قريبًا، وأن تأجيل تطبيق المرسوم لن يحول دون دخوله حيز التنفيذ، أعمى الكرب بصيرتهم، وقلت بينهم المشورة، واستشعروا عدم المبالاة، فوضعوا ثقتهم فى قوتهم - التى لم تكن كافيةً لوضعها محل اختبار، على الرغم مما أُثير حولها من شكوك فى الخفاء - وعقدوا العزم على القيام بالثورة والتمرد العام، على أن يبدأ الأمر من رأس المملكة، ألا وهى البيّازين.

حينئذ اجتمع بعض الموريسكيين فى منزل واحدٍ منهم يعمل بائعًا للشمع، وكان يدعى أديليت Adelet، واتخذوا قرارهم بإشعال الثورة فى مساء يوم رأس السنة الجديدة؛ لأن النبوءات كانت تؤكد لهم أن المسلمين سيستردون غرناطة فى ذات اليوم

الذى ظفر فيه المسيحيون بالمدينة، كما أنهم أرادوا تكذيب أى أخبار ينقلها الجواسيس، وكذلك طمأنة شعبنا إذا كان هناك من كشف النقاب عن التجمع الذى عقدوه عشية عيد الميلاد. وهكذا نبه بعضهم البعض إلى عدم إعلام أهالى البشرات بقرارهم الأخير قبل اليوم الذى يتم فيه اختيار القادة، حيث كانوا خائفين من عدم قدرتهم على كتمان السر، كعادة القرويين البسطاء؛ كما أنهم كانوا على دراية تامة من أنه إذا ما تنامى إلى علمهم عزم البيّازين على القيام بالثورة، فسوف يثورون جميعًا على أثرها.

كان هذا هو النهج الذى سلكوه لتنفيذ مسعاهم الخبيث: يتم تسجيل ثمانية آلاف رجل فى قرى الغوطة وبقاع وادى ليكرين وأورخيبا، ممن يمكن الإسرار إليهم بما ينتوون، ويمسى هؤلاء على أهبة الاستعداد، وعندما يشاهدون الإشارة التى ستصلهم من البيّازين، يزحفون إلى المدينة من ناحية الغوطة، يعتمرون على رؤوسهم قلنسوات وخُمُر تركية، حتى يبدوا كأنهم أتراك أو مغاربة جاءوا لإغاثة المدينة. ورغبةً فى إعداد السجل بأكبر قدر من السرية، شرع اثنان من رجالهم فى التنقل بين القرى والمواقع، بحجة بيع البرادع ودبغها، وراحوا يتنقلون من قرية إلى أخرى يستعلمون عن الأشخاص الذين يمكن التوصل إليهم، وعقب تدوين أسمائهم يكلفونهم بالحفاظ على سرية الأمر. أما البقاع الجبلية فسيجمعون منها ألفى رجل فى أحد الأماكن التى تكثر فيها زراعة القصب، وذلك على مقربة من ثينيس Cenes على ضفاف نهر شنيل، على أن يهرع هؤلاء صوب حصن الحمراء يصحبهم الثائر الجبلى الشهير بارتال دى ناريلا el Partal de Narila، وناقوس دى نيغويليس Nacoz de Nigüeles، وآخرون تم الاتفاق معهم، لكى يتسلقوا أسوار الحصن ليلاً من الجهة المقابلة لجنة العريف. من أجل ذلك كُلِفَ موريسكى بنّاء، كان قد عمل فى تشييد القصر الملكى، يدعى المعلم فرانثيسكو بن أديم Francisco Abenedem، بإفادتهم حول ارتفاع الأسوار والأبراج، ليتم عمل السلالم بالعلو المناسب؛ وقد صُنِعَ سبعة عشر سلمًا فى سريةٍ شديدة فى

غيخار وكينتار. وقد شاهدناهم[1] لاحقًا فى غرناطة، وكان قد تم إعدادها بواسطة حبالٍ غليظةٍ من الحَلْفَاء مجدولة حول بعض العصى، ودرجات السلم عريضة للغاية بحيث تتسع لثلاثة رجال دفعةً واحدةً. أما غلمان البيّازين وجنودها فيحضرون فيما بعد فى صحبة قادتهم على النحو التالى:

يقود ميغيل عزيز Miguel Acis أهالى دوائر القديس غريغوريو والقديس كريستوبال والقديس نيكولاس، متجهًا إلى باب فحص اللوز الكائن بأعلى نقاط البيّازين من الناحية الشمالية، يرفع لواءً من الحرير القرمزى مرسوما عليه أقمارٌ فضيةٌ وحليات ذهبية اللون، كان قد صنعها فى منزله واحتفظ بها لذلك الغرض. أما الشاب دييغو النغيلى Diego el Nigueli فيقصد ميدان باب البنود على رأس أهالى دوائر القديس سلبادور والقديسة إيسابيل دى لوس أباديس والقديس لويس، شاهرًا رايةً صفراء من حرير التفتاه. ويتوجه ميغيل موثاغاث Miguel Mozagaz إلى باب وادى آش رافعًا رايةً حريريةً ذات لون فيروزى، بصحبة أهالى دوائر القديس ميغيل والقديس خوان دى لوس رييس والقديس بدرو والقديس بابلو.

وكان أول ما يتعين عليهم فعله هو قتل مسيحيى البيّازين المقيمين بينهم، ثم المبادرة بالهجوم على المدينة من ثلاث جهات، والإغارة على حصن الحمراء فى آنٍ واحد، وذلك بعد أن يُبْقِى كل منهم جزءًا من قوام كتيبته لحراسة الأماكن المذكورة آنفًا. حيث تهبط القوات المتمركزة فى فحص اللوز عبر الطريق الذى يسير خارج السور ليصل إلى المشفى الملكى، فيستولون على باب البيرة، ثم يدخلون من الشارع الأمامى فيقتلون كل من يخرج لدق ناقوس الإنذار. عندما يصلون إلى المنازل ومبنى السجن التابع لمحكمة التفتيش، يطلقون سراح المسلمين الأسرى حتى يلحقوا بالمسيحيين أقصى ضرر يستطيعون تحقيقه. أما القوات المتمركزة فى ميدان باب البنود، فتنزل

(١) مارمول شاهد عيان فى بعض الأحيان. (المراجع).

عبر شوارع القصبة متوجهةً إلى شارع الغلايات، ومنها إلى سجن المدينة لتحطيمه وتحرير الموريسكيين، ثم يقصدون منزل رئيس الأساقفة فى محاولةٍ لاعتقاله أو قتله. بينما تسلك القوات الكائنة بباب وادى آش شارع نهر حدرّة لتُغير على مقار المحكمة الملكية الكائنة أسفل الطريق، ويحاولون قتل الرئيس أو إلقاء القبض عليه، وإطلاق سراح الموريسكيين المحتجزين فى سجن المحكمة الملكية. ثم يتوجهون لتجميع القوات كلها فى ميدان باب الرملة، الذى سيفد إليه أيضًا ثمانية آلاف رجل قادمين من الغوطة ووادى ليكرين؛ ومن هناك يذهبون إلى حيث تدعوهم الحاجة، فيضرمون النيران فى المدينة، ويعملون فيها القتل. وعندما يمسون جميعًا على أهبة الاستعداد، يبعثون الإشارة إلى البشرات، لكى ينفذ أتباعهم هناك المخطط التى تم وضعه.

كانت تلك هى الخطة التى رسمها كل من فرج بن فرج والثغرى Tagari ومُفَرِّج Mofarrix والعطّار وسالاس Salas وأعوانهم، كما أظهرت الاعترافات التى أدلى بها نفر ممن أُلقى القبض عليهم – وتم عرضها علينا[٢] لاحقًا فى غرناطة – وآخرون كانوا موجودين آنذاك. كانت العواقب ستصبح وخيمةً على أهالى المدينة من المسيحيين لو دخل مخطط المسلمين حيز التنفيذ، بيد أن العناية الإلهية حالت دون ذلك. فعندما قيّد صانعو السروج أسماء الثمانية ألف رجل ولم يكونوا قد وصلوا إلى لانخارون؛ وكان بقية المقاتلين متنبهين وعلى أهبة الاستعداد للانقضاض على الأماكن التى حُدِدت لهم؛ تعجّل الثوار الجبليون، فقتلوا بعض المسيحيين الذين كانوا يسيرون ما بين أوخيخار دى ألباثيتى وغرناطة، وصرعوا آخرين كانوا مارين بالطريق من غرناطة إلى أدرا وخربوا بضاعتهم. وحتى يتبين لنا كم كانوا محتاطين ومتأهبين لإشعال الثورة، نعرض هنا خطابين مترجمين من اللغة العربية، كانا ضمن ما كتب ابن فرج وداود حول ذلك الشأن إلى موريسكيى القرى الموافقة لهم فى الرأى، وإلى قادة الثوار الجبليين.

(٢) مرة أخرى يبدو مارمول كشاهد عيان. (المراجع).

رسالة فرج بن فرج إلى القرى والمدن فى شأن الثورة

"بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم صل وسلم على رسولنا محمد، وارض اللهم عن آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان. أما بعد، يا أيها الإخوة، والأصدقاء، والشيوخ، والكهول، والزعماء، والقضاة، وغيرهم من إخواننا، وسائر المسلمين، ها قد علمتم من التكهنات والنبوءات الخاصة بنا ما وعدنا الله، لقد حانت ساعة الفتح، وإعلاء كلمة التوحيد فى أجواء حرة، والقضاء على عبادة آلهة متعددة. أجمعوا كلمتكم ووحدوا صفكم وراء كل ما يخبركم به وينقله لكم من قبلنا نائبنا محمد بن مسعود Mahomad Aben Mozud، الذى خولناه الاضطلاع بتلك المهمة. اعلموا أن ما يقوله لكم منقول عن ألسنتنا، حتى تصبحوا جميعًا - بحول الله وقوته - مستعدين ومتأهبين للقدوم إلى غرناطة لتذيقوا هؤلاء الكفرة مرارة يومهم الموعود. من لم يحتط للأمر بعد، فعليكم تنبيهه، ومن يجهل تلك المسألة، أعلموه بها، حتى يتأهب الجميع من خاوريًا Jauría وغاتوثين Gatucin حتى كانخايار فى شرق الأندلس Canjáyar de la Jarquía. سلام الله عليكم - عبد الله المتعال: فرج بن فرج".

رسالة داود إلى بعض قادة الثوار الجبليين

"بسم الله الرحمن الرحيم. أرجو دوام الصحة وتمام العافية لمن شرفه الله، ومنّ عليه من خيره وفضله، سيدى قاسم بن سودة Cacim Abenzuda ورفاقه، وسيدى الزيد el Zeyd، وأدعو الله أن يكون أصدقاؤنا جميعًا بخير حال. هذا صديقكم الذى يمتدح فضلكم، وجل ما يتمنى هو رؤيتكم، ويبتهل إلى الله أن يحسن عاقبة أموركم، أخوكم فى الله محمد بن محمد بن داود. أطمئنكم يا إخوانى أنى - بحمد الله - بخير وعافية، وأنا أضعكم دائمًا نصب عينى. يعلم الله أنى أُقدّر ما تقومون به، وأنا أحمل لكم البشارة بالفوز والخلاص. فلنرفع إلى الله أكف الضراعة حتى يظللنا بستره فيما بقى لنا. وأنا أخبركم يا إخوانى أن الغرناطيين قد أرسلوا فى طلبى بعد أن

رحلت من عندكم، ولم يكونوا يعرفون مكانى، وقد تنامى هذا الخبر إلى علمى عندما وصلت إلى روبيتى Rubite، بيد أنى لم أطلع على مصدر الرسالة، حتى قدوم الرسول مستعلمًا عن نفر من أهالى لانخارون، فأخبرنى عندها أن أهلنا فى غرناطة يسعون لإحياء ما كانوا عازمين عليه لتنفيذه فى شهر إبريل. فلمّا أدركنى الخبر، تحدثت إلى سيدى حامد، الذى نصحنى بالصعود إلى غرناطة، والتأكد من صحة الخبر، ومعاودة إبلاغه بالأمر. وقد صعدت إلى البيّازين، فألفيتها تموج بالقلاقل، والقوم عاقدون العزم على المضى قدمًا لتنفيذ الأمر.

حينئذ اجتمعت ورءوس الأمر المدبرة، فأمرونى أن أرسل إلى رجالنا فى الجبال وأطلعهم على الخبر، حتى ينشروه فيما بينهم، ويجمعوا أمرهم، حتى نتشاور سويًا حول ما يتعين علينا القيام به. بعد أن اتفقنا على ذلك، بعثنا إلى أتباعنا فى القرى لنعلمهم بذاك النبأ، فأجابونا جميعًا: نحن نود القيام بذلك الأمر اليوم قبل الغد، وما من شىء أعز عندنا منه سوى الشهادة، وهى أهون علينا من البلاء الذى نلاقيه؛ وقد وافقهم فى الرأى أهالى البقاع الغربية Garbía والشرقية حيث قالوا: سوف تجدونا هنا على أهبة الاستعداد للجود بأرواحنا وممتلكاتنا. وعندما قصصت ذلك على الغرناطيين، اتفقوا على أن يبعثوا رسلهم إلى سائر أنحاء المملكة لينبهوا الناس، لكى يتهيأوا للأمر، ويمعنوا فى إعداد العدة.

من أجل ذلك جمعنا كلمتنا على أن نرسل إلى الثوار الجبليين، أينما كانوا، ليجمعوا قواتهم ويخطر بعضهم بعضًا حول اليوم الذى يتم تحديده. الجميع صغارًا وكبارًا فى انتظار ذلك اليوم، ، وهو أمر لابد لنا من القيام به يا أصدقاءنا لتحقيق العدالة الإلهية. عندما تتسلمون كتابى هذا تهيئوا للقيام بدوركم كشيمة الرجال؛ لأن الدفاع عن أبنائكم وإخوانكم، ورفع نير العبودية عن كاهل مملكتنا، والظفر بالعدو، والاستشهاد فى سبيل الله، خيرٌ لكم من الانتقال إلى بلاد المغرب، والتخلى عن حماية إخوانكم المسلمين؛ لأن من يفعل ذلك منكم ثم يدركه الموت، يموت دون مثوبة؛ ومن يحيا منكم ويقتل رجلاً من المسلمين سوف يُسْأل ويُحَاسب بين يدى الله يوم القيامة؛ أما من

توافيه المنية وهو يحارب الكفرة، فيموت شهيداً، ومن يعش، يعيش كريمًا؛ وأسباب ذلك يمكن الإسهاب في الحديث عنها، لذلك فسوف نوجز في عرض هذا السبب. فنحن يا إخوتنا لا نخبركم سوى بالحقيقة، لذا فعليكم أن تعدوا العدة، وترسلوا إلى قائدنا حامد لتخبروه بتأهبكم، وهو سينبهكم إلى ما يتعين عليكم القيام به؛ لأننا بعثنا إليه رجلاً ليعلمه بالأمر، ولا نعرف ما حدث بعدها. أرسلوا إلى أهلكم لتعلموهم بفحوى كتابنا أينما كانوا، ثم راسلونا بما حدث، ليصبح كل منا على دراية بما يحل بالآخر. وأستحلفكم بالله أن تكتموا السر ما استطعتم إلى ذلك سبيلا، حتى ينعم الله القدير علينا بالحرية، وهي قريبة إذا سلكنا النهج الذي وضعه الله لنا للوصول إليها. سلام الله عليكم ورحمته وبركاته. كُتِبَت في الخامس والعشرين من أكتوبر. أما التوقيع فنصه: عبد الله، محمد بن محمد بن داود".

الفصل الثانى

كيف اتخذت احتياطات جديدة فى غرناطة بعد إثارة الشكوك حول القيام بالثورة

شرع الموريسكيون فى القيام بكل تلك الأمور فى أجواءٍ من السرية، نجم عنها خلق مناخ من الشكوك والريبة الشديدة فى غرناطة والمملكة بأسرها. فلاحظ الأهالى كيف تتزايد جرأة الثوار الجبليين يومًا تلو الآخر، ومدى ازدرائهم واستهانتهم برجال الشرطة. أما غلمان الموريسكيين الذين لم يتسع صدرهم لكتمان ما يتم إبرامه، فقد أعلنوا أنه قبل أن تدخل بنود المرسوم حيز التنفيذ سوف يتم خلق عالم جديد. كانت المدينة عامرةً بالموريسكيين الغرباء، الذين قدموا إلى المدينة من شتى أنحاء المملكة للاستعلام عن سير الأمور وموعد القيام بالثورة، بحجة ببيع بضاعتهم من الحرير، وشراء تنوراتٍ ومشالحٍ لنسوتهم. كان ماركيز مونديخار قد وردت إليه تحذيرات حول ما يثيره أولئك من قلاقل، حيث أذاعوا بين العامة أن ستة آلاف رجل من الأتراك سيفدون إلى البيّازين عشية عيد الميلاد لقلب نظام الحكم فيها. على الرغم من أن تلك الأمور تبدو وكأنها لا تستحق أن يوليها أحد قدرًا كبيرًا من الاهتمام، فإن احتمال حدوثها واردٌ. وقد فُهِمَ لاحقًا أن أولئك الغرباء قد نشروا ذلك الخبر لكى يظن الجميع، وقت قدوم الرجال الذين تم إحصائهم فى الوادى والغوطة، وقوامهم ثمانية آلاف، أنهم أتراك؛ وهكذا لا يبقى فى المملكة موريسكى واحد لا يشارك فى الثورة.

بيد أن كل تلك المظاهر لم تُفلح فى إقناع مستشارى جلالة الملك بوجود ثورة شعبية، بل كانوا يظنون أن نفرًا من الخارجين ينشرون الفوضى ويثيرون الاضطرابات والقلاقل فى المدينة، وإنه لا يمكنهم أن يمكثوا لفترةٍ طويلة، فليسوا جميعًا ضمن

المشاركين فى المؤامرة. أما الأثرياء الذين يعيشون فى رخاء، فقد سرتهم أجواء الاضطراب التى أشاعها الأهالي، حيث كانوا يعتقدون أن الشكوك التى ثارت حول قيام الثورة تكفى وحدها لحمل رجال المجلس على إقناع جلالة الملك بإصدار قرار يوقف تنفيذ المرسوم[٣] بيد أنهم لم يشاءوا أن يحسب أحد أنهم مديرو الأمر. من جهة أخرى شرع من طالهم ظلم رجال الشرطة والمقاتلين، جنبًا إلى جنب مع الفقراء ومثيرى الشغب والقلاقل - ممن يرغبون فى الثأر والإثراء من ممتلكات الغير - فى إشعال الأصوات المنادية بالحرية، وإذكاء نار الفتنة. وقد انتابت بعض مدبرى الثورة مشاعر الندم فى الحال، عندما تبصروا وأعادوا النظر فى الدوافع الواهية التى يستندون إليها، فقاموا بتنبيه القساوسة إلى الأمر، بيد أنهم سلكوا طرقًا غير مباشرة، شابتها مشاعر الخبث وسوء النية. كان المعلم فرانثيسكو بن أديم - الذى أسلفنا ذكره - واحدًا من أولئك النادمين، حيث توجه إلى الأب ألبوتودو Albotodo يوم الخميس الموافق الثالث والعشرين من ديسمبر، وأخبره - وكأنه فى إحدى جلسات الاعتراف - أنه فهم من حديث بعض الموريسكيين الذين كانوا يعبرون الطريق أمام باب داره أن هناك من يرغب فى إثارة القلاقل فى المملكة عشية عيد الميلاد على خلفية المرسوم؛ ولكنه لم يفصح له عن أى شىء آخر على وجه التحديد. لمّا تلقى ألبوتودو ذلك التحذير، انطلق بعدها إلى المعلّم بلاثا Plaza، وهو رئيس الدير الذى يتبعه، ليروى له ما قصه الموريسكى على مسامعه، ثم ذهب الاثنان سويًا إلى الأسقف، وحصلوا على موافقة منه لإبلاغ كل من رئيس المحكمة وماركيز مونديخار والمأمور القضائى بالأمر. ولم يشأ

(٣) كان النبلاء الإسبان يرغبون فى بقاء الموريسكيين يزرعون لهم أراضيهم الشاسعة ويتقاضون أجورًا زهيدةً، وكانوا - فى سبيل ذلك - على استعداد للتغاضى عن ممارسة الموريسكيين لشعائرهم الإسلامية، لدرجة أن أحدهم شيّد مسجدًا يصلى فيه أتباعه من الموريسكيين. انظر "الموريسكيون الأندلسيون" تأليف مرثيديس غارثيا أرينال، ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة. (المراجع)

هؤلاء إذاعة الخبر، لكى لا تنتشر أعمال الشغب فى أرجاء المدينة، واكتفوا بتعزيز القوات، ومضاعفة دوريات الحراسة، حرصًا على سلامة كل من المسيحيين والموريسكيين. أما ماركيز مونديخار فقد أمعن فى تأمين حصن الحمراء. بينما أخذ المأمور القضائى يجوب شوارع وميادين البيّازين والقصبة تلك الليلة والليلة التى تلتها، يرافقه عدد غفير من الرجال المسلحين.

الفصل الثالث

كيف شرع قادة الثوار الجبليين فى إشعال فتيل الثورة فى البشرات بهدف الإجهاز على بعض المسيحيين فى كلٍ من بوكيّرة وكاديار

فى أعقاب استنفار فرج بن فرج لسائر أصدقائه ومعارفه فى قرى الموريسكيين، عن طريق الرسائل والاستعانة بأشخاصٍ قادرين على الحفاظ على سرية الأمر، ومع اقتراب اليوم المحدد لاندلاع الثورة، أرسل فرج إلى بارتال دى ناريلا يطلب منه جمع كتائب الثوار الجبليين، وإحضارها إلى طاعات بوكيّرة وفيريّرا وأورخيبا، حتى تبدأ تلك القرى فى الثورة عندما تدرك أن قوات الوادى والغوطة متجهة إلى غرناطة. فى أعقاب ذلك يجتازون جبل شلير، ويدلفون إلى المدينة لتدعيم أهلها. كان البارتال هذا أسيراً من قبل فى سجن تابع لمحاكم التفتيش، حيث صدر إليه الأمر بعدم مغادرة غرناطة. طلب البارتال - بحجة قضاء بعض الأمور - رخصة من أعضاء محكمة التفتيش، للتوجه إلى البشرات لبيع ممتلكاته هناك. وقد أتاحت له تلك المسألة العبور إلى بلاد المغرب، ثم عاد إلى تلك الأرجاء مرةً أخرى ليذكى نار الثورة، حيث عرض على الموريسكيين أن يجلب إمدادات ومعونات هائلة من إفريقيا، حتى يزيد من قوة أولئك الخونة ويبالغ فيها. وقد اختبأ فى منزله لعدة أيامٍ فى أثناء إبرامه تلك الخطة، بيد أنه لم تتح له مشاهدة بداية مخططه الآثم؛ لأن شرارة الثورة اندلعت قبل أوانها المحدد، كما سنعرض فى السياق التالى.

جرت العادة أن يقوم قضاة وكتبة محكمة أوغيخار دى ألباثيتى فى كل عامٍ بالذهاب لقضاء أعياد الميلاد والعطلات مع نسائهم، حيث كان أغلبهم متزوجين

ومقيمين فى غرناطة. وكانوا دائمًا ما يحملون فى طريقهم دجاجًا وأفراخًا وعسلاً وفاكهةً ونقودًا من القرى التى يعبرون بها، حيث يستغلون الموريسكيين قدر استطاعتهم[٤] وقد انطلق كل من خوان دوارتى Juan Duarte وبدرو دى ميدينا Pedro de Medina وخمسة آخرين من الكتبة والحجاب برفقة دليل موريسكى يوم الثلاثاء الموافق الثانى والعشرين من ديسمبر، وشرعوا يجوبون القرى ويثيرون فيها القلاقل فى حرية تامةٍ كما جرت العادة عندما تكون الأجواء هادئة ومواتية. فهرع نفر من الموريسكيين - ممن تمت مصادرة دوابهم - إلى الثوار الجبليين؛ لأنهم اعتقدوا أن الثورة التى يخططون للقيام بها ستحمل الكتبة على عدم الاستيلاء على أشيائهم بعد الآن؛ وتضرعوا إلى كل من البارتال والسينيث دى بيرتشول el Seniz de Bérchul حتى يخرجا، على رأس مجموعتين من المقاتلين، لملاقاة هؤلاء لاستعادة الدواب منهم، فلم يتوانيا عن الاستجابة لمطالبهم، وعندما وصل المسيحيون فى مساء يوم الخميس الموافق الثالث والعشرين من الشهر المذكور إلى كرمة تقع على حدود بوكيرا، خرج أولئك لقطع طريقهم وحصد أرواحهم فى آنٍ واحد، دون أن يفطنوا إلى مدى الضرر الذى يمكن لذلك الشأن أن يلحقه بخطتهم. فأجهزوا على ستة منهم، وفر كل من بدرو دى ميدينا والموريسكى، حيث توجها لدق ناقوس الإنذار فى ألباثيتى دى أورخيبا Albacete de Órgiba . علاوةً على ذلك، فقد صادفهم فى الطريق خمسة جنود من موتريل، كانوا قد حضروا أيضًا ليحملوا معهم قدرًا من الهدايا بمناسبة أعياد الميلاد، فقتلوهم واستولوا على جيادهم.

فى اليوم ذاته دلف إلى المدينة كل من فيريّرا دييغو دى إيريرا Ferreira Diego de Herrera - قائد قوات حصن أدرا - وخوان أورتادو دوكامبو -Juan Hurtado Docam po- صهره - وهو واحد من أهالى غرناطة وفارس فى رهبانية سانتياغو، على رأس

(٤) هذه إحدى المرات النادرة التى يوجه فيها مارمول نقدًا للسلطات الكنسية، على عكس أورتادو دى مندوثا. (المراجع).

خمسين جنديًا وشحنة من البنادق إلى ذاك المعقل؛ فلمّا شرع أولئك فى إحداث القلاقل والاضطرابات عينها التى تسبب فيها الكتبة وحملة الدروع، أُعْلِم الثوار بالأمر، فعزموا على القضاء عليهم كما فعلوا بالآخرين، حيث تراءى لهم أنه لا ضير من استعجال الأمور، فهم جميعًا يعلمون بالمخطط وعلى أهبة الاستعداد لتنفيذه.

بعدما أجمع الثوار كلمتهم توجهوا إلى موقعى سوبورتوخار Soportújar وكانيار Cañar الكائنين فى أورخيبا. فحشدوا أكبر قدر استطاعوا تجميعه من الأفراد، واقتفوا خطى القائد إيريرا؛ وقد أبلغوا السيد إيرناندو الصغير بعزمهم؛ لأنهم كانوا يعلمون أنه لا بد لهم من قضاء الليلة التالية فى كاديار. حينئذ أصدر إليهم السيد إيرناندو الأمر حول كيفية الإجهاز عليهم: يحمل كل واحد من أهالى المكان أحد الجنود ليحل ضيفًا على منزله، وعندما ينتصف الليل يدلف الثوار الجبليون إلى المنازل، التى يكون المضيفون قد فتحوها على مصراعيها، ليعملوا القتل فى الجنود فردًا فردا. لم يلذ بالفرار سوى ثلاثة جنود فقط قصدوا طريق العودة إلى أدرا؛ كما قتلوا ماريبلانكا Mariblanca خادمة الكاهن خوان دى ريبيرا Juan de Ribera، وآخرين غيرها من أهل البلدة.

فلمّا أتموا ذلك، تسلح أهالى كاديار بالأسلحة التى استولوا عليها من الضحايا، وأرسلوا النساء والمنقولات والأنعام برفقة الشيوخ إلى خوبيليس، بينما قفل الغلمان عائدين إلى أوخيخار دى ألباثيتى فى صحبة الثوار الجبليين؛ أما السيد إيرناندو الصغير والبارتال فانطلقا يجوبان المناطق المتاخمة لحشد المقاتلين، ثم قاموا بجمع صفوفهم كلها فى أوخيخار فى يوم آخر، وسوف نكتفى الآن بسرد هذا القدر حتى يحين الوقت لنعاود رواية الوقائع؛ لأنهم سيقترفون من الأحداث ما لا قبل لنا بنسيانه أو إغفاله، حتى إن أردنا ذلك. وإذا افتقد القارىء شيئًا من الأمور التى يعرفها أو يود معرفتها، فعليه التحلى بالصبر؛ لأنه سيجد بغيته لاحقًا فى سياق عرضنا للأحداث. حيث جرت أشياء كثيرة ومتنوعة فى العديد من المواقع، فأضحى من الضرورى التطرق إليها جميعًا.

الفصل الرابع

كيف وصلت أخبار جرائم القتل التى اقترفها الثوار الجبليون إلى غرناطة، ورغبة ابن فرج فى اشعال فتيل الثورة فى البيّازين

تميزت احتفالات أعياد ميلاد مخلصنا المسيح فى غرناطة، والتى أقيمت فى مساء يوم الجمعة، بالمهابة والجلال الذى طالما اتسمت به تلك الاحتفالات فى تلك المدينة الشهيرة، وإن شابها قدر من التحفظ، نظرًا لوجود العديد من الرجال المدججين بالأسلحة يجوبون الشوارع. فى صبيحة يوم السبت وفد إلى المدينة رجلان قادمان من أورخيبا برسالتين، واحدة من المأمور غاسبار دى سارابيا Gaspar de Sarabia، والأخرى من إيرناندو دى تابيا Hernando de Tapia، قائد فرقة المقاتلين التى تقتفى آثار الثوار الجبليين اللاجئين إلى برج ألباثيتى، وسوف يرد ذكر هذا الأمر لاحقًا. كانت الرسالة الأولى موجهة إلى سيادة الرئيس، بينما كانت الثانية موجهة إلى السيد غابريل دى كوردوبا Gabriel de Córdoba - عم دوق سيسا - وكانت هذه هى مدينته. كان مضمون الرسالتين هو تنبيه كلا الرجلين إلى عمليات القتل التى ارتكبها الموريسكيون، وكيفية اشعالهم للثورة فى أعقاب ذلك، ومحاصرتهم للمسيحيين فى البرج، حتى يرفعا الأمر إلى ماركيز مونديخار ويطالباه بإنقاذهم.

وقد تسلّم السيد غابريل دى كوردوبا كلا الرسالتين، ومن ثم حملهما إلى الرئيس، وبعدها إلى ماركيز مونديخار، الذى ظن أن بعض مسلمى شمال إفريقيا قد رسوا على الساحل، وانضموا إلى صفوف الثوار الجبليين ليحتلوا سويًا إحدى البقاع، وهو أمر كان قد حدث من قبل عدة مرات، فاكتفى الماركيز بتحذير سلاح الفرسان، ليكونوا

مطلعين على الأمر إذا ما لزم تدخلهم للقيام بعمليات إغاثة. وسرعان ما فتر تأثير الإنذار الأول، حيث لم يُتْبَع بآخر، وكذلك فقد أهمل مرصد المدينة القيام بدوره. فلمّا كان الجميع قد أنهكته دوريات الحراسة التى اضطلع بها من قبل، وكانت تلك الليلة قد شهدت هبوب عاصفة قارصة البرودة تساقطت فيها الثلوج بغزارة، فلم يعد هناك من يتوجه إلى منزل المأمور القضائى ليصحبه فى جولات الحراسة؛ وإذا كان بعض الفرسان قد ذهب إلى هناك، فقد تأخر وصولهم للغاية وكان عددهم قليلاً إلى الحد الذى توجب معه التخلى عن نوبة الحراسة، فى الوقت الذى كانت المدينة فى أمس الحاجة إليها.

كان موريسكيو البيّازين قد وردت إليهم أنباءٌ أكثر تأكيداً حول الوقائع التى دارت فى البشرات، فانتاب الجميع القلق، وقد سُرّ البعض لأن أهل البشرات قد أشعلوا الثورة ووضعوا رؤوسهم على المحك عوضاً عنهم؛ وكان هناك آخرون، ممن يرغبون فى اندلاع ثورة عامة، قد ساءهم رؤية الثوار الجبليين وقد تسرعوا وانقادوا وراء رغبتهم فى قتل ذلك العدد الضئيل من المسيحيين، ولم يتكبدوا عناء الانتظار حتى تطلق البيّازين شرارة الثورة على النحو المتفق عليه. وعندما أدرك فرج بن فرج، وكان يرقب الأمور عن كثب، أن المدينة وحصن الحمراء آخذان فى التنبه والتهيؤ ساعةً تلو الأخرى، اصطحب معه مساء يوم السبت الموافق أول أيام عيد الميلاد كلاً من ناقوس دى نيغويليس وسينيث دى بيرتشول -قائدا الثوار الجبليين- وتوجه برفقتهما على وجه السرعة إلى غويخار وبينوس وثينيس وكينتار ودودار، حيث حشد ما يقرب من مائة وثمانين رجلاً ضالاً من الثوار الجبليين الأوائل، ممن تمكنوا من عبور الجبل صباح يوم الجمعة؛ لأن المقاتلين الآخرين لم يتسن لهم المجيء؛ وحتى أهالى تلك الأنحاء لم يلبوا نداءهم، حيث أخبروهم أن أهل البيّازين قد أرسلوا إليهم صبيحة ذاك اليوم من ينبههم ألا يحدثوا أمرًا حتى يبعثوا إليهم بخبر.

أراد فرج أن يستعين بأولئك الأشخاص ليشرع فى قتل المسيحيين. فى كينتار قام موريسكيو البلدة أنفسهم بإخفاء الكاهن القانونى. أما الكاهن القانونى لدودار فقد

تصدى لفرج فى برج الكنيسة؛ على الرغم من أن فرجًا أضرم النيران فى البرج، فلم يحقق أى شىء يذكر. من هناك - من دودار - رجع إلى غرناطة يملأه التصميم على إشعال الثورة فيها؛ فنزل إلى بعض المطاحن الكائنة على ضفاف نهر حدرّة، واستولى على ما كان فيها من معاول ومعدات، وعندما وصل إلى سور المدينة القائم أعلى باب وادى آش، حطم حاجزًا من الطين اليابس كان يسد بابًا صغيرًا، وترك عنده خمسًا وعشرين رجلاً، ثم دلف مع البقية الباقية إلى المدينة من أعلى الحى الذى يطلق عليه الرياض البيضاء Rabad Albaida عند انتصاف الليل بالضبط، ودخل إلى منزله المتاخم لكنيسة القديسة إيسابيل دى لوس أباديس؛ وكان فى أثناء دخوله عبر الباب الصغير قد أمر كل رفقائه بتنحية البرانيط والقبعات التى تغطى رؤوسهم، ليعتمروا بدلاً منها قلنسوات ملونة ذات طابع تركى تكسوها خمر صغيرة بيضاء، حتى يبدوا كأنهم أتراك.

فى أعقاب ذلك أرسل فى طلب نفر من الرءوس المدبرة للثورة، وأخبرهم أن الثورة قد اندلعت بالفعل فى البشرات، وعليه فقد بات مواتيًا أن يحذو أهالى البيّازين حذوهم قبل أن يتسنى للمسيحيين إدخال أعداد أكبر من المقاتلين إلى المدينة؛ كما أن الثمانية آلاف رجل القادمين من الوادى والغوطة وقادة قوات أهالى الدوائر لا ينقصهم الكثير للتهيؤ للأمر، وعندما يشعرون باندلاع الثورة سوف يهرعون للقيام بأدوارهم -وإن كان ذلك قبل الأوان المحدد - وسوف يسلك أهالى المناطق الجبلية النهج نفسهُ، ويضحى بالإمكان الحصول على النتيجة المرجوة فى حصن الحمراء. أما مدبروا الخطة، الذين لم يرق لهم هذا القدر من العزم والتصميم غير المتأنى، فقد أجابوه بأن الرأى الذى أبداه ليس سديداً، وأن قدومه مع ثمانية آلاف رجل لا يفيد؛ فهم لن يبيدوا أنفسهم أو يهلكوا من أجله، ولن يتسنى لهم إيواءه، لأنه حضر قبل موعده ولم يرافقه سوى نفر قليلين. وهكذا تركوه وغادروا المكان متوجهين إلى منازلهم وأغلقوا أبوابها عليهم؛ وكان سرورهم بما قام به فرج لا يقل عن سعادتهم بما أقدم عليه أهالى البشرات، ظنًا منهم أن كلا الأمرين سيسفران عن إصدار قرارٍ جديدٍ فى شأن المرسوم سعيًا وراء إحلال السلام، دون أن يغامروا هم بأرواحهم أو يخاطروا بممتلكاتهم.

شعر فرج ببالغ الأسى للطريقة التى أجابه بها أهالى البيّازين، وشرع يبث شكواه منهم قائلاً: "كيف تدفعونى للتخلى عن دارى وأسرتى وأملاكى والالتجاء إلى الجبال مع جماعة من الهالكين لا لشىء سوى تحريرالأمة، والآن عندما تشهدون شرارة الانطلاق، أنتم يا من كان حريًا بكم أن تدعمونا وتساعدونا أكثر من أى شخص، تنفضون أيديكم من الأمر، وكأن هناك طرقًا أخرى لمعالجة هذا الشأن، أو أن هناك أملاً فى أن تُغْفَر لنا خطايانا وما اقترفناه! كان لزامًا عليكم أن تنبهونا إلى ذلك من قبل. لمّا كان الحال هكذا، فإما أن أشعل نيران الثورة فى البيّازين، أو يهلك كل من فيها".

عقب إطلاق تلك التهديدات، غادر فرج منزله قبيل طلوع الصباح بساعتين، على رأس مرافقيه الذين قسمهم إلى قسمين، وسلك شارع رباض البيضاء إلى أعلاه، ثم توجه ناحية اليمين صوب الميدان المواجه لباب القديس سلبادور، حيث تم تنبيهه إلى وجود ستة أو سبعة جنود يقومون بالحراسة؛ عندما وصل الجمع إلى مدخل الشارع تراءى للثوار الجبليين الذين يشغلون مقدمة الصفوف عدم الكشف عن وجودهم حتى يصل الجميع،حيث أبصروا أحد الجنود يتجول فى الميدان. كان ذاك الجندى يتولى الحراسة، وعندما استشعر الضجيج الذى أحدثه الرجال فى أثناء صعودهم أعلى الطريق، ود التظاهر بالشجاعة ظنًا منه أن المأمور القضائى يقوم بإحدى نوبات الحراسة، فوضع يده على سيفه وتوجه صوب الثوار الجبليين وهو ينادى: "من هناك؟" فأجابه هؤلاء بأقواسهم المهيأة بالسهام، وجرحوه فى الفخذ، فلاذ بالفرار وهو يشهر سلاحه، وعاد أدراجه إلى حيث زملائه، وكانوا نائمين إلى جوار نار كانوا قد أشعلوها بجانب حائط الكنيسة؛ لأن البرد كان قارسًا، لهذا لم يكونوا متأهبين للاستيقاظ والتهيؤ على النحو المفروض، مما أتاح للثوار الجبليين القضاء على أحدهم وجرح اثنين آخرين. فى نهاية الأمر تمكن المصابون والمعافون جميعا من الهرب، وأخذ الأعداء فى ملاحقتهم عبر الأزقة الضيقة، حتى انتهى بهم الطريق إلى ميدان باب البنود، فوصلوا إلى عدد من المنازل الكبيرة التى يقطنها الآباء اليسوعيون، حيث نادى الثوار على الأب

ألبوتودو باسمه المجرد وسبوه ناعتين إياه بالكلب المرتد، فهو ابن لأبوين مسلمين أضحى فقيهًا للمسيحيين. عندما لم يتمكنوا من تحطيم الباب، الذى كان قويًا وموصدًا بإحكام من الداخل، قاموا بإنزال صليب من الخشب كان معلقًا على الباب، وكسّروه إلى قطع صغيرة.

أما الكتيبة الأخرى التى كانت تتبعهم تحت قيادة ناقوس، فقد سلكت جهة اليمين عندما حضرت إلى الميدان، حتى وصلت إلى مدخل شارع يطلقون عليه الميدان الطويل، حيث حطموا أبواب صيدلية أحد المتعاونين مع محاكم التفتيش، ويدعى دييغو دى مدريد Diego de Madrid، لأنهم كانوا يحسبون أنه بالداخل، نظرًا لاعتياده المبيت هناك كل ليلة. لمّا لم يعثروا عليه، نفثوا عن غضبهم بتهشيم القنينات والزجاجات، حتى أمسى كل شيء مفتتًا إلى قطع صغيرة. من هناك عبروا إلى باب صغير فى جدار القديس نيكولاس الكائن بجوار أقدم أبواب القصبة القديمة، فوق إحدى الربوات المرتفعة، التى يمكن للمرء من أعلاها كشف الجزء الأكبر من حى البيّازين، وشرعوا فى عزف الناى ودق الطبول الصغيرة التى كانت فى حوزتهم، بعد أن رفعوا رايتين وأضاءوا شمعة. ثم أخذ واحد منهم فى الصياح بصوت مرتفع بلغته العربية[٥] مرددًا ما يلى: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله، على كل المسلمين الراغبين فى الثأر لما ألحقه المسيحيون من جور وضيم بأشخاصهم وشريعتهم، أن يحضروا للإنضمام إلينا تحت هاتين الرايتين؛ لأن كلاً من ملك الجزائر والسلطان الشريف - أدام الله مجده - يدعموننا ويقفون وراءنا، وقد بعثا إلينا هؤلاء الرجال جميعًا، بالإضافة إلى الرجال الذين ينتظروننا بالأعلى. هيا،هيا! هلموا، أقبلوا! ها قد حانت ساعتنا، وسائر أراضى المسلمين تموج بالثورة". سمع ذلك النداء وفهمه الكثير من المسيحيين، بيد أنه لم يغادر أى موريسكى أو مسيحى داره، أو يهم أحد بفتح باب أو نافذة، على الرغم من أن رجلين كانا قد أخبرانا أنهما سمعا صوتًا صادرًا من أحد الأسطح يجيب على النحو

(٥) نفهم من كتاب مارمول أن اللغة العربية لم تندثر بعد فترة قصيرة من سقوط غرناطة، بل استمرت حتى لحظة الطرد نفسها (المراجع).

التالي: "انطلقوا أيها الأخوة في رعاية الله، فإن عددكم قليل، وقد أتيتم في غير أوانكم"(٦).

عندئذ فطن فرج بن فرج أنه لا يوجد من ينصره ويؤيده، وأن أجراس كنيسة القديس سلبادور تقرع منذرةً بوجود خطر؛ لأن الكاهن القانوني ألونسو دى أوروثكو، الذى يسكن خلف خزانة الأشياء المقدسة بالكنيسة، استطاع أن ينفذ إلى داخل الكنيسة عبر بوابة مطمورة، وشرع فى دق الناقوس؛ فحشد رفاقه جميعًا، وخرج سالكًا الطريق الذى يمر عبر المنازل حتى توقف عند أحد المرتفعات الموجودة على السفح، ويتسنى للمرء عن طريقها الصعود إلى برج الزيتون، وهنالك أمر بتكرار النداء على نفس النحو. عندما لم يلب أحد دعوته، أخذ يكيل السباب لأهالى البيّازين ويقول لهم: "أيها الكلاب، أيها الديوثون، أيها الجبناء، يا من خدعتم الناس ولم تفوا بما عاهدتم". ثم خرج عبر البوابة الصغيرة التى كان قد دلف عبرها إلى الداخل، وعاد أدراجه إلى ثينيس بعد أن بزغ ضوء الصباح، دون أن يعترض مسيرته خلال تلك الساعتين أى عائق على الإطلاق؛ وهو أمر يدفعنا للاعتقاد أن فرجًا لو كان قد أحضر معه المقاتلين أجمعين، ولو كان أهالى البيّازين لبوا نداءه، لكان من الممكن أن نشهد منظرًا رهيبًا يغص بالقتلى فى المدينة فى تلك الليلة. علاوةً على ذلك، لو كانت كتائب الثوار الجبليين القادمة من البشرات قد وصلت إلى الساحة، فعلينا تدبر ما كان يمكن أن يجرى؛ ولكان هؤلاء قد هلكوا ولم يتسن لهم عبور الجبل لأنها كانت ليلة عاصفة هطلت فيها الثلوج؛ وقد منى بالمصير ذاته نفر من الغلمان لا ينتمون إلى الكتائب، لكنهم كانوا على دراية بالأمر ومهيئين للمشاركة فيه، وكانوا قد أبلغوا فرجا أنهم سينضمون إليه عشية أعياد الميلاد.

(٦) يحاول مارمول أن يبدو كشاهد عيان، لكن المطالع للأدب الإسبانى يعرف أن الجملة مجرد صياغة نثرية لبيت من قصيدة: جئت متأخراً يا زايد، ورجالك قليلون" انظر كتاب "مسلمو مملكة غرناطة " تأليف خوليو كارو باروخا، ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣، ص. ١٨١. ويورد بيريث دى إيتا فى كتاب "الحرب ضد الموريسكيين" النص الكامل للقصيدة.، ص. ٥٦ (المراجع)

الفصل الخامس

ما قام به المسيحيون عندما علموا بدخول الثوار الجبليين إلى البيّازين

ذكرنا آنفًا أن الجنود الذين كانوا قد هربوا من الثوار، توجهوا لإخبار بارتولومى دى سانتا ماريا بما يدور، وهو أحد الحجاب الذين قام سيادة الرئيس بتعيينهم. عندما نزل هؤلاء إلى المدينة، أخذوا يجوبون الشوارع وهم يصيحون ويطلقون الأعيرة النارية؛ بيد أن الأهالى أسرفوا فى التوانى وإغفال الأمر، حتى أن كثيراً منهم لم يصدقوا أن تلك الأصوات صادرة من أسلحة حقيقية، حيث أطلوا من النوافذ ليطالبوهم بالتزام الصمت، ظنًا منهم أنهم ثملون دون شك. بينما خرج آخرون وهم منزعجون ويحملون فى أيديهم الأسلحة، فما كانوا يعلمون ما الذى يتعين عليهم فعله، أو إلى أين يلجأون.

إبان وصول هؤلاء إلى مقر المحكمة، حيث كان يتواجد الرئيس، قصوا عليه الوقائع التى حدثت، ولكنهم صاغوها بصورة مشوشة ومرتبكة؛ لأن الرجال لم يفعلوا أى شيء سوى الفرار؛ فأرسل الرئيس واحدًا منهم إلى ماركيز مونديخار، وبعث بآخر إلى المأمور القضائى. كما أصدر أوامره إلى الحاجب بأن يرجع إلى البيّازين، ويستعلم أكثر عن أصل ما حدث هناك. أما الجندى الذى توجه إلى ماركيز مونديخار، فقد مكث لبرهة عند بوابة الحمراء؛ لأن الحراس لم يشاءوا أن يفتحوا له الأبواب حتى يصدر إليهم الأمر بذلك من كونت تينديّا، الذى كان آنذاك فى إحدى نوبات الحراسة. كان الكونت قد سمع بالفعل النداءات وأصوات الآلات الموسيقية المنبعثة من ناحية السور، وقد رغب فى تحرى الأمر بصورةٍ أفضل، فسأل الجندى ما بال تلك

الضوضاء؟، فقص الرجل على مسامعه ما كان، وأخبره أن الرئيس قد أرسله من أجل تحذير الماركيز. حينئذ اصطحبه الكونت إلى غرفة أبيه حتى ينبأه بما قصه عليه، لكن الماركيز لم يشأ تصديق كون الأمور على النحو الذى يرويه الجندى، وظن أن نفراً من الرجال الفاسدين هم من أحدثوا تلك القلاقل. عندما أكد له الحاجب أنهم كانوا مسلمين يعتمرون القبعات الخاصة بالمسلمين، كما أن ابنه الكونت ذاته قد أخبره أنه قد سمع النداءات والآلات الموسيقية، حينها تريث الماركيز لتدبر الأمر بروية أكثر، والتفكر فيما يتعين القيام به.

كان فى رفقته عندئذ مائة وخمسون جنديًا فحسب، وكان هناك خمسون فرسًا يمكن إخراجهم وتركهم فى الحصن. وقد تراءى له أن مغادرة الحصن تلك الليلة سيكون خطأً فادحًا، فهو لا يدرى كم عدد المسلمين الذين دلفوا إلى البيّازين، ويمكن أن يكونوا كثيرين؛ لأنه كانت هناك أعدادٌ كبيرةٌ من الموريسكيين فى البلدة. كان الماركيز يعتقد أن المدينة تضم عدداً ضئيلاً للغاية من الأشخاص النافعين والمسلحين جيداً بحيث يتسنى له الإفادة منهم والمبادرة بالهجوم على الشوارع والمنازل الضيقة، التى يسكنها عشرة آلاف رجل يمكنهم حمل السلاح. فى النهاية، حزم أمره وقرر عدم الخروج من الحصن؛ كما أنه لم يوافق على قرع ناقوس الإنذار؛ لأنه كان يبدو أن الضوضاء قد توقفت بالفعل فى البيّازين، والهدوء يعم كل الأجواء، فلم يشأ الماركيز أن تسنح الفرصة للمواطنين بالصعود إلى البيّازين لنهب ديار الموريسكيين. وقد كان متعقلاً للغاية فى ذلك القرار؛ لأن الجشع والحقد اللذين كانا يعتملان فى صدور الناس كانا كافيين لأن يضعوا الأمر قيد التنفيذ قبل أن ينقضى وقت طويل.

من جهةٍ أخرى، فإن المأمور القضائى حال وصول الجندى الآخر لديه وتنبيهه، امتطى صهوة جواده، وقصد مقر المحكمة الملكية يرافقه بعض الفرسان الذين هبوا لنجدته. إبان وصوله إلى الميدان الجديد المقابل للمحكمة، أخذ يجمع الناس التى وفدت

إلى هناك بعد أن فقدت رشدها، محاولاً أن يعيق أى شخص عن الصعود إلى البيّازين. وقد حضر أيضا كل من السيد غابريل دى كوردوبا، وصهره السيد لويس دى كوردوبا – قائد فرسان غرناطة – وفرسان آخرون غيرهم ظلوا طيلة ما تبقى من الليل فى ذلك الميدان وهم مدججون بالأسلحة، فى انتظار أن يجد جديد فى ذلك الشأن. فى أعقاب دخول الحاجب إلى شوارع البيّازين، أدرك أن المسلمين قد انصرفوا، حيث لم يعثر فى أى من الطرقات على شخص واحد مشتبه فيه. فحشد أكبر قدر من الأفراد استطاع جمعه، وعاد أدراجه عبر الباب الصغير الذى كان الثوار قد دخلوا منه، ظنًا منه أنه من الممكن أن يسمع خبرًا عنهم، فوجد هناك جوالاً يحتوى على قلنسوات ملونة يبدو أنهم كانوا قد أحضروها لمنحها لمن ينضم إليهم من الفتيان المسلمين، كما عثر أيضًا على بعض المعدات التى خلّفوها وراءهم، فجمع كل ما وجد؛ ولم يجرؤ على المضى قدمًا فرجع إلى المدينة.

عندما اتضح النهار، ترك ماركيز مونديخار صهره السيد ألونسو دى كارديناس **Alonso de Cardenas** – الذى تقلد فيما بعد منصب كونت لابويبلا **la Puebla** - فى حصن الحمراء، واصطحب معه ابنيه: كونت تينديا والسيد فرانثيسكو دى مندوثا **Francisco de Mendoza**، ثم هبط إلى الميدان الجديد، حيث كان كل من المأمور القضائى والسيد غابريل دى كوردوبا موجودين، وقد انضم إليهما لاحقًا ماركيز بيينا وماركيز بيّانويبا والسيد بدرو دى ثونييغا **Pedro de Zúñiga** كونت ميراندا – وكانوا جميعهم قد حضروا لمتابعة قضاياهم أمام المحكمة الملكية – كما جاء أيضًا العديد من الفرسان والسيافون المدججون بالأسلحة. طلب منهم الماركيز أن يهدءوا؛ لأن من دخلوا إلى البيّازين وأحدثوا كل تلك الفوضى والاضطرابات لا بد وأن يكونوا من الثوار الجبليين والرجال الفاسدين الضالين، فهم خرجوا بعدها ليلوذوا بالفرار، وأنه سوف يعلم حقيقة ما جرى عما قريب.

بينما هو يخبرهم بذلك، وصل إليه رجل ليحذره من أن المسلمين قادمون تحت رايتين مرفوعتين من وراء ربوة الشمس، المؤدية إلى بيت الديك – التى تدعى دار

لويت[٧] (دار الوادى؟) – وهى تبعد مسافة نصف فرسخ من المدينة أعلى نهر شنيل. أسفر ذلك النبأ عن اندلاع ثورة بين صفوف أولئك الفرسان جميعًا. كان هناك من أخبر الماركيز بجدوى إرسال ستين فارسًا بصحبة ستين آخرين من الجنود المسلحين بالبنادق إلى المؤخرة، لكى يحاولوا تعطيل أولئك المسلمين حتى تصل الحشود بأكملها؛ وهو رأى لم يقره الماركيز، قائلاً إنه يود أولاً أن يعلم من هؤلاء الأناس، وأى طريق سلكوا، ومدى تأمين البيّازين. أثار هذا الحديث استياء الكثير من الموجودين، الذين كانوا يعتقدون أنه كلما تأخر خروج القوات، كلما اكتسب المسلمون المزيد من الأرض والوقت للتمركز فى الجبال، وعندئذ لن يتسنى للمسيحيين النيل منهم، وهو ما حدث بالفعل. فى أعقاب ذلك، بعث ماركيز مونديخار أحد عبيده، وهو حامل درع يدعى أمبويرو Ampuero، ليستعلم عن كنه الأشخاص الذين يزعم ذاك الشخص أنه قد رآهم؛ وعلى العبد أن يصطحب معه زميلاً آخر، وعندما تتضح له حقيقة الأمر، يترك صاحبه عندهم، ويرجع بسرعة لتنبيه الماركيز.

عندما فطن الماركيز إلى عدم كفاءة الاحتياطات وقلة عدد الرجال الموجودين لديه، إذا ما دعت الحاجة لقمع البيّازين بالقوة، أدرك أنه يتعين عليه اللجوء إلى الحيلة حتى يتسنى له إعاقتهم عن القيام بالثورة. فترك كونت تينديا فى الميدان بصحبة الفرسان الآخرين، وخلّف الوجهاء[٨] على رؤوس الشوارع، ثم صعد إلى البيّازين يرافقه المأمور القضائى وثلاثون فرسًا وأربعون جنديًا مسلحًا بالبنادق، علاوةً على جنود حراسته المسلحين بالرماح ذات الرؤوس الأشبه بالفؤوس، ومر فيه من دون أن يعثر على أى شخص؛ لأن الموريسكيين كانوا قد غلّقوا على أنفسهم الأبواب، وتحصنوا داخل

---

(٧) لم نعثر على مرادف للفظ النهر يقترب من اللفظ الذى يذكره مارمول، والمصادر العربية التى اطلعنا عليها لا تذكر هذا الموضع (المراجع).

(٨) كانت كل مدينة بها أربع وعشرون من الوجهاء يعرف كل منهم بأنه "أربع وعشرون veintecuatro وهؤلاء هم الذين عينهم الماركيز للوقوف على الشوارع. (المراجع).

منازلهم خوفًا من أن تتم سرقتهم، حتى وصل إلى كنيسة القديس سلبادور، وسأل بعض المسيحيين المجتمعين هناك ما بال المسلمين لا يظهر منهم أحد؟، فأجابوه أن الموريسكيين جميعًا قد أغلقوا عليهم أبواب منازلهم.

حينئذ أمر الماركيز خورخى دى بايثا أن يستدعى بعضًا من أهم الموريسكيين البارزين؛ لأنه يرغب فى التحدث إليهم، فمثل أمامه خمسة وعشرون أو ثلاثون رجلًا، فسألهم عما حدث وعن هوية الأشخاص الذين دخلوا إلى البيّازين ليثيروا بينهم القلاقل. وقد أجابوه فى خضوع وتواضع أنه لا علم لهم بأى من تلك الأمور؛ لأنهم كانوا داخل منازلهم، وهم مسيحيون صالحون ورعايا مخلصون لصاحبى الجلالة، وعليه فإنه لا يجدر بهم أن يقترفوا ما يتعارض ومصلحة الملك. فإذا كان بعض الأشخاص قد قدموا إلى المدينة لقلقلتها وإشاعة الاضطرابات فيها، فلا بد أنهم أعداؤهم، وأنهم إناس يرغبون فى إلحاق الضرر بهم. وقد أجابهم ماركيز مونديخار أنهم قد برهنوا على صدق ما يقولون، وإنه حرى بهم المحافظة على ولائهم لصاحب الجلالة؛ لأنهم إذا التزموا بما يتوجب عليهم القيام به، فسيسعى جاهدًا كيلا ينالهم أى ضير، وسوف يكتب إلى صاحب الجلالة تزكيةً فى شأنهم، ويتضرع إلى جلالته لكى يشملهم بعطفه وحظوته.

يبدو أن ذلك الحديث قد أفلح فى إضفاء السرور على الموريسكيين، بعد أن كانوا فى خوفٍ شديد، فوعدوا الماركيز أن يظلوا على حالهم ويحافظوا على إخلاصهم وتقديمهم لفروض الطاعة الواجبة كحال الرعايا الأخيار والأوفياء. بعد أن أتم ماركيز مونديخار مسعاه هبط من طريق القصبة الملىء بالعقبات، حتى دخل إلى المدينة عبر باب البيرة، ثم رجع إلى الميدان الجديد، حيث كان الفرسان ما زالوا فى انتظاره، فانفرد جانبًا بكل من المأمور القضائى وكونت تينديا، واستمروا فى الأخذ والرد فيما بينهم حول ما يجب القيام به فى ذاك الشأن لفترة طويلة. فى النهاية خلصوا إلى أنه بمجىء أمبويرو، وإخباره إياهم عن الطريق الذى سلكه المسلمون، سوف يضحى بالإمكان الذهاب فى أثرهم؛ لأنه سيكون لزامًا على هؤلاء الدوران حول وادى ليكرين،

ولن يتسنى لهم اللجوء إلى الجبال بسرعة كبيرة، مما يتيح لسلاح الفرسان أن يلحق بهم أولاً؛ وبناءً على ذلك الاتفاق أخبر الماركيز الفرسان والسادة المجتمعين هناك بأن يعودوا إلى ديارهم، ويكونوا على أهبة الاستعداد إذا ما استشعروا إطلاق أى نيران مدفعية؛ أما هو فقد قفل عائداً مع ولديه إلى الحمراء.

الفصل السادس

كيف خرج ماركيز مونديخار لتقفى أثر الثوار الجبليين الذين اقتحموا البيّازين

فى ذلك اليوم اتفق كل من المأمور القضائى والوجهاء على أن يخرجوا بأنفسهم لاقتفاء آثار الثوار الجبليين فى المدينة، حيث تراءى لهم أن قرار ماركيز مونديخار قد تأخر كثيراً؛ لمّا كانوا قد اتخذوا قرارهم فى مجمع الأديرة، فقد أرسلوا إليه اثنين من الوجهاء لاخباره بالأمر والتضرع إليه من أجل أن يلحق بهم هو، وهكذا يخرج الجميع بصحبته، أو أن يأذن لهم فى الخروج. وقد أجابهم الماركيز بتوجيهه الشكر الجزيل لهم لحرصهم على الأمور التى تصب فى مصلحة جلالة الملك، وإخبارهم أنه لا ينتظر سوى وصول إشارة مؤكدة عن الطريق الذى سلكه الثوار الجبليين حتى يشرع فى ملاحقتهم، وقد بات الأمر وشيكًا.

كان الجميع تنتابهم رغبةٌ عارمةٌ فى اقتفاء أثر المسلمين، وكانت كل دقيقة تؤخرهم عن الخروج تمر وكأنها عام؛ بيد أن ماركيز مونديخار لم يرغب فى اتخاذ القرار بمغادرة الحصن والمدينة حتى يتثبت يقينًا من كنه أولئك الثوار، فمن المحتمل أن تكون أعدادهم كبيرة، وأن يكونوا قد نصبوا للمسيحيين فخًا خلف تلك المرتفعات. من أجل ذلك مكث يترقب عودة الجنديين اللذين كان قد بعثهما آنفًا لتقصى الأمر. بينما كان الماركيز يتحدث إلى نفر من موريسكيي البيّازين، كانوا قد حضروا ليشكروه باسم المملكة لما أظهره تجاههم من عطف ودعمه إياهم بوجوده بينهم، وكذلك فقد رغبوا فى التوسل إليه كيلا يتخلى عنهم من الآن فصاعداً، إذ جاء أمبويرو، فأخبره أن الرجال الذين كانوا يرفعون الرايات لا يربو عددهم على المائتين وأنهم سلكوا الطريق باتجاه

ديلار عبر سفح الجبل. حينئذ أصدر الماركيز الأمر بإطلاق النفير، وضرب دانة مدفعية واحدة، وكذلك دق ناقوس الخطر فى آن واحد. ثم امتطى فرسه وخرج من الحمراء، يصحبه ولداه والسيد ألونسو دى كارديناس وبعض من حملة الدروع، وبينما هو فى طريقه أرسل من يبلغ الرئيس بإصدار أوامره إلى من بالمدينة للحاق به؛ لأنه لا ينتوى التوقف فى أى مكان.

فى تلك الأثناء كان المسلمون قد واصلوا مسيرتهم، فمروا ببلدتى دودار وكينتار دونما توقف، ومن هناك هبطوا إلى ثينيس حيث شرعوا فى تناول غذائهم؛ فلمّا تبين لهم أن أحد المسيحيين قد اكتشف وجودهم بدأوا يسلكون طريق العودة إلى ديلار شيئًا فشيئًا عن طريق سفح جبل شلير -رغم أن واحدًا من المسلمين قد أخبرنا[٩] أنهم كانوا قد سمعوا دوى نيران المدفعية الصادرة من الحمراء قبيل عودتهم. أما الجندى الذى كان قد خرج مع أمبويرو آنفًا لاقتفاء آثارهم، فكان لا يزال متتبعًا خطاهم عن بعد. فى أعقاب انصراف ماركيز مونديخار من الحمراء، توجه سيادة الرئيس صوب نافذة غرفته، فأبصر بالميدان الجديد كلاً من كونت ميراندا والسيد غابرييل دى كوردوبا والسيد لويس دى كوردوبا وفرسانًا آخرين، وكانوا قد خرجوا فزعين[١٠] عند سماعهم قرع ناقوس الخطر، فأرسل إليهم من يطلب منهم اللحاق بماركيز مونديخار برفقة كل القوات التى تصاحبهم من المشاة أو الفرسان. كما أصدر أوامره إلى المأمور القضائى ليشرع فى التجول فى أرجاء المدينة ويقوم بتنصيب بعض الوجهاء على رؤوس الشوارع، على ألا يسمحوا لأحد بالصعود إلى البيّازين حتى ترد إليهم الأوامر بذلك. وعلى المأمور القضائى أن يبعث نفرًا من رجاله إلى هناك للتثبت من شأن الموريسكيين وحالهم، على أن يكونوا أهلاً للثقة حتى لا يتسببوا فى

(٩) توحى رواية مارمول بأنه اعتمد على مصادر موريسكية فى بعض الأحيان (المراجع)

(١٠) النص الإسبانى يستعمل كلمة amados، وهو خطأ من الناسخ دون شك، وربما أراد المؤلف alarmados أى خرجوا فزعين، أو armados أى خرجوا يحملون أسلحتهم. (المراجع).

إثارة جو من الاضطراب. فى أعقاب ذلك، بدأ الرئيس فى إرسال كل من يتوافد على الميدان لملاحقة المسلمين.

أما ماركيز موندیخار فقد سلك طريقًا أعلى غويتور وصولاً إلى ديلار، وإبان وصول رجالنا إلى الميدان الذى يطلق عليه غينى Gueni، استشعرت خيول المقدمة على مشارف المكان المسلمين الذين كانوا يهرولون للاحتماء بالجبل. حينئذ أطلق السيد ألونسو دى كاردیناس العنان لفرسه، وقد حذا حذوه نفر من الفرسان كانوا يظنون أنهم قادرون على اللحاق بهم قبل أن يفروا إلى شعاب الجبل، بيد أن إحدى العقبات الشديدة اعترضت طريقهم أثناء عبور وادى نهر ديلار، حيث قضوا وقتًا طويلاً فى الهبوط والصعود من جديد. وهو ما منح المسلمين الفرصة للجوء إلى رابية مرتفعة وشديدة الوعورة على الجانب الأيسر، فاستطاعوا التمركز بها ونصبوا راياتهم فى منتصفها، وأخذوا يصيحون ويهتفون ويطلقون نيران بنادقهم. وقد تمكن عدد من الجنود من الاقتراب منهم، وبادروا إلى الاشتباك معهم فى محاولة لتعطيلهم حتى مجيىء المشاة؛ إلا أن أحدهم تجاوز كثيرًا فى المناوشة حتى أن المسلمين قتلوا فرسه بطلقة من بنادقهم، وكادوا يردوه قتيلاً لولا أن تم إنقاذه. ثم شرعوا فى الانتقال من تلك الربوة إلى الأماكن الأكثر وعورة فى الجبل، التى لا يتسنى للخيول الصعود إليها وهم مستمرون فى إطلاق نيران بنادقهم عن بعد.

عندما أدرك كونت ميراندا وباقى الفرسان عدم جدوى ملاحقة المسلمين على صهوة الخيل، اتفقوا على الترجل والتهيؤ لمطاردتهم على الأقدام؛ حينئذ وصل ماركيز موندیخار وأوقف مسيرتهم لأن الشمس كانت قد غربت بالفعل، كما أن الأعداء كانوا متفوقين عليهم فى مسيرتهم، إضافةً إلى كون الجو قارس البرودة ويصحبه هطول الثلوج. بعد ذلك أصدر الماركيز أوامره بتجميع الجنود، وأرسل إلى السيد دييغو دى كيسادا Diego de Quesada الذى يحكم بلدة بيثا Peza المجاورة حتى يشرع فى ملاحقة أولئك الثوار الجبليين بقوات المشاة وعدد من الخيول، ثم قفل عائدًا إلى المدينة؛ وفى الطريق التقى القائد لورينثو دى أبيلا على رأس قوات مقاتلة من المدن السبع

الكائنة فى نطاق غرناطة، وكانت بصحبته أعدادٌ غفيرةٌ، فأمره أن يتوجه للانضمام إلى رجال السيد دييغو لتحقيق الهدف ذاته. وهكذا شرع السيدان فى ملاحقة الثوار برفقة عدد من الفرسان حتى أرخى الظلام سدوله وتعذرت عليهم رؤية العدو. لمّا كان الجبل مكسوًا بالثلوج، وقد أمست الأجواء قارسة البرودة، خشى القائدان على الجنود من الهلاك، فأوى الجمع تلك الليلة إلى كنيسة ديلار حيث قدم الموريسكيون لهم طعام العشاء. ظن السيدان أن المسلمين لابد لهم من التوقف فى مكانٍ ما لقضاء ليلتهم، فما أن بزغ الفجر حتى شرعا فى ملاحقتهم وتتبع آثار خطاهم على الثلوج. بيد أن المسلمين كانوا قد تابعوا السير طوال الليل دونما توقف عبر دروبٍ قد خبروها آنفًا، فهبطوا إلى وادى ليكرين وأخذوا يؤلبون الأماكن التى يمرّون بها، بعد أن أفهموا أهلها أن الثورة قد اشتعلت فى البيّازين بالفعل، وأن غرناطة والحمراء كليهما على وشك الوقوع فى أيدى المسلمين. لذلك عندما نزل رجالنا إلى الوادى كان أولئك قد سبقونا بكثير، فتوقف جنودنا عن ملاحقتهم، حيث تراءى لهم أن عددهم قليل وأن عدتهم وعتادهم غير كاف للتوغل داخل المدن. فأوقف الرجال مسيرتهم فى دوركال، وقضوا بها ثالث أيام عيد الميلاد فى انتظار وصول قوات إضافية. وسوف ننهى حديثنا عنهم عند هذا الحد، لكى نتكلم عن السيد إيرناندو دى بالور: من هو؟ وكيف نصّبه الثوار ملكًا عليهم؟، على أن نستأنف الكلام حول رجالنا عندما يضحى الوقت مواتيًا لذلك.

الفصل السابع

يتناول شخصية السيد إيرنانو دى كوردوبا إى دى بالور، وكيف تَوَّجَه الثوار ملكًا عليهم.

السيد إيرناندو دى كوردوبا إى دى بالور **Hernando de Córdoba y de Valor** رجل موريسكى، ذو مكانة رفيعة بين أفراد تلك الأمة لأن نسبه يرجع إلى الخليفة مروان؛ أما أسلافه فكان يُروَى أنهم من دمشق فى بلاد الشام، وأنهم كانوا ضمن المشاركين فى قتل الخليفة الحسين بن على - ابن عم محمد - وأنهم قد توجهوا هاربين إلى إفريقيا، ومنها لاحقًا إلى إسبانيا. وقد استوطنوا مملكة قرطبة من تلقاء أنفسهم، واحتلوها على مدى أزمنة طويلة كانوا يلقبون فيها بآل عبد الرحمن، نسبةً إلى أول حكامهم وكان يدعى عبد الرحمن، إلا إنه كان يلقب بابن أمية. كان إيرناندو شابًا متقلبًا ومهيئًا للانتقام، علاوةً على ذلك فقد كان سفيهًا. أما أبوه فكان يدعى السيد أنطونيو دى بالور إى دى كوردوبا **Antonio de Córdoba y de Valor**، وكان يعيش حياته منفيًا يعمل فى التجديف على متن السفن الشراعية لجرمٍ كان قد اتهم بارتكابه[١١] ورغم كونهم موسرين فإنهم كانوا مسرفين فى إنفاقهم، فعاشوا فى فاقة شديدة واضطراب، وخاصةً السيد إيرناندو الذى كان دائمًا مثقلاً بالديون، وكان آنذاك حبيسًا فى منزله، على خلفية إحداثه شقاقًا فى مجمع أديرة مدينة غرناطة، حيث كان أحد الوجهاء. فعندما وجد نفسه فى تلك الآونة يشكو العوز اتفق على بيع لقبه الرسمى

---

(١١) كان التجديف فى السفن بمثابة عقوبة لبعض الجرائم فى القرن السادس عشر. (المراجع).

والذهاب إلى إيطاليا أو فلانديس كما يفعل أى رجل بائس – حسب زعمه. فى نهاية الأمر قام ببيعه إلى موريسكى آخر من أهالى غرناطة يدعى ميغيل دى بالاثيوس Miguel de Placios، وهو ابن خيرونيمو دى بالاثيوس Gerónimo de Placios، وكان الضامن للسيد إيرناندو فى القضية التى حُبس بسببها. باع السيد إيرناندو لقبه الرسمى مقابل ألف وستمائة دوقية. وفى الليلة المحددة لدفع المبلغ خشى السيد ميغيل أنه لو هرب السيد إيرناندو من السجن أن تلقى الشرطة القبض عليه هو وتصادر أمواله، وتجبره على الدفع مرة أخرى. لذلك فقد قام بإبلاغ السيد سانتارينّ قاضى المدينة بالأمر حتى يأمر بمصادرة المال ثمن اللقب. وبالفعل عقب الانتهاء من عد النقود وصل أحد الحجاب وصادر المبلغ.

عندما ألفى السيد إيرناندو نفسه دون منصب أو أموال، عزم على الخروج من محبسه، وإيجاد مكان ودور له فى البشرات؛ فغادر غرناطة فى يوم لاحق، وكان الخميس الموافق للثالث والعشرين من شهر ديسمبر، بصحبة امرأة موريسكية واحدة كان يتخذها رفيقةً له وعبد أسود، حيث قضى ليلته تلك فى أحد بساتين الفاكهة. وفى يوم الجمعة توجه إلى وادى ليكرين، والتقى عند مدخل الوادى الكاهن القانونى لبلدة بيثنار Béznar، الذى كان يفر عائداً إلى غرناطة؛ فأخبره ذاك الأخير ألا يتقدم لأن المنطقة مشتعلة بالثورة وتعج بالثوار الجبليين، بيد أن ما قيل لم يثنه عن متابعة ارتحاله حتى وصل إلى بيثنار، وأقام فى منزل أحد أقاربه ويدعى البالورى el Válori، وكان من الرجال البارزين فى تلك الأنحاء، وأخذ يقص عليه ما آل إليه حاله. فى تلك الليلة اجتمع كل آل بالورى، وكانت عائلة كبيرة العدد؛ ولمّا كانت الأرض تموج بالثورة دون أن يكون هناك رأس لها، ارتأوا أنه لا محيص من تنصيب ملك يدين له الجميع بالسمع والطاعة. وقد نقلوا رأيهم لغيرهم من المسلمين الثائرين الذين وفدوا إليهم من أورخيبا، فقال الجميع إن هذا الأمر محل إجماع، وإنه لا يوجد من يمكن أن يكون أفضل أو أحق من السيد إيرناندو دى بالور ذاته، لكونه ينحدر من سلالة الملوك، كما أن ما لقيه من معاناة لا تقل عما قاسوه؛ فطلبوا منه أن يقبل المنصب، وقام هو بشكرهم على

ذلك. وهكذا قاموا باختياره وتتويجه ملكًا عليهم. أما هو فكان فى غفلة شديدة عما قام بفعله - وذلك وفقًا لما قاله لاحقًا - رغمًا عن أنه لم يكن جاهلاً بحقيقة الثورة التى كانت قائمة فى تلك الأرجاء.

هناك من يلقول إن أهالى البيّازين كانوا قد قلّدوه ذاك المنصب قبيل مغادرته غرناطة، حتى إنهم نجحوا فى إقناعنا بذلك فى بداية الأمر، ولكن خلال محاولاتنا اللاحقة للتثبت من حقيقة الأمر، أكد لنا الرجال أنه لم يكن هو من وقع عليه الاختيار، بل وقع الإختيار على فرج؛ وإن مدبرى الثورة كانوا يرغبوا فى كتمان السر وإخفائه عن الفرسان الموريسكيين والأشخاص البارزة الذين يعملون فى خدمة جلالة الملك فحسب، بل أنهم لم يجرؤوا على كشف سرهم أمام ذاك الشخص بعينه لكونه أحد رعايا ماركيز مونديخار، كما أنه أحد وجهاء غرناطة، إضافةً إلى كونه شابًّا متقلبًا وليس جديرًا بالثقة.

فى صبيحة يوم الإثنين، وفى وقت القداس، وقف السيد إيرناندو دى بالور قبالة باب كنيسة البلدة يرافقه ذووه، وأطلّ من فوق المنازل الكائنة فى المنطقة الجبلية، فأبصر فرج بن فرج ومعه لواءان وبصحبته الثوار الجبليين الذين كانوا قد دخلوا معه إلى البيّازين، وهم يعزفون على آلاتهم ويصدرون أصواتًا صاخبةً فرحةً كمن أحرز نصرًا مبينًا. عندما تنامى إلى علم فرج أن السيد إيرناندو دى بالور موجود بالبلدة، وأن أهلها قد نصبّوه ملكًا عليهم، ثار ثورةً عارمةً، وتساءل كيف يمكن لأهالى البيّازين أن يختاروه هو ليكون رأسًا للأمر بينما يختار رجال بيثنار شخصًا آخر؟ وكادوا يلجأون إلى السلاح لحسم ذلك الأمر. أما فرج فنادى بكونه من رسم طريق الحرية، ولابد له من أن يصير ملك المسلمين وحاكمهم، كما أنه ينحدر أيضًا من سلالة بنى سراج النبيلة[١٢]؛ فقال آل بالورى أنه أينما حل السيد إيرناندو دى بالور لا يجوز أن

(١٢) فى كتاب "الحروب الأهلية فى غرناطة" يركز بيريث دى إيتا على الصراع بين عائلتى بنى الأحمر الملكية وبنى سراج، ويشير إلى أن ذلك الصراع سيكون له أثر لاحقًا، أى فى أثناء ثورة الموريسكيين. وها نحن نرى أن مارمول يسير على هذا النهج. (المراجع) .

يصبح هناك ملكٌ سواه. فى النهاية تدخّل بعض الأفراد للتوسط بينهم، و اتفقوا على ما يلي: يصبح السيد إيرناند دى بالور ملكًا، على أن يصير فرج كبير وزرائه، وهو أرفع منصب بين المسلمين المقربين من الذات الملكية. وقد أسفر ذلك عن إنهاء الفرقة، فعاود كل المجتمعين هناك تنصيب السيد إيرناندو دى بالور ملكًا من جديد، ولقبوه بمولاى محمد بن أمية، وذلك أسفل شجرة زيتون كانت بالساحة.

أما الملك الجديد، فقد شرع فى اليوم ذاته فى توجيه أوامره إلى فرج لكى يخرج هو ورجاله ليجمع كل ما يستطيع الحصول عليه من البشرات، وذلك بغرض إقصائه من أمامه؛ حيث يتولى فرج تجميع كل الفضة والذهب والحلى التى كان المسلمون قد استولوا عليها ولا يزالون يسرقونها من الكنائس والأفراد، من أجل شراء أسلحة من بلاد المغرب. فأذاع ذلك الخائن أن غرناطة وسائر الأراضى قد أضحت فى قبضة المسلمين، آخذًا فى إشعال الثورة فى شتى البلدان. ولم يكتف بتنفيذ ما أُمِرَ به فحسب، بل اصطحب معه ثلاثمائة قاطع طريق من الثوار الجبليين إلى غرناطة ، وكانوا من أشد رجال البيّازين والبلدان المتاخمة لها انحرافًا وضلالًا، حيث أعمل القتل فى سائر القساوسة والرهبان الخدام ممن تم أسرهم، حتى أنه لم يترك على قيد الحياة فردًا يحمل اسمًا مسيحيًا ويتجاوز عمره عشر سنوات. وقد استخدم فى عمليات القتل صنوفًا عديدة من ألوان التعذيب والقسوة، وهو ما سنعالجه فى الفصول التى تتناول ثورة قرى البشرات.

لا يسع المرء إلا أن يدرك جيدًا أن السيد إيرناندو كان على دراية بأهداف تلك الثورة. وهو ما يتضح من تعجله فى بيع لقبه الرسمى، علاوةً على ما أخبرنا به عضو محكمة تفتيش غرناطة الأب أندريس دى ألابا Andrés de Alava، وكانت تربطه علاقة صداقة وثيقة بالسيد إيرناندو: حيث كان الأب فى طريقه لزيارة البشرات امتثالاً لأمرٍ صادرٍ من جلالة الملك شخصيًا، الذى قرر أن يقوم الأب دى ألابا بزيارة تلك الأراضى، فى محاولةٍ لاستنباط إذا ما كان الموريسكيون يبرمون أمرًا ما، وذلك فى إطار عمله فى محكمة التفتيش. فتوجه إليه السيد إيرناندو قبيل أيام قلائل من اشتعال الثورة فى

المملكة، ونصحه بصورة ودية ألا يشرع فى رحلته إلا بعد انقضاء عيد الميلاد المجيد، لأن المواطنين سيمسون أكثر هدوءاً، كما أنه سوف يرافقه بنفسه. وقد ألح فى مطلبه حول تلك المسألة إلى الحد الذى يمكننا من الزعم بأنه كان ملمًا بالأمر، وربما أراد تفادى ذهاب عضو محكمة التفتيش إلى هناك ظنًا منه أنه إذا ما حوصر أثناء اندلاع الثورة فى البشرات، فإننا سنبذل قصارى جهدنا لإنقاذه، ولعل بغيته كانت إقصاء عضو محكمة التفتيش عن الأذى الذى علم أنه سوف يلاقيه، وذلك بدافع الصداقة التى كانت تربطهما. فليكن ما كان، أما هذه فهى أوثق الروايات التى استطعنا معرفتها حول ذلك الشأن.

الفصل الثامن

ويتناول الثورة العامة التى أشعلها الموريسكيون فى البشرات.

المآسى تدفع المرء إلى التدبر، ليتعرف أكثر على ما تجدر كتابته حول الفظائع والشرور التى اقترفها الموريسكيون والثوار الجبليون فى البشرات وسائر أرجاء مملكة غرناطة فى أثناء تلك الثورة. كان أول ما قاموا به هو المناداة باسم محمد وديانته، معلنين كونهم مسلمين خارجين على العقيدة الكاثوليكية المقدسة، التى اعتنقوها هم وأباؤهم وأجدادهم على مدى سنوات طويلة. كان من المذهل رؤية مقدار تمرس الجميع - صغاراً وكباراً - فى أمور تلك الديانة اللعينة: فقد شرعوا فى إقامة الصلوات لمحمد، وبدأت المواكب الدينية وتعالت التضرعات، كما كشفت النساء المتزوجات عن نحورهن(١٣) أما الفتيات فكشفن رؤوسهن، وأسدلن شعورهن على أكتافهن وأخذن فى الرقص علناً فى الطرقات ومعانقة الرجال، وكان الجنود يلوحون بأغطية الرأس محركين الهواء ليبعثن نسمة رقيقة باتجاههن، معلنين بأصوات عالية أن ها قد حان الوقت لقيام دولة البراءة، وأن التمتع بالحرية التى تمنحهم إياها شريعتهم يتيح لهم الذهاب إلى الجنة غير خاطئين، ناعتين إياها بشريعة اللين والاعتدال، التى تبيح شتى صنوف المسرات والملذات.

---

(١٣) يحتار المرء حين يطالع كتابات المسيحيين عن الموريسكيات، فتارة يطالبونهن بكشف الوجه، وتارة يتهمونهن بالتبرج. (المراجع).

في الوقت نفسه قام المسلمون، بوصفهم أعداء لكل الديانات والمشاعر الخيرة، لا يحترمون كل ما هو مقدس أو إنساني، تملأهم مشاعر الغضب القاسية والحنق الشيطاني، قاموا بسرقة وحرق وتدمير الكنائس: فأخذوا يهشّمون التماثيل الموقرة، ويحطمون المذابح، ويُعمِلُون أيديهم العنيفة في كهنة عيسى المسيح، الذين كانوا يعلّمونهم شؤون العبادة، ويناولوهم القرابين المقدسة، فحملوهم في الوديان والميادين حفاةً عراةً لإذلالهم وتحقيرهم على رؤوس الأشهاد. فرُمِي بعضهم بالسهام، وحُرِق آخرون أحياءً، ومات الكثيرون بعدما كابدوا شتى صنوف التعذيب. وقد أذاقوا الكهنة الخُدّام المسيحيين المقيمين بتلك المواقع الممارسات الوحشية ذاتها دون أن يحترم الجار جاره أو الرفيق رفيقه أو الصديق صديقه. على الرغم من أنه كان هناك من أراد احترام تلك الأواصر، فإنهم لم يكن بإمكانهم القيام بذلك؛ لأن الحنق الذي كان يعتمل في صدور الأشرار ساقهم إلى قتل كل من وقعت أيديهم عليه، كما أنهم أراقوا دماء كل من حاول منعهم. لقد نهبوا منازلهم، ومن تحصن منهم بالبروج والأماكن المنيعة تمت محاصرته وأُحيط بألسنة النيران، ثم قاموا بحرق الكثيرين منهم، أما كل من استسلموا فقد لقوا حتفهم أيضًا؛ لأن الثوار لم يكونوا يرغبوا في أن يبقى على وجه الأرض أي مسيحي يتجاوز عمره عشر سنوات. لقد بدأ هذا الطاعون من لانخارون، وانتقل إلى مدينة بوكيّرة في أورخيبا مساء الخميس، ومنها تسرب دخان الفتنة والشرور بايقاع متسارع، حتى غطى سطح تلك الأرض بأسرها على حين غرة، وهو ما سوف نرويه وفقًا لترتيب حدوثه. ونحن بالتزامن مع سرد تاريخ تلك الثورة لابد لنا من أن نسوق وصفًا مختصرًا لبقاع البشرات وأنحائها، حتى يتحقق للقارىء أقصى قدر من الاستمتاع في أثناء القراءة، ونحن في هذا الموضع سنبدأ بتعريف كلمة "طاعة taa " وبيان معنى تلك اللفظة البربرية.

كلمة "طاعة" نعت استخدمه الأفارقة قديمًا في أسماء سائر المدن النبيلة، كما أسلفنا الذكر في الفصل الثالث من الكتاب الأول(*). و"طاعة" تعني رأس تجمع

(*) راجع الكتاب الأول، الفصل الثالث، صفحة ٢٦ (المترجمة).

أو عصبة من الأهالى الأفارقة الأصليين، بيد أن هناك آخرين يترجمونها كمرادف للشعوب الخاضعة والذليلة . ويروى بعض قدامى الموريسكيين أنهم كانوا قد سمعوا عن أسلافهم أنه نظراً لوعورة تضاريس جبال البشرات، وأنها يقطنها أناس بربرية شديدة الإباء ولا يمكن ترويضها، بالكاد تمكن الملوك المسلمون من إرشادهم إلى جادة الصواب؛ لأنهم كانوا آمنين فى أراضيهم الوعرة، كما هو الحال فى المناطق الجبلية فى إفريقيا التى يسكنها البربر. لذا فقد ارتأوا معالجة الأمر بتقسيم تلك الأراضى جميعًا إلى ما يشبه القرى، وتوزيعها بين الأهالى الأصليين أنفسهم، وبعد أن قام هؤلاء الأهالى بتشييد القلاع حول تجمعاتهم، ذهبوا لينصِّبوا عليهم عُمَدًا آخرين من غرناطة وغيرها من الأماكن، وأمدوهم برجال حرب حتى يتسنى لهم إخضاعهم. ومثلما كان كل جماعة منهم لها حاكم يأتمر بأمره ألف أو ألفان من الرعايا، كان هناك فقيه أكبر يتولى الشئون الروحية، وقد أطلقوا على تلك الدائرة اسم "طاعة".

أخيراً فإن الأمر شأنه كشأن كلمة نوبّة nueiba فى إفريقيا ، وتعنى جماعة البربر المولين لخزانة الملك؛ وكانت أراضى أورخيبا واحدةً منها، فهى كائنة على مدخل البشرات رغمًا عن كونها تقع خارج نطاقها، ومنها سنبدأ حديثنا لأن شرور الموريسكيين انطلقت من هناك، وسوف نتابع مسيرتنا على النحو ذاته الذى سلكته الثورة فى البقاع الأخرى. لاحقًا، كما جرى الحال فى لانخارون فى وادى ليكرين، فطن الجميع إلى الهياج الذى يشهده الموريسكيون، فلجأ كل من الأب اسبينوسا، وحامل الإجازة(١٤) خوان باوتيستا - وهو الكاهن القانونى لتلك الكنيسة - وسادن كنيسته ميغيل دى مورا ليس، ونحو ستة عشر مسيحيًا إلى الاحتماء داخل الكنيسة إلى أن حضر ابن فرج وأمر باضرام النيران فيها، حينئذ تدلّى الكاهن القانونى خوان باوتيستا منها مستخدمًا حبلاً من الحلفاء، وأسلم نفسه إلى الطاغية الذى أمر بقتله

(١٤) لقب حامل الليسانس أو الإجازة لا يزال يستخدم فى أمريكا اللاتينية، أما فى إسبانيا فلم يعد يستخدم منذ قرون. (المراجع) .

طعنًا بالسكاكين، ثم واصل إشعال النار فى الكنيسة، حتى حرقها وهدمها على من كانوا بداخلها. ثم أمر رجاله بإخراج الرجال من تحت الأنقاض، وحملهم إلى المعسكر، وهناك لم يسأموا من طعن الأجساد الميتة، فيا لشدة الحنق الذى كان يعتمل فى صدورهم تجاه كلمة مسيحى! فيما بعد واصلوا تقدمهم صوب أورخيبا، حاملين معهم غلمان تلك البلدة.

الفصل التاسع

يتناول وصف طاعة أورخيبا، وكيف أشعل الموريسكيون الثورة فى أرجائها، وحاصروا المسيحيين فى برج ألبسيط.

طاعة أورخيبا يحدها من الغرب كل من لانخارون الكائنة بوادى ليكرين، وسالوبرينيا وموتريل، ومن الشمال يتاخمها جبل شلير، ومن الشرق يجاورها كل من طاعة بوكيّرة وفيريرّة، وكذلك طاعة الساحل التى تقع ناحية البحر، وهى جميعًا تقع داخل البشرات. أما البحر المتوسط فيحدها من جهة الجنوب، حيث توجد هناك على لسان الماء قلعةٌ موقعها حصين يسميها المسلمون سايينة Sayena، بينما يلقبها المسيحيون بقلعة فيرو Ferro. فى منتصف تلك البلدة يجرى نهرٌ ينحدر من جبل شلير متجهًا صوب البحر بعدما تعرّج مسارهُ وانعطف حتى يلتقى بنهر موتريل Motril. وهى أرض خصبة، تملؤها البقاع النضرة والغابات، ولمّا كان جوها معتدلاً فقد زُرِعَت بها أشجار البرتقال والليمون والأترنج، وكل أصناف الفاكهة التى تتطلب مناخًا معتدلاً، وبها خضروات عالية الجودة. كما أن إنتاج الحرير بها غزير ومتميز، وهى تحوى مراعى للماشية ذات جمال خلاب، وهناك وفرة من أراضى الحرث التى يجنى منها قاطنوها القمح والشعير والذرة ، ومعظم تلك الأراضى ترويها مياه النهر والعيون التى تنبع من تلك الجبال. وتضم تلك الطاعة خمسة عشر موضعًا يطلق عليها الموريسكيون تسمية القرى وتدعى: باغو Pago، بنى ثالتى Benizalte، سورتيس Sortes، كانيار، الفحص el Fex، باياركار Bayárcar، سوبورتوخار، كاراتانوث Caratanuz، بنى زيد Benizeyed، القصور Lexur، بارخار Barxar، غوارّوس Guarros، لوليار Luliar،

فاراخينيت Faragenit، وألباثيتى دى أورخيبا؛ وهى الموضع الرئيس الذى يضم برجًا كانت تجهيزاته وإمداداته آنذاك أفضل من أونة سابقة؛ لأن مسلمى بلاد المغرب حينما تولوا إدارته منذ عدة سنوات(١٥) كانوا قد اتخذوا تدابير أفضل لتأمينه. غالبية تلك المواضع تقع عند سفح الجبال، والجزء المتبقى يوجد فى غوطة مستوية بين الجبال، حيث يقع موضع ألباثيتى دى أورخيبا.

فى ذات اليوم الذى قتل فيه البارتال والسينيث أولئك المسيحيين الذين ذكرناهم آنفًا فى سياق حديثنا عن أوخيخار(*)، فر الرجلان اللذان هربا من بين أيديهم باتجاه ألباثيتى دى أورخيبا، حيث حذرا غاسبار دى سارابيا الذى كان يشغل منصب العمدة والحاكم لتلك الطاعة، فقام بدوره فى صبيحة يوم الجمعة بارسال ثمانية جنود مسيحيين مسلحين بالبنادق إلى الحاكم العام كاماتشو، وبعث معهم نفرًا من الموريسكيين العزل فى محاولة للتثبت من حقيقة الأمر. فى أثناء ذهابهم جاء إليه موريسكى يعمل حاكمًا لبنى ثالتى يدعى ألبارو أبو زيد Alvaro Abuzayet، وأخبره أن عليه أن يأمر بجمع كل المسيحيين - صغيرهم وكبيرهم - فى البرج على وجه السرعة. وقد أسفر ذاك التحذير عن إيواء كل من ألونسو دى ألغار Alonso de Algar قسيس ألبسيط، وباقى الكهنة والكهنة القانونيين والأهالى المسيحيين الذين كانوا يقطنون قرى تلك الطاعة دون أن ينالهم أذى، إلا من أهالى سوبورتوخار وبعض السفلة. وقد واجه الجنود الثمانية خطر الهلاك، لأنه أثناء وجودهم فى قرية بارخار لدفن المسيحيين الذين كانوا قد لقوا حتفهم الليلة الفائتة، عثر عليهم الثوار الجبليين، وأجبروهم على الفرار، وأخذوا يلاحقونهم حتى أضحوا على مقربة من البرج، ناعتين إياهم بالكلاب، وقائلين إنه قد حان وقتهم وآن أوانهم، واستولوا على بعض أسلحتهم؛ أما الموريسكيون المسالمون المرافقون لهم فكانت ملاحقتهم لهم أشد.

---

(١٥) نفهم أن مارمول كان يقصد "قرونًا" لا سنوات. (المراجع).

(*) راجع الكتاب الرابع، الفصل الثالث، صفحة ١٢-١٣ (المترجمة).

عندما أدرك غاسبار دى سارابيا ما يحدث بادر بجمع الموريسكيات والصبية الموجودين فى ذلك الموقع على عجل، وأودعهم البرج، حيث فطن إلى أنه إذا ما دعت الحاجة سيكون قد ضمن تعاطف الآباء أو الأزواج أو الإخوة، كما إنهم سيمدونهم سراً بالمياه والمؤونة حتى تصلهم النجدة. فى نهاية الأمر اعتصم غاسبار بالبرج بصحبة مائة وثمانين شخصاً، من بينهم نفر من الرجال البواسل، كان أحدهم يدعى بدرو دى بيلتشيس Pedro de Vilches، وكان يلقب أيضًا بذى القدم الخشبية، حيث كانت واحدة من رجليه قد قطعت وتم بترها من منبتها، فكان يستعيض عنها بعصا خشبية. وكان رجلاً شجاعًا وقد اشتهر بلباقته فى تلك الأراضى. كما كان هناك رجل آخر يدعى لياندرو Leandro، وكان صائداً ماهراً قد رجع لتوه فى تلك الليلة وفى جعبته حملان من الأرانب وطيور السمان، بالإضافة إلى قربة من الجلد مليئة بالزيت، وكأن الرب قد بعثه حقًا من أجل سلامة أولئك الأشخاص، فهو فضلاً عن كونه رامياً ماهراً مزوداً ببندقيته وكمية من الذخيرة تمكنه من القتال، فإن الصيد الذى أتى به سد حاجتهم وجوعهم لعدة أيام، وكذلك فقد كان للزيت أهمية قصوى فى حرق النقالات الخشبية التى أسندها الأعداء إلى حائط البرج، ظنًا منهم أنها ستمكنهم من اختراقه من أسفل.

حينما ثارت البلدة لم يكن المسيحيون قد تجمعوا بشكل منتظم، ففى أحد الأحياء القريبة من موضع الثورة قام المسلمون برفع إحدى الرايات وجمعوا الجنود المسلمين تحتها وشرعوا فى إحداث جلبة وصخب شديد؛ أعقب ذلك بوقت قصير رفع ستة أعلام أخرى، معظمها ملون ومزدان بأقمار فضية فى المنتصف، أما بقيتها فكانت جميعًا من الحرير ذى الألوان المختلفة؛ ثم مروا فى هيئتهم تلك على مرأى من البرج حتى وقفوا عند أشجار الزيتون، يرافقهم جمع غفير من الرجال المسلحين بالبنادق والرماح. من هناك أرسلوا من يسطو على المواقع السهلية، فخرج الرجال والنساء يحملون أمتعة مليئة بالثياب والمؤن، وصعدوا إلى جبل بوكيرة يسوقون الأغنام أمامهم، بينما حاصر الرجال المسلحون البرج الذى كان أهلنا المسيحيون بداخله.

فى أعقاب ذلك ثارت كل من سوبورتوخار وكانيار وسائر البقاع الجبلية. وكان أول ما قام به أولئك المارقون هو هدم الكنائس، والاستيلاء على ما كان بها وما حوته منازل المسيحيين. فى سوبورتوخار تحايلوا لإلقاء القبض على قاضى أوخيدا Ojeda الكنسى، وكان الكاهن القانونى لتلك البلدة؛ بعد أن اعتقلوه هو وشاب آخر خادم له يدعى مارتين Martín، عرض عليه رجل موريسكى من أصدقائه يدعى بارتولومى بن مجيد Bartolomé Aben Moguid، وكان ابن حاكم المكان، أن يحرره من محبسه، فأخرجه منه وخبأه فى بيت موريسكى آخر اسمه ميغيل دى خيريث Miguel de Jerez. وقد مكث هناك طيلة أربعة أيام حتى مجيىء فرج بن فرج، الذى كان يجوب سائر البقاع تنفيذًا لأوامر ابن أمية، كما ذكرنا من قبل؛ وكان يذيع فى شتى المواضع التى يطأها أن أى مسلم يأوى فردًا مسيحيًا مهما كان عمره تكون عقوبته الإعدام، وأن عليه أن يبادر بالإفصاح عن ذلك. وهكذا أسفر خوف ابن مجيد من فرج عن إعلانه عن وجود مسيحيين لديه؛ فبعث ابن فرج رجلين مسلمين لإخراجهما، حيث أسلماهما إلى عدو للكاهن القانونى يدعى زكريا دى أغيلار، الذى حملهما بدوره إلى الساحة. وكان الأهالى يهابونهما فأخذوا يكيلون لهما الصفعات واللكمات، ثم أخذوهما إلى تبة على مسافة نصف فرسخ من البلدة، حتى يقتلوهما ويتركوا جثتيهما فى العراء لأن ابن فرج كان قد أمر بعدم حفر قبر لهما. وقد حملوا معهم امرأة مسيحية اسمها بياتريث دى لابينيا، وكان معها ابناؤها الخمسة الصغار؛ فلما أوشكوا على قتلهم تصادف مرور ابن أمية من ذاك الطريق، وكان قادمًا من بيثنار، فرق قلبه لحال المرأة والأطفال، وأمر بقتل الكاهن القانونى فحسب، وإرجاع الباقين إلى البلدة، والإبقاء عليهم هناك إلى أن يرسل فى طلبهم. لاحقًا نعت الرجال ذاك الكاهن بعدو الرب، وهو الذى ما برح يتضرع إلى الرب باسمه الأقدس، ثم وجه له أحدهم ضربة قوية بقضيب القوس فى رأسه، فغاب عن الوعى وخر على الأرض، فشرع الأخرون بعد ذلك فى طعنه بالرماح والسيوف حتى أجهزوا عليه. كما جرحوا خادمه مارتين فى غمار غضبهم العارم، حيث ضربه واحد منهم بسكين فى رأسه وهو يقول له: "خذ أيها

الكلب، فأنت ابن حاكم أورخيبا". انظروا مدى العداء الذى كانوا يكنونه تجاه القساوسة وكلاء الرب، حتى أنهم لم يرحموا صغارهم. أما المرأة وأطفالها فحملوهم إلى سويورتوخار، ثم إلى قلعة خوبيليس، التى حُرِروا فيها، هم وعدد كبير من المسيحيات اللاتى كان ابن أمية قد جمعهن فيها، بعدما تمكن ماركيز مونديخار من الظفر بها.

الفصل العاشر

يتناول كيفية نشوب الثورة فى أرجاء بوكيرة وفيريرة، ووصف هاتين البلدتين.

تقع بلدتا بوكيّرة وفيريّرة فى مدخل البشرات، وكلاهما تحدها طاعة أورخيبا من الغرب، وخوبيليس من الشرق، والساحل من جهة الجنوب، وجبل شلير من ناحية الشمال. تضم بلدة بوكيّرة أربعة مواضع هى: كابيليّرة Capeleira، والواسطة Alguaz-ta، وبارمبنيرة Parmpaneira، وبوبيون Bubión؛ أما فيريّرة فتحوى أحد عشر موضعًا وهى: بيترس Pitres، وكابيليّرة دى فيريّرة Capeleira de Ferreira، وأيلاكار Aylácar، وفونداليس Fondales، وفيريّرولة Ferreirola، وميثينا دى فونداليس Mecina de Fondales، وبورتوغوس Pórtugos، ولواخار Luaxar، وبوسكيستار Busquistar، وبَيَاركال Bayárcal، وحارة البيار Harat el Bayar. وجميعها أراض خصبة، عامرة بالعديد من الغِيلات، وبها كمية من أشجار التوت الأسود، كما تكثر فيها أشجار التفاح، والكمثرى، والكامويسا(*) Camuesa، صيفًا وشتاءً، حيث يقوم الأهالى بحمل ثمارها إلى غرناطة وغيرها من الأماكن لبيعها على مدار العام، وبها وفرة من الزبيب وأبى فروة. كما أن كل ما يُحصد هناك من قمح، وحنطة، وشعير، وذرة يُروى بمياه الرى، وهو أفضل وأطيب ما تقدمه مملكة غرناطة.

(*) اسم نوع من التفاح رائحته نفاذة وطعمه لذيذ. (المترجمة).

يوجد جبل بين هاتين الطاعتين، يُزرع عنده كرمات عنب وبساتين ذات جمال أخاذ، وينبع منه عيون ماء بارد وصحى تُروى بها تلك الأراضى، وكل ما يُحصد به من فاكهة وبقول وخضروات ذات جودة عالية. وقد بلغت خصوبة تلك الأراضى مضرب الأمثال. أما أشجار القسطل فهى كبيرة للغاية، حتى أن إحدى النسوة فى بوبيون - من فرط ضخامة الثمرة - أقامت نولاً بين أغصانها لنسج الأقمشة! كما أنها اتخذت من التجويف الموجود بساقها منزلاً لها ولأولادها؛ وحينما حضر رئيس رهبانيات قشتالة العسكرية ومرافقوه إلى البشرات، وحضر عند ذاك الموضع، شاهدنا ستة سيّافين داخل تجويف تلك الشجرة مع خيولهم، وإبان إنصرافهم أضرم بعض الجنود النيران فيها وقاموا بإحراقها.

فى فصل الصيف تحتوى تلك الجبال على مراعى للأغنام فائقة الجمال؛ وفى فصل الشتاء، فإنه نظرًا للبرودة الشديدة لتلك الأراضى، تُحمل الأغنام إلى دالياّس، أو باتجاه موتريل وشلوبانية؛ لأن أجوائها أكثر دفئًا وإعتدالاً بسبب تأثير نسيم البحر. هاتان الطاعتان تشكلان شبه جزيرة تقع بين نهرين ينسالان من جبل شلير. أولهما وأكثرهما توجهًا نحو الغرب ينبع أعلى بلدة بوكيّرة ذاتها، حيث يسيل بين جبال شديدة الوعورة والارتفاع ليحيطها من تلك الناحية، ثم ينحدر لملاقاة نهر موتريل قبل أن يصل إلى جسر تيخافى Tejafi، حيث يقع ميناء خوبيلين، الذى يعد بداية أورخيبا من جهة البشرات، حيث نهر كاديار الذى يمر فى هذا الطريق أكثر من ستين مرة، عبر ممرات صعبة وموانىء صخرية وعرة للغاية، وهذا كله فى مساحة أربعة فراسخ. أما النهر الآخر فينبع أيضًا من جبل شلير، ويقع شرق النهر الأول وإلى الغرب من بلدة تريبيليث Trevélez، حيث ينهمر على النحو الحاد والوعر ذاته ليحيط بالطاعتين من جهتى الشرق والجنوب. ثم يتفرع إلى مجريين أسفل فيريّرولة، ثم يجتمع كلاهما مع النهر الذى ينحدر من القصر Alcázar، لتصب جميعًا فى نهر موتريل عند حلق التنين، الذى يطلق عليه الموريسكيون القصوبين Alcazaubin. تتجمع فى ذاك المكان مياه غزيرة فى فصل الصيف، وذلك من جراء الثلوج التى تذوب أعلى الجبال، حتى يبدو هدير المياه

فى النهر كبحر خضم. ويروى الموريسكيون عن أسلافهم أنهم كانوا يقولون إن تلك الأراضى لم تُحتل قط بقوة السلاح؛ لذا فقد أضحى عندهم ثقة كبيرة فى موقعها ومناعتها، فحسبوا أنه ما من جيش يقدم على دخولها، مع وجود من يقومون على حماية الممرات شديدة الوعورة، التى يكفى فيها أشخاص قليلون لكى تكون قوية حصينة. من أجل ذلك اختاروا ذاك الموضع لإيواء الفوج الأول من نسائهم وأطفالهم وأغنامهم.

انطلقت شرارة الثورة فى أرجاء طاعة بوكيّرة فى صباح يوم الجمعة الموافق الرابع والعشرين من شهر ديسمبر. هرع المسيحيون الموجودون فى تلك الأنحاء للاحتماء ببرج كنيسة بوربورون Burburon - وكانت على ما يبدو منيعة – على الرغم من أنها لم تكن قد اكتملت بعد؛ فلمّا رأى المارقون الخونة – وهم يستحقون أن ينعتوا على هذا النحو من الآن فصاعداً – أنهم يودون حماية أنفسهم، بادروا إلى سلب منازل المسيحيين، ثم أحاطوا بالكنيسة، وفتحوا باباً كان مطموراً فى البرج، فاقتحموه عنوةً، وأخذوا يحطمون ويسرقون كل الأشياء المقدسة؛ وبعدها جمعوا العديد من القضبان المضفورة مع الأغصان والكتان، وغمروها فى الزيت لإضرام النيران فى باب البرج. عندما شاهد المسيحيون ما يدور، وألفوا أنفسهم دونما دفاعات أو ماء أو مؤونة، ارتأوا الاستسلام قبل أن يلقوا مصرعهم حرقًا بين ألسنة النيران الملتهبة، وهو أقل الأضرار، بيد أن الأعداء أخضعوهم لاحقًا لممارسات أبشع: فجردوهم من ثيابهم وشدوا وثاقهم، وانهالوا عليهم صفعًا وضربًا بالعصى. وبعد أن ظلوا أسارى طيلة تسعة عشر يومًا، أخرجوهم إلى إحدى أراضى الرى القريبة من المكان لينفذوا فيهم حكم الإعدام بمقتضى أوامر ابن أمية، وذلك قبل يومٍ واحدٍ من وصول ماركيز مونديخار إلى أورخيبا. وهناك قطّعوا الأب كيروس Quirós قسيس كونشا Concha إربًا إربًا بالسيوف، ولاقى المصير ذاته كل من الكاهن القانونى بيرنابى دى مونتانوس Bernabé de Montanos، وقيّم كنيسته غودوى Godoy، وعشرين من الرهبان الخدّام؛ ثم تركوا الجثث لتأكلها الطيور الجارحة والكلاب، ولم يستبقوا فى الأسر سوى النساء

والأطفال الذين تقل أعمارهم عن عشر سنوات. أما حامل الإجازة بالتاسار برابو Baltasar Bravo، القاضى الكنسى والكاهن القانونى لذاك الموضع، فلم يجهزوا عليه؛ لأنهم كانوا يعلمون أنه يمتلك أموالاً كثيرة؛ فشرعوا فى تعذيبه حتى حصلوا منه على ثلاثة آلاف دوقية من الذهب، وكمية كبيرة من الفضة المشغولة، ثم أبقوا على حياته آملين فى الحصول على المزيد.

بدأ أهالى طاعة فيريّرة ثورتهم فى اليوم والساعة ذاتها الذى قام فيه أهالى بوكيّرة بثورتهم، خاصةً قاطنى بورتوغوس والمواضع الأخرى المجاورة لها. عندما استشعر المسيحيون اندلاع الثورة، بادروا بالاحتماء ببرج كنيسة ذاك الموضع مع نسائهم وبنيهم. نهب المسلمون المنازل، ودلفوا إلى الكنيسة عبر باب صغير، فسرقوها وحطموها، وأضرموا النيران فى البرج، وقاموا بتهديد الموجودين بالداخل بميتة بشعة إذا لم يستسلموا. كان هناك نفر من الجسورين أظهروا تفضيلهم للموت على رؤية أنفسهم فى قبضة أولئك الخونة؛ بينما اعتبر آخرون أنه لا يمكن أن يواجهوا مصيراً أبشع من النيران، بعد أن شاهدوا أنفسهم يُحرَقون أحياءً، وسمعوا توسلات زوجاتهم وأبنائهم تستجدى الرأفة، حيث راودتهم الآمال أن المسلمين لن يقتلوهم. وقد استطاعوا فى النهاية إقناع الآخرين لكى يحذوا حذوهم بعد التأكيد على أنهم لن يصيبهم ضير سوى الوقوع فى الأسر.

لمّا كانوا قد تأخروا فى حزم أمرهم، كانت النيران تتأجج أكثر بمرور الساعات حتى اشتعل سلم البرج، فأضحوا مجبرين على التدلى بواسطة الحبال من الجزء الخارجى الذى لم تصل إليه ألسنة اللهب بعد؛ فكان الاستقبال الذى أعده لهم أعداء الرب أولئك هو تجريدهم من ملابسهم فور وضعهم أرجلهم على الأرض، وانهالوا عليهم باللطم والضرب بالعصى، ثم عقدوا أيديهم خلف ظهورهم، وحملوهم حتى وضعوا أقدامهم فى حلقة. أما الكاهن القانونى خوان دييث غاييغو Juan Diez Gallego، المقيم فى بيتريس والذى تصادف وجوده هناك فى ذلك اليوم، فقد قتلوه بالنُشّاب وهو يطل من إحدى نوافذ البرج. ثم أشعلوا النيران فى الكاهنين القانونين

خوان بيلا Juan Vela، وبالتاسار دى توريس Baltasar de Torres، ووالد ذاك الأخير، وكثيرين غيرهم من الرهبان، وكذلك النساء والأطفال الذين تمكنوا من النزول بالحبال. عندما خبت جذوة النيران وهدأت ألسنتها، دلف المسلمون إلى الداخل، وقتلوا كل الرجال المسيحيين الذين ألفوهم على قيد الحياة. وإمعانًا فى تعذيب المسيحيين الأسرى وإشعارهم بالأسى والمهانة، جعلوهم يخرجون جثامين الموتى من البرج، ويسحبوها إلى خارج المكان بواسطة حبال تم لفها حول أعناق الجثث، حتى ألقوها فى هوة. ثم شرعوا فى قتلهم أربعةً أربعة ليطيلوا من مدة الحفل الدامى، فحملوهم عراةً وحفاةً، وانهالوا عليهم صفعًا على القفا ولكمًا. ثم أجلسوهم على الأرض على الترتيب فى أحد الحقول، وعندئذ بدءوا يأخذون بثأرهم: فكان من يمسك بين يديه الحبل الذى أوثقوا به المسيحيين هو أول من يؤذيهم، ثم يجىء الآخرون ليطعنوهم بالرماح والسكاكين المرة تلو الأخرى حتى يجهزوا عليهم، كما أن بعضهم كان يسلم المسيحيين إلى الموريسكيات قبل أن يلفظوا أنفاسهم حتى يشاركن فى مشاعر الابتهاج. كان خوان دى ثيبيدا Juan de Cepeda – ناظر الحرير – واحدًا من أولئك الذين نالوا الشهادة، دون أن يتسنى له الاستمتاع بالموت فى سبيل الرب، وذلك على أيدى الموريسكيات المتسلحات بالأحجار والخناجر.

كذلك فقد قتلوا أرملةً موريسكيةً كانت متزوجة من رجل مسيحى، وتدعى إينيس دى ثيبيدا Inés de Cepeda؛ لأنها رفضت أن تضحى مسلمةً مثلهم، وقالت لهم إنها كمسيحية يجب ألا يكون لديها رغبةً تفوق الموت من أجل عيسى المسيح. بسبب ثباتها على المبدأ قاموا بذبحها، وفاضت روحها إلى بارئها، بعد أن أوكلت أمرها إلى مريم العذراء المجيدة مراتٍ عديدة. لم يقو المارقون على رؤية توكل المسيحيين على الرب وأمه المباركة حينما ألفوا أنفسهم فى ذاك الحال. ولمّا كانوا ملحدين ومفسدين، فقد قالوا لهم: "أيها الكلاب، الرب ليس له أم" ، ثم أخضعوهم إلى أشنع الممارسات. وقد توسل ملحدان يدعيان بدرو المالكى Pedro Almalqui وخوان باستور Juan Pastor كثيرًا إلى الكاهن القانونى بالتاسار دى توريس حتى يعتنق الإسلام، ووعدوه أن يردوا عليه

ممتلكاته وأن يزوجوه. عندما أجابهم أنه أحد قساوسة عيسى المسيح، ولابد أن يموت من أجله، كالوا له اللكمات والصفعات، وقالوا له فى ازدراء: "أيها الكلب، فلتناد الآن على رئيس الأساقفة والرئيس وألبوتودو(*) حتى يخلصوك مما أنت فيه". وعقب استيلائهم من أمه بواسطة الخديعة على مائتى دوقية كانت قد خبأتهم، بعدما وعدوها أنهم لن يقتلوه، جردوه من ثيابه، وأوثقوا يديه بحبل إلى عنقه، وحملوه إلى الميدان، ثم أبعدوه إلى إحدى بقاع الساحل التى يسمونها لاوخار (القصور) Lauxar، حيث قطعوا قدميه ويديه، وبعد ذلك قاموا بشنقه هو وغلامين مسيحيين آخرين، كان أولهما دون الرابعة عشرة، أما الطفل الثانى فكان ابن أخ الكاهن القانونى، الذى بكى عندما شاهدهم يقتلون عمه، فقتلوه هو أيضًا. وقد مات فى تلك البقعة ثمانية وعشرون مسيحيًا، ما بين كاهن وراهب، وكذلك طفلان لم يبلغا الثالثة من عمرهم، أو أكبر من ذلك بقليل. وقام بتنفيذ تلك الجرائم البشعة، التى أمر بها فرج بن فرج، كلٌ من لويس الأردون Luis el Ardon وميغيل دى غرانادا شابا Miguel de Granada Xaba، جنبًا إلى جنب مع فرق الثوار الجبليين.

ثارت ميثينا دى فونداليس فى مساء يوم الجمعة ذاته، وقد باغت الموريسكيون المسيحيين الغافلين المقيمين بها، فأسروهم جميعًا فى ديارهم وسرقوهم. ثم توجهوا صوب الكنيسة، وأخذوا يهشمون كل ما هو مقدس بداخلها، كما لو كانت كل مشاعر السعادة والسرور منوطة بذاك الأمر وحسب، كذلك فقد استولوا على ملابس القساوسة الرسمية وكل ما هو ثمين داخل المكان. كانت المعاملات السيئة والعقوبات المخزية التى أخضعوا لها المسيحيين الأسرى هناك متعددة، وبعد أن أمعنوا فى إذلالهم، قتلوا ستة عشر شخصًا، من بينهم كاهنان قانونيان يدعيان لويس دى خوركيرا Luis de Jorquera و بدرو رودريغيث دى أرثيو Pedro Rodríguez de Arceo، وشماس

(*) يقصد رئيس محاكم التفتيش فى مملكة غرناطة بدرو دى ديثا، والأب ألبوتودو الذى ولد لأبوين مسلمين ثم تحول إلى "فقيه" للمسيحيين. راجع الكتاب الرابع، الفصل الرابع...، صفحة ٢٩٥ (المترجمة).

الكنيسة دييغو بيريث Diego Pérez، ورجل ثرى اسمه بدرو مونتانيّيس Pedro Monta?és، وكذلك زوجته، وطفلة رضيعة كانت تحملها بين ذراعيها. حيث أخرجوهم جميعًا عرايا، موثوقى الأيدى إلى خارج البلدة، وهم يضربونهم بالعصى ويصفعونهم، ثم جرحوهم فى وحشيةٍ بالرماح والسيوف والحجارة.

اندلعت شرارة الثورة فى بيتريس دى فيريّرة عشية عيد الميلاد المجيد، فى يوم الجمعة الموافق الرابع والعشرين من ديسمبر، كما حدث فى باقى أرجاء تلك الطاعة. عندما استشعر المسيحيون المقيمون بها، وغيرهم ممن تصادف وجودهم هناك القلاقل التى تدور بين الأهالى، التجأوا إلى برج الكنيسة، أما المسلمون فقد قاموا بنهب دورهم ومحاصرتهم. عندما فطن الثوار إلى أنهم قد أحاطوا بهم، وأن المسيحيين يدافعون عن أنفسهم، قام أحد الموريسكيين البارزين فى تلك البلدة واسمه ميغيل دى إيريّرا Miguel de Herrera بإقناعهم بالاستسلام مستخدمًا كلماتٍ عذبة، حيث أخبرهم أنهم لن يُقتلوا؛ فاستسلموا بالفعل، حيث أدركوا أنهم لا يقدرون على مواصلة دفاعهم غير المجدى. حينئذ شرع الموريسكيون فى نهب الكنيسة وسرقة محتوياتها وتحطيم المذابح. حمل ميغيل دى إيريّرا الأسرى إلى بيته، وإلى بيوت رجال مهمين آخرين، وبث فيهم الأمل بأنهم لن يموتوا. بعد أن مكث المسيحيون هناك طيلة ثلاثة أيام، حضر الخائن فرج، وأمره بالاجهاز عليهم. حينئذ حُمِل الجميع إلى منزل دييغو دى لا أوث Diego de la Hoz، وكان مسيحيًا موسرًا يسكن فى تلك البلدة؛ ثم أُذيعَ أن كل الموريسكيين والموريسكيات الذين يودون الابتهاج بموت أعدائهم عليهم التوجه إلى الميدان لمشاهدة الميتة التى سيلقونها، آنذاك شعر الجميع بالخيلاء.

كان الكاهن القانونى خيرونيمو دى ميسا Jerónimo de Mesa لأول من أُخرِجَ من المنزل، حيث قام الثوار بوضع بكرة ملفوف عليها حبل غليظ أعلى برج الكنيسة، ثم ربطوا به ذراعيه إلى الخلف، ثم رفعوه إلى الأعلى، وتركوه يهوى إلى الأرض فجأة ثلاث مرات وذراعاه مخلوعتان، فكان من جراء ارتطامه ببلاطة على الأرض أن تهشمت عظام قصبة رجليه وفخذيه فى حضور والدته؛ وهى امرأة مسيحية صالحة من أصل

موريسكى، فما كان منها إلا أن توجهت نحوه فى شجاعة الرجال، وقبّلت وجهه مراتٍ عديدةٍ، وقالت له: "يا بنى، تقوى بالرب وأمه القديسة، ففى أيديهما خلاص أرواحنا، أما التعذيب فسوف ينقضى سريعًا". حينئذ رفع الكاهن عينيه إلى السماء، وتوجه بجزيل الشكر الأبدى إلى المسيح عيسى، وهو يذرف دموع التفكر فى جسارة من لا يستشعر تلك الآلام. عندما رآه الملحدون على ذلك الثبات، وهو يمجد الرب من كل قلبه، اقتربوا منه وقالوا له بغية امتهانه: أيها الكلب، اتل الآن صلاة "السلام عليك يا مريم"، ولنرى إن كانت قادرة على إخراجك من هنا!". بعدها عادوا إلى رفعه مرة أخرى أعلى البرج، وتركوه يسقط للمرة الرابعة، ثم تركوه ولفوا حبلاً حول رقبته، ثم أسلموه إلى الموريسكيات ليأخذوا هن أيضًا ثأرهن منه، فقامت تلك النسوة بسحبه إلى خارج البلدة، وجرحوه بالخناجر والرماح الصغيرة والحجارة حتى أجهزن عليه. ثم عادوا أدراجهم لمواجهة أمه: فبصقوا فى وجهها، ونعتوها بالكلبة المسيحية، ونتفوا شعر رأسها، وقاموا بصفعها، وأحدثوا بها الكثير من الإصابات، وألقوا عليها الحجارة حتى أردوها صريعة فوق جثة ابنها.

عقب انتهاء ذلك المشهد أخرجوا كلاً من دييغو دى لا أوث، وحاكم توربيسكونّ Torviscón، وفرانثيسكو دى كامبوسانو Francisco de Campuzano، ومسيحيين كثيرين غيرهم، وحملوهم إلى المكان الذى سيقتلونهم فيه. عندما قام نفر من المسيحيين برسم رمز الصليب بإبهامى يديهم وتقبيله؛ لأن أيديهم كانت موثقة، توجه الموريسكيون إليهم وقطعوا أصابعهم. كان ضمن أولئك المسيحيين غلامان، يبلغ عمر أكبرهما ثلاثة عشر عامًا، وهو ابن أنطون مارتين Antón Martîn أحد المتعاونين مع محكمة التفتيش المقدسة، وقد عاونهما الرب وأخذ بيدهما فى ذاك اليوم، حيث لم تجد معهما توسلات أو وعود أو تهديدات لحملهم على الارتداد عن دينهم. عندما رغب الثوار فى إخراجهما وقتلهما مع الآخرين، قام فتى يدعى بدرو، وكان ابن دييغو دى لا أوث، وتوجه إلى أمه، وقال لها بمحيا طلق: "فلتصلى للرب من أجلى يا والدتى"، فأجابته الأم وهى تبكى: " أى بنى، أنت من يجب أن تبتهل من أجلنا جميعاً"، فأجابها الصبى: "سأفعل بكل

تأكيد يا سيدتى، ولا تحزنى لموتى، فأنا سأرحل فى سعادة بالغة، مسرورًا لموتى من أجل المسيح عيسى". ثم وصلوا فى صعوبة بالغة إلى المكان الذى كان به المسيحيون القتلى الآخرون، حيث جثوا على الركب دون أن يرهبوا ذلك الموت الوشيك، فهم ذهبوا لينعموا بالسعادة فى الحياة الأبدية عندما ضرّج أعداء عيسى المسيح سيوفهم بدمائهم.

الأمر الذى يستحق الإشادة قطعًا، وهو جدير بأن نتوجه بالشكر إلى الرب القوى من أجله، هو أنه على مدار كل ذلك لم يقدم رجلٌ أو امرأة، كبيرٌ أو صغير، قسيسٌ أو كاهن على الارتداد عن الدين. بل إن بعض الموريسكيين والموريسكيات فرحوا لأنهم سيموتون فى سبيل العقيدة المسيحية، وقدموا أنفسهم لتلك التضحية عن طيب خاطر، مظهرين حميةً كانت تشتد كلما شاهدوا الفظائع التى تُقترَف فى حقهم. عانى فى ذاك الموضع ثلاثة وعشرون مسيحيًا وتعذبوا تطبيقًا لحكم ميغيل دى إيبّرا، وكان هو القاضى الذى أدانهم. أما المنفذون الرئيسون لتلك الجريمة فهم: لورينثو دى مورثيا Lorenzo de Murcia، ولورينثو كامباناری Loerenzo Campanari وميغيل دى مونتورو Miguel de Montoro، وميغيل ثينين Miguel Zenin، والمحمى el Mehme. أُرتكب فى تلك المواضع الكثير من الفظائع الأخرى، التى أمتنع عن ذكرها؛ فنحن إذا رغبنا فى سرد كل ما حدث، سيضحى لزامًا على القارىء بذل مجهودٍ شاقٍ ومطالعة عدد كبير من الصفحات.

الفصل الحادى عشر

يتناول كيفية نشوب الثورة فى أرجاء طاعة خوبيليس، ووصفا لها

طاعة خوبيليس يجاورها من الغرب كل من طاعتى بوكيّرة وفيريّرة، ويحدها من الشمال جبل شلير، وهى متاخمة للساحل من جهة الجنوب، ولبلدة أوخيخار دى ألباثيتى من ناحية الشرق. وهى أرض تغص بالجبال والصخور، خاصةً الجهة الواقعة بالقرب من جبل شلير. تضم خوبيليس عشرين قرية أسمائها كالتالى: بالور، بينياس إى إخين Viñas y Exen، ميثينا دى بومبارون، ياتور Yátor، ناريلا Narila، كاديار، تِيمين Timen، بورتيل Portel، غوركو Gorco، كوخوريو Cuxurio، بيرتشول Bérchul، ألكوتار Alcútar، لوبراس Lobras، نيليس Nieles، كاستاراس Cástaras، نوتايس Notaes، تريبيليث، وخوبيليس وهى رأسها جميعًا. يوجد ناحية بيرتشول كهوفٌ ضخمةٌ نحتتها الطبيعة، وحصّنتها بين الصخور فى أماكن شديدة السرية. كان الموريسكيون يحتفظون فيها بمؤونة وفيرة تعينهم وقت الحاجة. يحيط بتلك الطاعة من جهة الشرق والجنوب نهر ينبع من أعلى قمة فى جبل شلير، بجوار ميناء لُه، الذى يعنى اسمه ميناء اللَوح؛ لأن هناك قطعة من الأرض السهلية كائنة فى أعلى نقاطه، وهى التى يعبر من خلالها جبل شلير، حيث يسير من وادى آش إلى البشرات. هذا هو النهر الذى يطلقون عليه كاديار؛ وتقع طاعة خوبيليس بين ذلك النهر والنهر الذى ذكرنا آنفًا أنه يسيل بجوار تريبيليث ليحيط بطاعتى بوكيّرة وفيريّرة. وهى عامرة بالقمح، والحبوب، والشعير، والذرة؛ وبها أعداد وفيرة من الأغنام، بيد أنها لا تحتوى على العديد من الغيلات، كما أن الحرير الذى تنتجه لا يضاهى فى جودته ما تنتجه الطاعات الأخرى، خاصة تلك الكائنة داخل نطاق خوبيليس ذاتها.

خوبيليس هى الموضع الرئيس بتلك الطاعة، وفيها يمكن رؤية أطلال قلعةٍ قديمةٍ موجودةٍ بمنطقة كبيرة للغاية ومنيعة، ويروى الموريسكيون القدامى أنها على عهد المسلمين كان بها قائد ورجال حرب، بغرض فرض السيطرة على تلك الأرجاء، وكانت أشد مناطق البشرات اضطرابًا، وأهلها متوحشون للغاية. بادر موريسكيو هذا الموضع، وسائر أنحاء تلك الطاعة باشعال الثورة فى يوم الجمعة الموافق لعشية عيد الميلاد المجيد، عندما أجهز الثوار على المسيحيين الذين توجهوا إلى كاديار برفقة القائد إيريّرا. كان أول ما فعلوه هو سرقة الكنيسة وتهشيم ما ألفوه بداخلها، ثم هرعوا إلى منازل المسيحيين القاطنين فى ذلك المكان، بعد أن تغلبت مشاعر الحقد على الجشع، فشرعوا فى نهبها، ثم اعتقلوا الأهالى وأودعوهم الكنيسة برفقة رجال للحراسة؛ وقد تحفظوا عليهم هناك لعدة أيام، قاموا خلالها بوعظهم حول شؤون عقيدتهم، وحثوهم على الارتداد والعودة إلى اعتناق الإسلام، ومكثوا على حالتهم تلك حتى عودة فرج، الذى أصدر أوامره بقتلهم جميعًا. فقاموا بقتلهم جميعًا تنفيذًا لأمره فى يوم الخميس الموافق الثلاثين من ديسمبر. كان أول من بدأوا بهم الكاهن القانونى سلبادور رودريغيث Salvador Rodríguez، والقسيس مارتين روميرو Martín Romero، وشماس الكنيسة أندرِس مونخى .Andrés Monje فحملوهم عراةً، بعد أن أوثقوا أيديهم خلف ظهورهم، إلى أحد الحقول على مقربة من الكنيسة، حيث انهالوا عليهم طعنًا بالخناجر حتى لفظوا أرواحهم ومعهم اثنان من الرهبان الخدام. تواجد فى نفس المكان مسيحيون آخرون من الأسرى يوشكون أن يلاقوا المصير ذاته، لكن تصادف مرور السيد إيرناندو الصغير فى ذلك المكان، أثناء تفقّده لتلك البقاع، فحررهم وأسلمهم إلى موريسكى من أهالى المكان لكى يضطلع بحمايتهم إلى أن يطالبه بتسليمهم. تلك الفظائع التى اقترفها ابن فرج لم ترق للصغير على الإطلاق، بل إنها روعته هو ومن صاحبه فى رحلته، بيد أنه لم يجرؤ على معارضته خوفًا من أن يصيبه المسلمون الثائرون بسوء، ويقولوا إنه يحابى المسيحيين أو إنه يرأف لحالهم؛ من أجل ذلك انحاز إلى جانب ابن فرج، فنصبّه الثوار وزيرًا له، انطلاقًا من كونه رجلاً معاديًا ومضطهدًا لكلمة مسيحى.

ثار أهالى ألكوتار فى نفس اليوم الذى ثار فيه أهالى خوبيليس، فسرقوا الكنيسة، وهشموا الأيقونات والصور، وحطموا كل الأشياء المقدسة، ولم يدعوا إثمًا إلا اقترفوه أوحرمةً إلا انتهكوها، يرافقهم فى ذلك الثوار الجبليون وقائدهم إستيبان بارتال Esteban Partal. فتوجهوا إلى منزل القاضى الكنسى دييغو دى مونتويا Diego de Montoya، وهو الكاهن القانونى لذاك الموضع، واقتحموه عنوةً، وقتلوه بنصل أحد السهام. ثم اعتقلوا ابن أخيه الأب مونتويا، وقطعوا إحدى يديه، ونهبوا كل ما بالدار. ثم أسروا كلاً من خوان دى مونتويا Juan de Montoya، الكاهن القانونى لكوشوريو دى بيرتشول Cuxurio de Bérchul، الذى تصادف وجوده هناك، ومسيحيين ومسيحيات آخرين كانوا يعيشون فى المكان؛ ثم حملوهم إلى كوشوريو برفقة أسرى آخرين وقتلوا الجميع هناك، كما سنذكر لاحقًا. وقد أظهروا ما يشعرون به من أسى عميق لعدم اعتقالهم للقاضى الكنسى دييغو دى مونتويا، لأنهم كانوا يودون الأخذ بثأرهم منه فى تؤدة شديدة.

كذلك فقد ثار أهالى ناريلا فى مساء الجمعة، فحطموا الكنيسة ومنازل المسيحيين وقاموا بسرقتها، واعتقلوا الجميع، وكان بينهم أحد القساوسة المختصين بإقامة القداس يدعى ثيبريان سانشيث Cébrian Sánchez، وحملوهم مربوطى الأيدى إلى ألكوتار. كان الثوار قد أبقوا على الأسرى، ووعظوهم حول شئون عقيدتهم، وحاولوا اقناعهم باعتناق الديانة الإسلامية، وهددوهم بأنهم سيلقون ميتات بشعة إذا لم يطيعوهم؛ وعندما أدرك الموريسكيون أن محاولات الاقناع والتهديد لم تجد نفعًا، جردوا كل الرجال من ثيابهم، وبعد أن أوثقوا أيديهم خلف ظهورهم، اصطحبوهم إلى كوشوريو حيث قتلوهم. وقد نفذّ تلك الفعلة الشنعاء لوبى سينيث Lope Seniz وغونثالو سينيث Gonzalo Seniz، وهما من أهالى كوشوريو دى بيرتشول، وكانا من قادة الثوار الجبيين ومن أشد مضطهدى المسيحيين قسوةً.

اندلعت الثورة فى كوشوريو دى بيرتشول فى أوان قيامها فى باقى مواضع البلدة. فى بداية الأمر دلف الثوار المذكورون إلى الكنيسة ومشاعر الحنق الشديد

تعتمل فى صدورهم، فهشموا الأيقونات والصور وجرن المعمودية المقدس، وحطموا خزانة القربان المقدس؛ فلمّا لم يعثروا على قربان المناولة المقدس، وكان الكاهن القانونى بدرو كريسبو Pedro Crespo قد تناوله، قاموا بإلقاء كل الأشياء المقدسة على الأرض فى ازدراءٍ وتحقير. فى أعقاب ذلك توجهوا صوب منازل المسيحيين بغرض سرقتها، واعتقلوا الكاهن القانونى، الذى كان قد اختبأ فى منزل موريسكى صديق له، وقتلوه فى قسوةٍ بالغة. حمل الثوار الموريسكيون المسيحيين الذين أسروهم فى ألكوتار وناريلا إلى ذاك الموضع، وقتلوهم جميعًا أمام الكنيسة. أما الكاهن القانونى خوان دى مونتويا، الذى كان الثوار قد اعتقلوه فى ألكوتار، فقد اقتلع أحد أولئك المارقين عينه اليمنى بالخنجر، ثم أردوهم جميعًا قتلى فى أرض الميدان بعد أن قذفوهم بالبنادق والسهام، وقد شهد مقتلهم كل من إستيبان بارتال ولوبى السينيث وآخرون من قادة الثوار الجبليين.

كما ثار أهالى ميثينا دى بومبارون فى مساء يوم الجمعة، حيث نهبوا الكنيسة، وكسروا الأيقونات، وحطموا التماثيل الموقرة، وهدموا المذابح، وفى نهاية الأمر خربوا وسرقوا كل ما هو مقدس؛ ولمّا ألفوا المسيحيين غافلين، ألقوا القبض عليهم جميعًا وسلبوا منازلهم. وقد رفع الثوار فى ذلك الموضع رايةً من حرير قرمزى، مشغولة بخيوط الذهب، تزينها فى المنتصف قلعةٌ لها ثلاثة أبراج فضية اللون، كانوا يحتفظون بها منذ عهد المسلمين، وكان صاحبها رجلا من أهالى المكان يسمى أندريس حامى Andrés Hami. وقد قبضوا على الكاهن القانونى فرانثيسكو دى ثيربيّا فى بيته، وعقدوا يديه خلف ظهره، وانهالوا عليه صفعًا وضربًا بالعصى، وتنقّلوا به من حجرةٍ إلى أخرى حتى أسلمهم النقود والثياب التى كانت بحوزته؛ ثم دفعوا به إلى خارج الدار، حيث تقدم باتجاهه رجل موريسكى كان من أعز أصدقائه، وكان قد طلب أن يلقاه على عتبة الباب وكأن الأمر مصادفةٌ، فأمضى سيفه فى جسده وهو يقول له: " خذ أيها الصديق، من الأفضل أن أقتلك أنا عن أن يجهز عليك غيرى"، وأخذ هؤلاء المدنسون يرمونه بالحجارة ويطعنوه بالخناجر حتى قضوا عليه تمامًا. وهم لم يكتفوا

بذلك، حيث تناول واحد من الموجودين هناك عصا وانهال على جسده ضربًا إلى أن حطّمه من قدميه حتى رأسه. فى صبيحة يوم آخر سحبوا جثمانه إلى خارج المكان وألقوا به فى هاوية. لم يمض وقت طويل بعدها حتى كانوا قد أراقوا دماء كل المسيحيين الأسرى، وكان بينهم الكاهن القانونى خوان غوميث Juan Gomez، والقسيس خوان بالومو Juan Palomo، بعد أن أخضعوهم لشتى صنوف الإذلال والوحشية. كان من لاحق المسيحيين فى قسوة فى تلك الناحية حاكمها ميغيل دالوى Miguel Daloy.

تضم بالور حيين، أحدهما علوى والآخر سفلى، وقد ثار كلاهما بحلول مساء الجمعة. عندما استشعر القساوسة والرهبان الخدام المقيمون هناك وجود قلاقل، تحصنوا فى برج كنيسة الحى السفلى، وقضوا به ليلتهم فى حذر شديد. قام المسلمون بسلب كنيسة الحى العلوى وديار المسيحيين، وفى صباح اليوم التالى حاصروا من بالبرج، وأكد لهم بيرناندينو بن ثابا Bernandino Abenzaba أنه لن يصيبهم بأذى، وأسرهم جميعًا. عندما فرغ المسلمون من تحطيم وسرقة تلك الكنيسة أيضًا، ساقوا المسيحيين موثوقى الأيدى إلى بعض المنازل، ومكثوا عدة أيامٍ يرشدونهم حول تعاليم طائفة محمد. عندما فطنوا إلى أن عظاتهم لم تجد نفعًا؛ لأن الجميع قالوا إنهم مسيحيون ويتوجب عليهم الموت من أجل المسيح[١٦]، ساق المارقون الرجال عراةً ومقيدين إلى خارج المكان، حتى جعلوهم يفترشون ساحة الميدان، ثم أطلقوا عليهم الرصاص ورموهم بالسهام. كان أول من قتلوهم ثلاثة كهنة قانونيون هم: حامل الإجازة ديلغادو Delgado، وألونسو غارثيّا Alonso García، وتيخيرينا Tejerina؛ وشماسين للكنيسة أحدهما يدعى فرانثيسكو دى ألمانسا Francisco de Almansa.

---

(١٦) اللافت للنظر هنا أن جميع المسيحيين يثبتون على عقيدتهم رغم التعذيب، هذا إن صحت الرواية. الرسالة التى يريد المؤلف توجيهها واضحة: إذا كان مسلمو غرناطة لم يثبتوا على عقيدتهم الإسلامية فى أثناء التعذيب فليس هذا ذنب المسيحيين، بل معناه قلة اقتناع الغرناطيين بالإسلام. (المراجع).

كان هذا المكان هو مسقط رأس السيد إيرناندو دى بالور Hernando de Valor، بيد أنه لم يكن موجوداً آنذاك؛ وحتى إن وجد، ما كان الثوار سينتهون عن اقتراف تلك الفظائع، وهو لم يشأ معارضتهم؛ لأن قريتهم أضحت الأكثر ضراوةً، والأشد التزامًا بالتعذيب، والأقل توقعًا للصفح والمغفرة. من أجل ذلك نراه إن كان سمح بالتجاوزات عدة مرات، فهو من قام بها فى الكثير من الأحايين، وذلك من أجل أن يُعده الناس عدوًا للمسيحيين.

فى اليوم نفسه والساعة التى اندلعت فيها شرارة الثورة فى بالور، ثارت ييخن Yegen وياتور، ولم تقل الفظائع التى ارتكبت بهما عن مثيلاتهما: فقام المسلمون بتخريب وسرقة الكنيسة وبيوت المسيحيين، وأسروهم جميعًا، ونكلوا بهم، ثم أجهزوا عليهم بمنتهى القسوة. كان من ضمن من قتلوهم صاحب الإجازة برابو Bravo، وشماس كنيسته، وأحد المواطنين يدعى خوان دى مونتويا Juan de Montoya، كان قد تمكن من الفرار بعد أن جرحه نصل سهم فى رأسه، وتوجه إلى أوخيخار حيث مات هناك مثلما حدث مع كثير من المسيحيين الذين كانوا هناك.

الفصل الثانى عشر

يتناول كيفية نشوب الثورة فى بقاع الساحلين، ووصفا لها

الساحلان هما طاعتان متجاورتان على شواطىء البحر. أما تلك الطاعة الواقعة إلى ناحية الغرب فيسمونها سويحل Zueyhel، وهى صيغة تصغير، تعنى أنها أقل مساحةً من الأخرى. ويتاخم تلك الطاعة من جهة الغرب جبال خوبيلين الكائنة بمدخل البشرات، حيث توجد كل من روبيتى، وبأرخيش Bárgix، والقصر، وكذلك طاعة أورخيبا. أما الساحل الأكبر فيحده من الشرق أراضى أدرا؛ وكلا الساحلان يطلان على البحر الأبيض المتوسط من جهة الجنوب، ويجاوران طاعة فيريّرة وخوبيليس وجزءًا من أوخيخار. ويضم كلاهما أحد عشر موضعًا هى: ألبونيول Albuñol، وتوربيس‡كون ، وتورونّ Turón، وميثينا دى توديل Mecina de Todel، بورديماريلا Bordemarela، ودتيار Détiar، وكوخايار Cojáyar، وفورونون Foronon، ومورتاس Murtas، وخورايّراتا Jorayrata، وأليخيخار Almejíjar. تحتوى تلك الأراضى على غابات ضخمةٍ من أشجار البلوط، وبها وفرة من الكلأ لرعى الأغنام، كما يُحصَد بها كمية من الدقيق. أما البقاع المطلة على ساحل البحر فهى غير آهلة بالسكان، ومن ثم تُعَد خطيرةً للغاية، إذ يؤمها القراصنة الأتراك و مسلمو شمال إفريقيا. يحيط بهذه الطاعة نهران: النهر الذى يجرى ناحية الشرق يسمى نهر أدرا، أما ذاك الكائن بالناحية الغربية فهو ينبع من السويحل ذاته على مقربةٍ من البحر، ليتجه إلى الداخل نحو الشمال، ويكمل انحداره بصورةٍ شديدة التعرج إلى أن ينضم إلى نهر القصر، الذى يسيل من جبال خوبيلين أسفل إسكاريانتيس Escariantes الواقعة فى طاعة أوخيخار.

ثار أهالى كل تلك البقاع التى ذكرناها آنفًا مساء يوم الجمعة، فحطموا الكنائس وسرقوها، وأسروا وقتلوا كل المسيحيين الذين كانوا يقيمون بين ظهرانَيْهم، ثم غادروا منازلهم ليتوجهوا فى اليوم التالى إلى الشعاب الجبلية الوعرة برفقة نسائهم وبنيهم وأغنامهم، حيث لجأ غالبيتهم إلى كهوفٍ شديدة الضخامة وجيدة التحصين، تقع على مسافة نصف فرسخ إلى الأعلى من خُورايِّراتا.

فى أعقاب قيام أولئك المارقين المدنسين للمقدسات بنهب الكنيسة فى خُورايِّراتا، واقتراف أيديهم العنيفة لآلاف الشرور وانتهاكهم للحرمات، جمعوا كل السجناء بداخلها، وكان من بينهم الكاهن القانونى فرانثيسكو دى نابارّيتى Francisco de Navarrete وسادن الكنيسة، واستبقوهم هناك طيلة ثلاثة أيام حتى صدور قرار من فرج بن فرج يقضى بقتلهم. حينئذ أخبر رجل مسلم يدعى لوبى دى قزمان Lope de Guzmán، كان يعمل حاجبًا بتلك البلدة، الكاهن القانونى أن عليه أن يدرك أنه هو وكل الموجودين بالمكان ميتون لا محالة، وأنه فى وسعه إبقاؤهم أحياءً عدة ساعات أخرى، فتوسل إليه الكاهن أن يمنحهم مهلةً لتهيئة أنفسهم فى مساء ذاك اليوم والليلة التى تليه. وقد لبى المسلم مطلبه؛ لأنه كان صديقه، بعد أن سخر من سماعه يقول إنه يود تهيئة نفسه. عندما فطن القسيس إلى إن منية أولئك المسيحيين قد أمست وشيكة للغاية، صارحهم بالأمر وأخذ يعظهم حول أسرار محبة المسيح، مخلصنا. فقضى كل ما تبقى له من وقت فى تلك الليلة جاثيًا على ركبتيه منخرطًا فى الصلاة، وهو يطلب من الرب أن يغفر له خطاياه.

عندما أصبح النهار، عاد إليه الحاجب وقال له إن ساعته قد حانت، وإن بمقدوره إختيار الميتة التى يرغبها، وسوف يحققها له. فتضرع إليه الكاهن أن تُقطَع رقبته لكى لا يتألم طويلاً، وما إن يلفظ أنفاسه حتى يدفنه فى الكنيسة. فأجاب المسلم قوله فى ازدراء: " أما قطع رقبتك فسأقوم به، بيد أننى لا يمكننى ترك جثمانك بالكنيسة، لأننى سأجعل منها حظيرةً لماشيتى". حينئذ جثا القسيس خادم عيسى المسيح على ركبتيه

أمام المذبح المحطم والمتهدم، وشرع يصلى للرب، فجذبه المارق من يده حتى أوقفه، ثم ساقه إلى باب الكنيسة، وكان مجتمعًا عندها أناس كثيرون، فأسلمه إلى السيافين المارقين، هو وسادن الكنيسة، وقال لهم: "أما هذا الفقيه(١٧) الكلب الدنىء فأسلمكم إياه لكى تقطعوا رأسه؛ لأنه إبان اعتلائه للمذبح، كان يجعلنا نصوم حتى ينتصف النهار، بعد أن يكون هو قد تناول رغيفًا من الخبز، وشرب الخمر حتى الثمالة؛ وعقب قطعها اطعنوه بالرمح فى قلبه، فقد كان يمعن فى إظهار خطايانا، نحن من لم نحضر القداس أيام الآحاد وأثناء الأعياد، وكان يعاقب الغلمان الذين لا يرغبون فى معرفة تعاليم الديانة المسيحية وهو سكران. لهذا اقطعوا رأسه وألقوها فى برميلٍ من الخمر، ثم سلّموا جسده إلى الغلمان لاحقًا، لكى يرجموها بالحجارة قدر ما انهال عليهم بالسياط". بعد تلك المقولة أنفذ أعداء الرب الحكم الجائر، وعندما حل المساء توجهت بعض السيدات المسيحيات إلى الحاجب، من أجل أن يتوسلن إليه لكى يسمح لهن بدفن تلك الجثث حتى لا تأكلها الكلاب، فرد عليهن بأن يتركنها فى الساحة؛ لأنهم كلاب كبيرة تأبى الكلاب على أنفسها أن تأكلها.

قام أهالى مورتاس بالثورة فى نفس توقيت ثورة أهل خُورايّراتا، لكنهم سلكوا نهجًا لم يعرضوا فيه المسيحيين للأذى فى تلك الليلة، بل أعطوهم الفرصة للاحتماء بالكنيسة يصحبهم الكاهن القانونى خوان غوميث دى بِيريسبادا Juan Gómez de Perespada. فيما بعد حضر برتولومى الفتين Bartolomé el Feten برفقة كتيبة من الثوار الجبليين يرفعون رايةً بيضاء يحملها لورينثو ميهغوا Lorenzo Mehgua، وانضم إليهم الجنود المسلمون من الغلمان، وقاموا سويًا بمحاصرة الكنيسة ومهاجمتها، فهدّموا الأبواب، ودلفوا إلى الداخل حيث حطّموا الصور التى تزيّن المذبح، وكسّروا الصلبان وجرن المعمودية، ونهبوا غرفة المقدسات وملابس القساوسة. لكنهم

(١٧) واضح من هذه الفقرة وفقَرات أخرى أن وظيفة "فقيه" لم تكن حكرًا على المسلمين، فعالم الدين المسيحى هو فقيه مسيحى. (المراجع)

لم يسلبوا منازل المسيحيين الذين يستبسلون فى الدفاع عن أنفسهم داخل البرج، لكى يبثوا فى نفوسهم الطمأنينة، فأقنعوهم بكلمات طيبة أن يستسلموا، وأخبروهم أن باستطاعتهم الوثوق فيهم جيداً، فهم جيرانهم وأصدقاؤهم، وإذا ما أسلموهم أسلحتهم، فهم يؤكدون لهم أنه لن ينالهم سوء أو أذى.

عندما أدرك المساكين المحاصرون إنه ما من وسيلة تتيح لهم الإفلات من الموت إذا واصلوا دفاعهم المتشتت، أجمعوا أمرهم على الاستسلام، وهبطوا من البرج، فقام المسلمون بتقييدهم جميعًا إلى مبنى الكنيسة. فيما بعد صعد واحدُ من الثوار الجبليين إلى أعلى البرج، ورفع رايةً موريسكيةً، وأخذ يعلن عن إرساء عقيدة محمد، كما هو الحال حينما يؤذن المسلمون لإعلان دخول وقت الصلاة. أما الباقون فقد توجهوا إلى منازل المسيحيين وقاموا بسرقتها وقتل بعض المرضى الذين كانوا يرقدون على الأسرّة فى وهنٍ شديد، حتى أنهم لم يقووا على النهوض. ولم يطل بقاء الآخرين على قيد الحياة بعدهم؛ لأن الثوار المارقين جمعوا صفوفهم كمن يتهيأ لاحتفالٍ مهيب، وساقوا الجميع إلى مقتلهم فى سرورٍ بالغ، وأخذوا يدقون طبولهم الصغيرة ويعزفون على المزامير، فأوقفوا المسيحيين حفاةً عراةً فى صفٍ واحدٍ فى مقبرة الكنيسة، بعد أن شدّوا وثاق أيديهم خلف ظهورهم، ثم أردوهم صرعى بعد أن قذفوهم بالبنادق والسهام، فقتلوهم جميعًا فى قسوةٍ بالغة، بعد أن بدأوا بالكاهن القانونى، وثنّوا بالسادن إستيبان دى ثامورا .Esteban de Zamora كما قتلوا سيدة موريسكية تدعى كاتالينا دى أرّويو Catalina de Arroyo، وهى والدة الكاهن القانونى أوكانيا Oca?a، لأنها قالت إنها تدين بالمسيحية، فحملوها إلى السيدات حتى يجهزن عليها، فبادرت بترتيل صلاة أنيما كريستى Anima Christi، ولفظت روحها وهى تبتهل إلى اسم المسيح العذب . أما أهالى تورونّ فكانوا على النقيض من أولئك القوم تمامًا، حيث جمعوا المسيحيين الثمانية عشر المقيمين بالموقع، ورافقوهم حتى أدرا، ليكونوا بذلك قد أوصلوها إلى بر الأمان ومعهم كل منقولاتهم.

الفصل الثالث عشر

يتناول كيفية نشوب الثورة فى قرى طاعة أوخيخار، ووصفا لها

تقع طاعة أوخيخار فى وسط البشرات، وهى أراض منحدرة، بيد أنها ليست بنفس درجة وعورة الطاعات الأخرى التى ذكرناها آنفًا. وتجاورها طاعة خوبيليس من ناحية الغرب، وجبل شلير من الشمال، بينما يحدها كل من الساحل الكبير وأراضى أدرا من جهة الجنوب، وطاعة أندرش من الشرق. تُحصد فى تلك الأراضى كميات من القمح، والدقيق، والشعير، والذرة؛ كما يوجد بها أيضًا مراعى جيدة للغاية للمواشى والأغنام، أما الحرير فليس بالكثرة ذاتها فى أوخيخار كما فى غيرها من الطاعات، وليس على نفس القدر من الجودة؛ وكذلك فإن قاطنيها لا يتمتعون بنفس المساحات الشاسعة من الغيلات. يحيط بتلك الطاعة من ناحيتى الشرق والجنوب نهر ينبع من العيون التى تخرج من البحيرة الكبيرة التى تقع أعلى جبل شلير على مقربةٍ من ميناء رباح، الذى تعنى تسميته باللغة العربية تجمع المياه. وينقسم ذلك النهر فى بداية مساره إلى فرعين: أكبرهما ينحدر باتجاه الغرب، ويكوّن خلال مسيرته الكثير من التعرجات والخلجان دون أن يمر بأى من البقاع الآهلة بالسكان حتى يصل إلى إسكاريانتيس، حيث ينضم إليه نهران آخران ينبعان من الجبل ذاته. أما الفرع الآخر فيسيل باتجاه الشرق، ليعبر خلال الطاعة، ويمر إلى الغرب من أوخيخار دى ألباثيتى، وهو الاسم الذى يطلقه المسلمون على المكان، الذى كان يصنف كمدينة إبان تسيّد الملك أبى عبد الله الزغيبى للبشرات. وينبع من العين ذاتها التى يخرج منها النهر الذى أشرنا إليه نهر آخر يتوجه تياره أكثر إلى ناحية الشرق، ليمر إلى جوار لاروليس

Lároles، ومنها يعود أدباره إلى أوخيخار، حيث ينضم إلى ذراع أخر ينبع من عين ثانية تسيل من عدة جبال أقل ارتفاعًا تقع شرق البحيرة المذكورة. فيما بعد أطلق الأهالى على النهر اسم باتيرنا Paterna، نسبةً إلى أحد المواضع التى يجرى خلالها. كل تلك المياه تعبر خلال أوخيخار، فى منتصف الطريق التى تقطعه لتصب فى البحر المتوسط، وهى تتجه بعد ذلك لتجرى بمحاذاة داريّكال، إلى أن تصب فى البحر فى مكان قريب من بلدة أدرا. من أجل ذلك يطلقون على هذا النهر، بعد أن تكون مياهه قد تجمعت فى مسار واحد، نهر أدرا.

تضم طاعة أوخيخار تسعة عشر موضعًا هى: داريّكال، وإسكاريانتيس، ولوكاينينا Lucainena، وتشيرين Chirin، وسوبرول Soprol، وأم قيرة Umqueira، وبثّينا Pezcina، ولاروليس، وأوندورون Unduron، وخوغار Júgar، ومايرينا Mairena، وكارخيلينا Cargelina، وألموثيتا Almóceta، والفحص، ونيتشيت Nechit، وميثينا دى الفحر Mecina de Alfahar، وتورياس Torrillas، وأنكيّرة Anqueira، وأوخيخار دى ألباثيتى. هذه الأخيرة، كما سبق وأشرنا، هى البلدة الرئيسة، ولها صفة المدينة، وعادةً ما تحتوى على مقر دائرة القضاء المدنى والجنائى، ويقيم بها الحجاب والكتبة والحاكم العام للبلدة الذى ينصّبه المأمور القضائى لغرناطة بغرض الاضطلاع بشؤون القضاء فى سائر أرجاء البشرات.

كان الحاكم العام للبشرات آنذاك رجلا مثقفا من أهالى كوريل Curiel يدعى الأب ليون León، وكان على علم بالثورة التى ينتوى المسلمون القيام بها قبيل اندلاعها بثلاثة أيام، لأن الأب توريخوس Torrijos الكاهن القانونى لداريّكال كان قد أخبره فى سرية، هو ورئيس دير رهبان أوخيخار، وهو من أهالى إييسكاس Illescas اسمه المعلم دييغو بيريث Diego Pérez، حيث قال لهما إن نفرًا من أصدقائه الموريسكيين أكدوا له أن الغرناطيين سيحيون ثورتهم الماضية، وأن الأمر بات وشيكًا. فما كان من الأب ليون إلا أن أذاع أن كل مسيحيى البلدة الذين يرغبون فى المحافظة على أرواحهم يتعين عليهم الاحتماء بالكنيسة، ليبيتوا فى موقع شديد التحصين عندما

يحين وقت القتال بالأيدي؛ ورغبةً منه في نشر الخبر على وجه السرعة ودون إحداث جلبة، أذاع أن لديه معلومات مؤكدة تفيد بأن ما يربو على ألف تركي ومسلم من بلاد المغرب في طريقهم إلى البلدة للاستيلاء عليها. بيد أن المسيحيين لم يقتنعوا بصدق ما قيل، وسخروا من ذاك النداء، وقالوا كيف يتسنى للأتراك الوصول إلى أوخيخار، وهو ما لم يسبق لهم القيام به قط، خاصةً في فصل الشتاء، الذي تهب فيه عواصف عاتية؟.

أعقب ذلك بفترة وجيزة قرع الثوار الجبليين ناقوس الخطر في يوم الجمعة، بعدما أجهزوا على القائد دييغو دي إيرّيرا في كاديار، حينئذ ألفى المسيحيون أنفسهم غافلين: بعضهم لم يكن يحمل سلاحًا، وكثير منهم كانوا بملابسهم العادية دون أي دروع؛ هرولوا للاحتماء بالكنيسة وببرجين كائنين في منزلي اثنين من الأهالي: كان أكبرهما مملوكًا لرجل موريسكي يدعى ميغيل دي روخاس Miguel de Rojas، والآخر يوجد في منزل شخص متوفى اسمه بدرو لوبيث Pedro López، كان يعمل كبير كتبة محكمة أوخيخار. أما الكنيسة، وكانت فسيحة ومنيعة للغاية، فقد أوى إليها كل من الحاكم العام للبلدة، ورئيس دير الرهبان، والكهنة القانونيين، والكثير من الرجال المسلحين بالبنادق والأقواس؛ أما برج ميغيل دي روخاس فقد لجأ إليه كبير حجاب البلدة ويدعى دييغو دي باياثان Diego de Vallaizán يرافقه بعض الموريسكيين والمسيحيين؛ بينما احتمى أهالي بارزون آخرون في برج منزل بدرو لوبيث. كانت الأبراج الثلاثة تشكل وضعية المثلث، بحيث تمنع من بالشارع أن يطل عليها، فأمطرهم المسيحيون بالسهام؛ كما كانت لديهم وفرة من الذخيرة لاطلاقها، حيث تم تزويدهم قبيل يومين بأربعة عشر حمل من البارود من مالقة، وقام الحاكم العام بتوزيعها على الرماة، لذلك لم يتسن للثوار الجبليين إحداث أي أذى سوى تحطيم السجن، وإطلاق سراح الموريسكيين المعتقلين، وكسر أبواب خزائن الكتبة، وإحراق كل الدعاوى. في اليوم الذي يليه، وكان السبت الموافق لأول أيام عيد الميلا،

تجمّع سائر موريسكيي وموريسكيات البلدة، ثم توجه المقاتلون إلى طريق بوربورون، التى تبعد ضعف مدى إطلاق ذخيرة البنادق، بحيث لا يكتشف من بالأبراج وجودهم، ومكثوا فى انتظار مجيء السيد إيرناندو الصغير وبارتال دى ناريلا، وكانا قد ذهبا لجمع أهالى البقاع المتاخمة لقتال أولئك المسيحيين، حيث لم يجرؤ من كانوا بالبلدة على التصدى لهم.

الفصل الرابع عشر

يتناول صدور تحذير القائد دييغو غاسكا حول وجود مسلمين فى الجوار، وخروجه من داليّاس لاقتفاء أثرهم، ووصوله إلى أوخيخار بينما المكان يموج بالثورة

فى تلك الآونة كان القائد دييغو غاسكا Diego Gasca، وهو من مالقة، موجوداً فى داليّاس برفقة أربعين فارسًا من قوام كتيبته. وعندما وصله تحذير يوم الجمعة من أحد الجنود، الذين ذكرنا من قبل أنهم فروا من كاديار، حول وجود أعداء من المسلمين فى أرضنا، وما ألحقوه من ضرر برجال القائد إيرّيرا، صمم أن يخرج للبحث عنهم؛ وعندما تراءى له أنه لا مفر من الحاجة لأعداد من الرجال تربو على ما بحوزته، بعث رسالةً إلى السيد غارثيا دى بيّاروّيل García de Villaroel قائد القوات المقاتلة فى مدينة ألمرية، لينبهه إلى ذهابه لاقتفاء آثار أولئك المسلمين باتجاه أوخيخار، لكى يتهيأ ذاك الأخير للأمر ويخرج لترجيح كفته. ولم يتسن للسيد غارثيا القيام بذلك؛ لأنه توافرت لديه معلومات أوثق من القائد دييغو حول الثورة، ولمّا كانت أعداد الرجال المتوافرة لديه بالمدينة قليلة للغاية، وهناك العديد من الموريسكيين بين الأهالى، لم يجرؤ الرجل على ترك المدينة دون حماية فى ظل تلك الظروف.

ذهب دييغو غاسكا إلى بلدة أدرا، وحينما لم يجد بها أنباء حول رسو مراكب محملة بمسلمين من بلاد المغرب، عبر إلى بيرخا، ومنها أكمل مسيرته باتجاه داريّكال، وكان على علم بوجود الأب توريّخوس بها، لكى يستعلم منه عن سير الأمور. عندما

وصل إليـها، بعد أن انتـصف الليل، رأى أن أهلها قد غـادروها جـميـعًا، ووجد منزل توريّخوس خاويًا؛ فأدرك أنه لابد وأن يكون الأب ببرج الكنيسة، فذهب إلى هناك، حيث ألفى الجسر المتحرك مرفوعًا، وبعض الثياب موضوعةً حول النوافذ، فنادى عليه دون أن يتلقى ردًا؛ لأن الرجل لم يكن هناك: فبعد أن تحصن داخل البرج هو وأسرته، جاء إليه فى أول الليل أحد موريسكيى لوكاينينا، وكـان صـديقًا له ويسكن إلى جواره، وحمله على مغادرة المكان بصحبته قبل أن يتمكن الثوار من محاصرته، وحمله إلى كهف موجود بسفح جبل غادور Gádor، حيث بدا له أنه من الحيطة أن يمكث به، إلى أن يتضح ما سيؤول إليه الأمر؛ وكان الأب قد ترك الجسر المتحرك مرفوعًا، والثياب موجودة فى النوافذ من قبيل الخديعة، ليوهم من يحضر إلى المكان أنه موجود بالداخل. عندما اعتقد دييغو غاسكا أنه لا يريد أن يستجيب إلى ندائه، شرع فى إهانته، ثم استكمل مسيرته حتى وصل إلى مشارف أوخيخار فى صبيحة يوم الأحد. تمركز القائد فى موضع يتيح للمسيحيين المحاصرين داخل البرج رؤيته جيدًا، فشرع أولئك المسيحيون فى إظهار الفرح الشديد والسرور العارم، وأخذوا يشهرون الأعلام ويلوّحون بها، وبادروا بإطلاق نيران بنادقهم على الأعداء؛ لأنهم ما إن شاهدوا أناسًا يمتطون الخيول، حتى أدركوا أن النجدة قد جاءت. فطن المسلمون إلى الأمر ذاته، فلاذوا بالفرار بين شعاب تلك الجبال. ما لبثت الفرحة أن صعدت إلى رؤوس رجالنا، لأن دييغو غوسكا عندما ألفى الأرض تموج بالثورة، وأبصر المسلمين يهرعون للاحتماء بالجبال، ظن أنهم متوجهون لقطع طريق العودة عليه، فقفل عائدًا إلى أدرا دون أن يكون هناك ما يدعو لذلك بعد أن فقد واحدًا من السيافين كان قد قُتِلَ فى الطريق. جاءت تلك النجدة فى وقتها، وكان بالإمكان إنقاذ سائر المسيحيين الموجودين فى أوخيخار، لو كانت خيولنا قد توغلت إلى داخل البلدة؛ لأن قوات المشاة انضمت إلى الركب، وكانت أعدادها غفيرة، مما أمّن تراجعهم إلى أدرا. من حسن الطالع أن ذلك الأمر أسفر عن محصلة جيدة، حيث لم يمض الثوار قدمًا فى تنفيذ مخططهم الآثم، فقد فهمنا من بعض الرجال الذين نثق فى روايتهم، أن السيد فيرناندو الصغير ندم

على ما اقترفه، وأدرك أنه مشرف على الهلاك، فقال لمن معه فى ذاك اليوم: "يا إخوتى، نحن هالكون لا محالة، لقد غرر بنا الثوار الجبليون، وكان الغرناطيون يرغبون فى تنفيذ مخططهم والتضحية بأرواحنا نحن؛ فلنبحث عن سبيل آخر لنا". وهكذا أوشك نفر من رؤوس الأمر البارزين على تغيير موقفهم والعودة إلى ديارهم.

الفصل الخامس عشر

يتناول عودة الثوار إلى أوخيخار، وضربهم للبرجين اللذين يؤويان المسيحيين، واستسلام المسيحيين لهم.

بعد عودة دييغو غاسكا إلى أدرا، رجع الثوار على أعقابهم وتمركزوا فى طريق بوربورون، وتسللوا منها ليلاً إلى موضع المنازل، فتخللوها متنقلين من بيت إلى آخر؛ لأنهم لم يجرؤوا على الكشف عن وجودهم فى الشوارع، خشية أن تصيبهم طلقات الرماة الموجودين فى البرجين؛ إلى أن وصلوا إلى منزل بدرو لوبيث، فاقتحموه، وحاصروا البرج، وكان مشيداً بالكامل من الخشب، فأضرموا فيه النيران، وحرقوا الجسر المتحرك. وقد تزايدت جذوة النيران حتى أعلن الموجودون بالداخل عن رغبتهم فى الاستسلام، وقد سُمِحَ لهم بذلك، وبينما تدلّت النساء بالحبال، حيث لم يتسن لهن عبور الأبواب التى كانت مشتعلة بالنيران، احترق كل الرجال الموجودين بالداخل تقريباً، ولم يتمكن أحد من الحيلولة دون ذلك.

عندما شاهد من بداخل برج منزل ميغيل دى روخاس تلك الوحشية، رأوا أنه من الأفضل أن يسلموا أنفسهم، وكان بالبرج بعض أقرباء ميغيل من الموريسكيين، ورجل ثرى من وجهاء البشرات البارزين يدعى أندريس الوزير Andrés Alguacil، وعشرين غيرهم من المسيحيين؛ وقد أسلم البرج إلى المسلمين كبير الحجاب ذاته، الذى قرر من تلقاء نفسه أن يقنع الحاكم العام بتسليم برج الكنيسة، وأخبره أن المسلمين سيقدمون له كل الضمانات العادلة التى يطلبها، ومن أجل أن تجرى عملية التسليم فى أمانٍ تام، أعطى كل من الطرفين رهائن إلى الطرف الأخر: فسلّم المسلمون اثنين من أبناء ميغيل

دى روخـاس، وواحد من أبناء إخوته؛ بينما سلّم المسيحيون بارتولومى كيخادا -Bartol omé Quijada، وأحـد أبنائه، وغـونثـالو بيـريث Gonzalo Pérez، وهـو الكاهن القـانونى بتلك الكنيسـة وشـقـيق رئيس دير الرهبان، وكذلك خـوان سـانشـيث دى بينيـار Juan S?nchez de Pi?ar، وأحد أبنائه، ونـائب المحكمة خيرونيـمو دى أبونتى Jerónimo de Aponte، وأيضًـا بارتولومى كيـخـادا(١٨) Bartolomé Quijada الكاتب العـمـومى بتلك الدائرة القضـائية. وقد تم الاتفاق على ما يلى: "يدفع المسيحيون مـائة دوقية وعشـرة مقابل كل شخص، ويتخلوا عن أسلحتهم؛ ويتعهد المسلمون باصطحابهم سالمين معافين إلى أراضـى وادى آش أو بسطة؛ كـمـا تنطبق بنود تلك الاتفـاقـيـة على كل من الأب تورّيخوس، والعالم اللاهـوتى المحامى برابو Bravo، الذى كان موجودًا فى بثّينا، ولم يرغب فى الاخـتـبـاء داخل البرج". بعد تسليم الرهائن، دلف الكثـير من المسلمين إلى الكنيسة، وبدءوا فى التـعـامل بصورة ودية مع المسيحيين، فـعانق بـعضـهم بعضًـا، وبدا فـعـلاً أن ذاك الشـأن قـد انـتـهى وطـوت صـفـحـتـه، لو لم يقـم الحـاكم العـام نفسـه بإفشال الأمر.

ألح ذلك الرجل على الرهائن أنه لا ينبغى أن يقبضوا منه أى نقود مقابل رأسه، أو رأس امرأته وابنته، وأنه يتعين عليهم إطلاق سراحه فى وادى آش؛ بيد أن المسلمين لم يقبلوا بذلك، وقالوا إن الجـمـيع سواسيـة، وأن الحـاكم العـام لابد أن يكون أول من يدفع. حينئذ شرع الرجل فى الصـراخ بصوت عـال قائلاً: "اخرجوا! اخرجوا! اطرحوا أولئك الكلاب المارقين، من لا يحفظون دينًا أو عـهداً؛ وسـوف يضمن لى هؤلاء الرهـائن البقـاء على قيد الحياة حتـى تأتينى النجدة"، ثم دخل إلى البرج، ورفع الجسر المتـحرك، وتأهب للدفـا ع عن نفسـه. لو كـان قـد تنبـه من بداية الأمـر إلى الدفـا ع عن الكنيسـة بأكملها، ربمـا كـان سينجو من الهلاك؛ لأنه إضـافـةً إلى كون المبنى قويًا، فإن به مكان

(١٨) لا ندرى هل سلَّم المسيـحيون رهينتين يحـملان الاسم نفسه، أم هذا تكرار غير مـقـصـود من المؤلف. (المراجع).

لتخزين الماء والمؤونة لمدة تربو على الشهر، ولم يكن المسلمون سيقدرون على حرق البرج، كما حدث لاحقًا. لكن كونه رجلاً غير محنك فى أمور الحرب، حمله على الاعتقاد بأن تلك الحالة لن تدوم أيامًا طويلة، وأنه قادر على مجابهة الثوار من هناك بصورةٍ أفضل، حتى يصله الغوث. ورغبةً منه فى منع المسيحيين من الهرب بعد عقد الاتفاقية، لأنهم كانوا بدأوا فى ذلك بالفعل، فقد ترك مبنى الكنيسة بعد وضع متراس أمام الباب، واستقر فى البرج مع الناس أجمعين.

وصل المسلمون فجأةً، وقاموا من خلف مبنى الكنيسة بتحطيم غرفة المقدسات وملابس القساوسة بالمعاول والقضبان الحديدية، ثم دلفوا إلى الداخل دون أن يجدوا أى مقاومة، سوى من مسيحى واحد أردوه قتيلاً؛ فكسّروا الصلبان إلى قطعٍ صغيرة، وحطّموا الأيقونات التى تزيّن المذبح، وهشموا خزانة القرابين المقدسة، كما استولوا على ملابس الرهبان الرسمية المقدسة، وقاموا بالاستيلاء على حُلة القداس وقمصان الكهنة، استهانةً منهم بعقيدتنا المقدسة، فارتدوا القمصان وحلل القداس مقلوبة، ثم صنعوا منها جميعًا قلانس، وسراويل، وقمصانًا.

بعد الاستيلاء على الكنيسة، شرع الثوار يحسنون من أدائهم فى تلك الناحية، بعد أن أضحوا يضاهون رجالنا الموجودين داخل البرج فى القوة. فحفروا العديد من الحفر أسفل الجسر المتحرك، ثم أغرقوها بالزيت، وألقوا فوقها الكثير من أعواد الحطب و الخشب الخاص بأيقونات الكنيسة ومقاعدها ودككها، وكذلك كميات كبيرة من الأغصان المضفورة مع عيدان الخيْزران والكتان بعد غمرها فى الزيت، ثم أضرموا فيها النيران. قام المسيحيون بسد فتحة باب البرج بالطين والحجارة، على النحو الذى منع ألسنة اللهب من االعبور إلى الداخل، على الرغم من احتراق الجسر المتحرك؛ فإن الحرارة الناجمة عن النيران كانت شديدة للغاية، فاخترقت الحوائط، وأحدثت حالة من الجفاف الكبير والعطش بين من كان ينقصهم الماء والطعام، وقد صاحب ذلك عويل النساء وصراخ الأطفال. كان هناك بعض الرجال الجسورين ممن أرادوا الخروج لقتال الأعداء، ظنًا منهم فى استطاعتهم النفاذ من خلالهم والحصول على حريتهم؛ فعقدوا

العزم على ذلك، وتناول رئيس دير الرهبان القربان المقدس، وبدأ الجميع فى الاعتراف بخطاياهم، وتمجيد الرب، وكانوا سيمضون قدمًا فى ما انتووه لو لم تثنيهم عبرات النساء المثيرة للشفقة حتى لا يخلفوهن وراءهم دون حماية، وهو ما حمل الرجال على سلك طريق أخر - فيما يبدو أكثر أمنًا، وإن كان أقل تشريفًا - لأنهم استسلموا فى نهاية الأمر بمقتضى الاتفاق الذى عقده معهم المسلمون؛ وهو ما كان ليعد تدبيرًا حسنًا للحفاظ على الأرواح، لو احترم الثوار عديمو الوفاء والرأفة العهد الذى قطعوه على أنفسهم.

بعد أن حارب المحاصرون ألسنة النيران على مدار أربع وعشرين ساعة، كانت جذوتها ولهيبها يزيد فى كل ساعة، وكذا أعداد الرجال الذين أتوا من سائر أرجاء المقاطعة ليشهدوا ذاك القربان، بدأ المسيحيون التعساء فى التدلى من البرج بواسطة الحبال؛ لأنهم لم يقدروا على الخروج من الباب المشتعل؛ وقد استلزمت كثرة عدد المحاصرين أن يستغرق الأمر ما يربو على عشرين ساعة، نظرًا لوجود سيدات حوامل وأطفال. عندما لامست أقدامهم الأرض، كانت الهدية التى أعدّها لهم أعداء الرب أولئك أن انهالوا عليهم ضربًا بالعصى وكيلاً للكمات، ثم جردوا كل الرجال من ملابسهم، وعقدوا أيديهم وراء ظهورهم، وحبسوهم داخل الكنيسة. بعد ذلك دخلوا إلى البرج وأطفأوا النيران، ونهبوا ما عثروا عليه بالداخل؛ ولمّا كانوا مارقين وآثمين، لم يرغبوا أن يتركوا ذنبًا إلا اقترفوه، فدفعوا بعضهم بعضًا فى إجرام وتجاوز شديدين إلى انتهاك سافر للمحرمات واقتراف مشين للآثام، دونما احترام لكل ما هو إلهى أو إنسانى، لكى ييأسوا جميعًا من التماس أى صفح.

الفصل السادس عشر

يتناول قتل الثوار للمسيحيين الذين استسلموا فى برجى أوخيخار، وكيف ندم الصغير على ما اقترفه وأراد إيقاف مسيرة الثورة

طبق الثوار الملحدون الأوامر القاسية التى أصدرها فرج بن فرج، كما لو كانت سعادتهم تكمن فى ذلك، فما أن انبلج صباح اليوم التالى، حتى اجتمع الثوار الجبليون والجنود المسلمون فى مقبرة الكنيسة، وأخبروا المسيحيين أنهم سيسوقونهم للحاق بمن كانوا داخل برج ميغيل روخاس، فأخرجوهم من الكنيسة اثنين اثنين، وهم حفاةٌ، وعراةٌ، وأيديهم معقودة خلف ظهورهم، وقتلوهم فى قسوة طعنًا بالرماح والسكاكين. كان منهم من ظل على قيد الحياة؛ لأنه كانت لديهم صداقات مع رجال انحازوا إلى جانبهم فى تلك المرحلة، خاصةً الصناع المهرة من الحدادين، وصانعى النعال، والنجارين، والخياطين، وكان بينهم شقيق رئيس دير الرهبان، وفرانثيسكو خيرونيمو دى أبونتى، وخوان سانشيث دى بينيار، ورهائن آخرين غيرهم؛ وقد أمر الخائن ابن فرج بقتلهم فيما بعد. لم يستبق الصغير سوى خيرونيمو دى أبونتى وخوان سانشيث دى بينيار فى مكان آمن ليحول دون قتلهم، ظنًا منه أنهما قد ينفعانه فى يومٍ ما، نظرًا لأواصر الصداقة القوية التى كانت تربطه بهما.

عندما شاهد رئيس دير الرهبان إخراج أولئك المسيحيين، وعلم أنه سيلقى المصير ذاته، أخذ يسير بين المسيحيات لحضهن على الاستبسال، والموت من أجل عيسى المسيح، فقال لهن إن عليهن أن يثبتن على عقيدتهن الكاثوليكية المقدسة، وأن يقاومن إغراءات الشيطان، وأن يثقن فى كرم الرب، الذى سيمنحهن الحياة الأبدية. وقد أدّت

كلماته تلك وغيرها مما كان يليق بحياته ومسلكه الطاهر إلى ذرف الكثير من العبرات، حتى جاءه أحد الجنود المسلمين وكال له لكمةً فى وجهه كانت من القوة بحيث أخرجت إحدى عينيه، ثم حضر إليه جندى أخر يحمل سيفًا، فقتله، وشق صدره بخنجر، وانتزع قلبه، ورفعه عاليًا فى يده، وأخذ يصيح قائلاً: "الحمد لمحمد[١٩] الذى جعلنى أرى بين يدى قلب ذلك الكلب المسيحى".

أما الأب ليون وكبير الحجاب، فقد حبسهما فى مصلى جرن المعمودية كل من الصغير ودييغو لوبيث ابن عبو، حتى ينتقما منهما، فأبقياهما هناك حتى الساعة العاشرة، ثم قاما بقتلهما. وحتى لا نغفل أى شىء يود القارىء معرفته، سنسوق فى هذا الموضع السبب الذى دعا هذان الموريسكيان، وهما من أبرز رجالات البشرات، إلى الشعور بالحنق الشديد على رجال الشرطة فى أوخيخار[٢٠] . كان هناك أخان أتى هذا الكتاب على ذكرهما يدعيان لوبى السينيث وغونثالو السينيث، وهما من أهالى بيرتشول، وكانا من كبار الثوار الجبليين الذين ينهبون ويقطعون الطريق على الناس، وقد قتلا قبل عدة أشهر تاجرًا اسمه إينثيسو **Enciso** ومسيحيين آخرين كانوا عائدين من أحد الأسواق الموسمية، بقصد الاستيلاء على ما كان بحوزتهم من نقود. كانت بلدية المواضع التى تحدث تلك الجرائم ضمن نطاقها، ملزمةً بمقتضى قراراتٍ ملكيةٍ بتسليم المدانين أو دفع قيمة الأضرار، وكان من المنتظر إعدامهما فى مكان يقع بمنطقة حدودية، تجمع بين حدود خمس بلديات هى: كاديار، وناريلا، وبيرتشول، وميثينا دى بومبارون، وشريش **Jériz** التى تقع فى سند وادى آش. عندما علِم الحاكم العام للبشرات – وكان حينئذ الأب ليون سالف الذكر – بتلك الواقعة، بادر بمطالبة تلك

---

(١٩) من الأخطاء الشائعة عند المؤلفين الإسبان الظن أن المسلمين يعبدون محمدا صلى الله عليه وسلم (المراجع).

(٢٠) هذه من المواضع النادرة التى يورد فيها مارمول نقدًا لتصرفات السلطات المسيحية تجاه الموريسكيين. (المراجع).

البلديات الخمس بتسليم الجناة، ودفع مقابل الأضرار التى أحدثوها؛ فشرعت كل بلدية فى تفنيد الدعوى من جانبها، قائلةً إنها لم تقع داخل حدودها، وعلى الرغم من ذلك مكث المسجونان أيامًا طويلة لدى الحُجّاب ونواب مجالس البلدية، الذين أدانوهما. ارتأى الأب ليون أن تغريم كل بلدية خمسين ألف دوقية عن كل مسيحى يقتل فى نطاقها ليس عقابًا كافيًا، وأنه يتعين زيادتها لردعهم فيما بعد، فأمر أن تدفع كل بلدية ألف دوقية أخرى، وأن يتم إلقاء القبض على الحجّاب ونواب مجالس البلدية، وأن يودَعوا السجون إلى أن يتم تسليم المجرمين. وقد استأنفت البلديات ذلك الحكم فى غرناطة، وحُبِسَ الحجّاب ونواب مجالس البلدية هناك أيضًا حتى تمت دراسة القضية، حيث بدا لمأمورى الجرائم أنه من الغلطة أن يرغب الحاكم العام فى خرق القوانين، وتعديلها وفقًا لرغبته الخاصة. فقضوا بإخراجهم جميعًا بكفالة.

عندما شهد أبناء إينثيسو ما حدث، لجأوا إلى المجلس الملكى، وطالبوا بمجىء قاض محقق للنظر فى ذلك الحكم. إذ ذاك كان الأب مولينا دى موسكيرا مأمور الجرائم بمحكمة غرناطة، موجوداً فى قلهرة Calahorra بتكليفٍ من المحكمة الملكية لتولى قضية ضد ثوار جبليين آخرين قاموا بقتل أحد أبناء بدرو دياث دى مونتورو Pedro Dîaz de Montoro، وواحد من رهبان رهبانية القديس فرانثيسكو San Francisco يدعى دييغو دى بيّامايور Diego de Villamayor، وذلك فى يوم الاحتفال بعيد القديسة كاتالينا Santa Catalina من العام ذاته ١٥٦٨، فأمر المجلس الملكى بتكليفه بتلك الدعوى. من هذا المنطلق تعجل الثوار الجبليين فى القيام بالثورة، خوفًا من الوقوع بين يدى ذلك الرجل؛ الذى كان قد اعتقل ستين من رجالهم، وشنق بعضهم، عندما حاولوا إثارة البلاد آنفًا.

لنعد الآن إلى ما كنا بصدده، أدرك ابن عبو والصغير أن كل الضير والأذى الذى وقع فى حقهما كان بمقتضى العقوبة الصارمة التى قضى بها الحاكم العام لأوخيخار؛ وتذكرا أنهما إبان حبسهما كانا قد قدما إليه الكثير من الالتماسات، يطلبان فيها إطلاق سراحهما بكفالة، حتى يتسنى لهما الخروج والبحث عن الآثمين، بيد أنه لم

يرغب فى الاستجابة لمطلبهما؛ فلمّا وقع الحاكم وكبير حجّابه بين أيديهم أرادا الانتقام منه. توجه ابن عبو إلى قضبان المصلى الذى كانا حبيسين به وقال لهما: " أيها الكلبان، أتتذكران عندما أمرتمانا بإحضار الثوار الجبليين الذين قتلوا المسيحيين؟ هل ترونهم؟ إنهم هؤلاء الماثلون أمامكما، أنتما يا من جلبتما الدمار لأنفسكما. وأنت أيها القاضى السيء، خذ هذه حتى لا تحكم بالظلم مرةً أخرى! يا من حبستنا دون جرم اقترفناه، وجردتنا من ممتلكاتنا". ثم وصل إلى الحاكم العام وحطم رأسه بالبلطة، حتى خر صريعًا على الأرض؛ ثم انقض الأخرون على كبير الحجّاب، وطعنوه حتى الموت؛ ثم سحبوهما إلى خارج الكنيسة، وحملوهما إلى قاعدة البرج. فألفوا هناك شحم خنزير مُسمَّن، كان المسلمون قد ألقوه من علٍ؛ لأنه شيء كريه لا يأكلونه، فوضعوا جثتى الرجلين بين الشحوم، وأحاطوهما بكميات كبيرة من الحطب، ثم أحرقوهما.

قُتِلَ خلال ذاك اليوم فى أوخيخار مائتان وأربعون مسيحى مِن القساوسة والرهبان الخدام، وكان بينهم ستة كهنة قانونيين من تلك الكنيسة، وهى أحد الكنائس التابعة لامتيازات الكاتدرائية. عندما شاهدت السيدات المسيحيات أزواجهن وأبناءهن وآباءهن يقتلون أمام أعينهن، بَدَوْن كالمسحورات من فرط الخوف والألم، فأخذت كل واحدةٍ منهن تنظر إلى الأخرى، دون أن تستطيع إحداهن البكاء أو استشعار أى أحاسيس أخرى، كلهن ينتظرن الموت، ويتمتمن بتضرعات وأدعية خفية على السيافين القساة. بعد أن أهرقت الكثير من الدماء المسيحية، بسبب الآثام التى اقترفها الثوار، قام الخونة -العبيد الذين أمسوا أسيادًا - بتوزيع المسيحيات على البقاع الحدودية لإبقائهن بها، حتى يبت ابن أمية فى مصيرهن. ثم استكملوا سرقة وتدمير الكنيسة، بوصفهم أناسا همجيين، يسخطون على مشاعر الحب والايمان والشفقة، وهم مجردون من خشية الرب، ويتصفون بالقسوة.

أعقب حدوث ذلك أن قام السيد إيرناندو الصغير، الذى كان يدرك مع كل ساعة أن نهايته قد باتت وشيكة، بجمع كبار رجال المسلمين البارزين مرةً ثانيةً، وعاود

التضرع إليهم لكى يضعوا نهايةً لتلك الثورة، وقال لهم إن عليهم التبصر وإدراك أنهم جميعًا هالكون لا محالة؛ وإن ما قاموا به هو نتاج عمى شديد وعدم دراية بالعواقب التى ستلحق بهم من جراء فعلتهم؛ وإن السبيل الأوحد للخروج من المأزق هو الزعم بأن الثوار الجبليين هم من اقترفوا كل تلك الشرور، على كثرتها وهذه هى الحقيقة؛ وإنه من الأجدى لأهالى البشرات أن يأمر جلالة الملك فيليبى بشنق ثلاثين أو أربعين موريسكيًا - وإن كان هو أحدهم- بدلاً من تدمير الأرض، وفقد الأبناء والنساء وسائر الممتلكات. لكن كل تلك الحجج لم تلقى صدى لدى الهمجيين الحانقين، وكانت ضمائرهم محملة بالعديد من الآثام، مما دفعهم للاعتقاد بعدم وجود مجال لإدراك الرحمة؛ وهكذا أجابوه أنه إذا كان يخشى المسيحيين، فليفعل ما بدا له، فالبشرات لا ينقصها رجال يذودون عنها.

لا يبدو لى من العدل ألا أتناول فى هذا المقام طفلاً قتله المسلمون فى ذلك اليوم، وسنسرد قصته وفقًا للمعلومات التى أمر رئيس أساقفة غرناطة بجمعها حول الأمر، وكانت تحت تصرفنا، وكذلك ما رواه لنا بعض المسيحيين الذين كانوا موجودين آنذاك. كان هناك طفل بداخل كنيسة أوخيخار يبلغ من العمر عشر سنوات، يدعى غونثالو Gonzalo، وهو ابن غونثالو دى بالكاثير Gonzalo de Valcácer، أحد أهالى مايرينا. حينما أبصر الفتى أباه يساق إلى مقتله، جثا على ركبتيه أمام المذبح الأكبر، وبدأ يصلى، وهو يذرف الدمع فى رقة وحنو، ويتضرع للرب لكى يمنح كل أولئك المسيحيين القوة، حتى يموتوا فى سبيل عقيدتهم الكاثوليكية المقدسة؛ ثم نهض من صلاته فى همةٍ عاليةٍ جديرةٍ بالإشادة، وتوجه إلى حيث كانت أمه مع بقية النساء، وخاطبها: "يا والدتى وسيدتى، ليكن عطاؤك متواصلاً فى الإيمان بالمسيح عيسى، ولتموتى من أجله، كما هو الحال مع السيد أبى". بينما هو يعلى همتها وهمم باقى المسيحيات، حضر إليه اثنان من الثوار الجبليين، وأخبراه أنه إذا رغب فى اعتناق الإسلام، فسيحسنان إليه، وأنه ما عليه سوى الابتهال إلى محمد كما يفعلان هم؛ فأجابهما الصبى بأنه مسيحى، وابن لمسيحيين، ويجب أن يموت من أجل المسيح عيسى. على

الرغم من تصويبهما لقوسٍ وسهمٍ إلى صدره، وتهديدهما إياه بقتله ما لم يتضرع إلى محمد، فقد أبى القيام بذلك. حينئذ قال أحد الثوار الجبليين: "لنأخذه إلى الخارج، وليمت مع أبيه، فهو كلبٌ مثله".

عندما رأى الطفل أن النساء تبكى بسبب ما رأته من رغبة الثوار فى إخراجه وقتله، أدار وجهه ناحيتهن، وهو يقول: "أيتها السيدات، لم تذرفن دموع الشفقة؟ اعلمن أن كل المسيحيين الذين يموتون اليوم هم شهداء، يتألمون من أجل المسيح عيسى، وسوف ينعمون بميتتهم هذه". ثم التفت إلى أمه بمحيا شفيق، وقال لها: "سيدتى وأمى، سوف أموت عن طيب خاطر مع أولئك المسيحيين، ولا يحزننى سوى تركى إياكِ وحيدة، وأنا تملؤنى الثقة أن مشاهدة تلك الميتات العذبة، لن تذر من يتمنى البقاء فى هذه الدنيا". عقب تلفظه بتلك الكلمات، وغيرها من عبارات التعزية والبر، أدركه مارقون أخرون، فعقدوا يديه وراء ظهره، وأخرجوه من الكنيسة وهو يُضرَب بالسياط، ويقول: "أيها السادة، احملونى إلى حيث ألقى حتفى من أجل عيسى المسيح، لكى أنعم فى ملكوته؛ لا تحزنى يا أمى". بعد أن حمله المسلمون إلى خارج الكنيسة، عادوا لمحاولة إقناعه باعتناق الإسلام، على ألا يقتلوه؛ فلمّا أدركوا عدم جدوى مسعاهم، ساقوه إلى بلدة لوكاينينا، التى تبعد نصف فرسخ من أوخيخار؛ وطعنوه هناك حتى الموت، ثم مثّلوا بجثته وقد أكد لنا أحد المسلمين الذين كانوا حاضرين ذاك المشهد، أن الصبى لم يفتر عن مناداة المسيح عيسى حتى صعدت روحه إلى بارئها. يا له من مثال عظيم على حسن تدبيره، وانتصاره المجيد على أعدائه، الذين ظنوا أنهم سيهزمونه!

الفصل السابع عشر

يتناول ثورة لاروليس وباقى أرجاء طاعة أوخيخار.

اندلعت الثورة فى لاروليس فى يوم الجمعة ذاته، الذى يوافق عشية عيد الميلاد المجيد. استشعر المسيحيون أمرًا ما، فحشدوا نساءهم وبنيهم، ودخلوا إلى الكنيسة، وتحصنوا فى برج الناقوس. بعد ذلك حضر موريسكيو باياركال Bayárcal وباقى البقاع الحدودية إلى البلدة، وشرعوا فى سرقة منازل المسيحيين؛ ثم توجهوا إلى الكنيسة، ودلفوا إليها، ولم يواجهوا سوى مقاومةً ضعيفة؛ لأن أهلنا كانوا قد تجمعوا داخل البرج. فبادروا بتحطيم المذابح فى غضب عارم، وهشّموا المجامر والأيقونات، ونهبوا كل ما عثروا عليه بالداخل، ثم ألقوا كل المقتنيات المقدسة على الأرض وجروها جرًا. بينما انشغل بعضهم بتدنيس تلك المقدسات، أحاط آخرون بالبرج، وطالبوا المحاصرين داخله بالاستسلام، وتسليم الأسلحة، فهم كما يدركون، لن تتسنى لهم المقاومة؛ كما تعهدوا لهم ألا ينالهم أذى، مع علمهم بأنهم سوف يحرقونهم أحياءً. وقد صدق المسيحيون وعود الموريسكيين الزائفة، وأوقفوا نيران أسلحتهم. بيد أن المارقين الملحدين لم يحفظوا عهدهم، فما أن هبط أهلنا من البرج، وسلموا أسلحتهم، حتى جرّدوهم جميعًا من ثيابهم، وانهالوا عليهم ضربًا بالعصى وكيلاً للكمات، ثم ربطوا أيديهم، وأودعوهم الكنيسة، حيث أمعنوا فى إساءة معاملتهم، وحقروا من شأنهم بالسب والتقريع.

حينئذ حضر إلى هناك رفقاء فرج بن فرج من الثوار الجبليين، فدخلوا إلى الكنيسة؛ وارتدى أحدهم حلة القداس، على مرأى من القساوسة المعتقلين الموثوقى

الأيدى، ووضع قطعةً من ستارة المذبح فى يده، كأنها بَطرَشيل(*)، وقطعةً أخرى على رأسه؛ وحمل مسلم آخر الصليب مقلوباً، بحيث تكون أذرعه إلى الأسفل؛ ثم توجها إلى المسيحيين، وأخذا يحقران من شأنهم قائلين: "أيها الكلاب، أترون هذا الذى تعبدون؟ وكيف أنه لا يهب لنجدتكم فى وقت شدتكم؟" ثم بصقوا على الصليب وعلى وجوه المسيحيين. وإمعانًا فى امتهانهم وإذلالهم، أخذوا يحطمون الصلبان والتماثيل بنصال السهام وأسنة السكاكين، ثم وضعوا حطام كل هذا، وبقايا الأيقونات المهشمة فى منتصف الكنيسة، ثم أضرموا فيها النيران وأحرقوها. فى أعقاب ذلك، أخرجوا القساوسة من الكنيسة فى يوم الأتقياء(**)، وكانوا ثلاثة من الكهنة القانونيين يدعون: بارتولومى دى إيرّيرا **Bartolomé de Herrera**، وبيلتران دى لاس آبيِس **Beltrán de las Aves**، ورودريغو دى مولينا **Rodrigo de Molina**، والسادن ألونسو غارثيّا **Alonso García**، واثنين من أبنائه، وكثيرين غيرهم من الرهبان الخدام، المحتجزين فى هذا الموضع وغيره من المواضع المجاورة؛ وقبيل الإجهاز عليهم، دهنوا أقدام القساوسة بالزيت والقار، ووضعوهم فوق مجمرةٍ مشتعلة، وأخضعوهم لأقسى ألوان التعذيب. ثم ربطوهم جميعًا إلى إحدى الجرّافات حفاةً وعراة، وساقوهم إلى أحد الحقول الموجودة على الطريق المؤدية إلى بِثّينا، ثم صرعوهم على الأرض بالبنادق والأقواس، وبعدها قطّعوهم إربًا إربًا بالسيوف، وتركوا جثثهم للوحوش الضارية.

ثارت بلدة نيتشيت قبيل بزوغ نهار صبيحة أول أيام عيد القيامة، وكان المسيحيون قد تمكنوا من الاحتماء بدار الكاهن القانونى خوان دياث **Juan Díaz**، ظانين أنهم قادرون على الدفاع عن أنفسهم؛ لكن المسلمين أحاطوا بالبيت، واقتحموه، وقبضوا على كل من كان موجوداً بداخله قبل الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم. ثم

(*) أحد الزخارف المقدسة، التى تحاك بنفس عرض اللِفاع، ولكن أقصر بعض الشىء، ويثبت برباط على الذراع الأيسر فوق كم قميص الكاهن. (المترجمة) .

(**) يوم تحتفل فيه الكنيسة فى يوم الثامن والعشرين من ديسمبر من كل عام. (المترجمة).

سرقوا الكنيسة والمنازل فى غضب يضاهى ما استشعره باقى المارقين، فهم جميعًا لهم الرغبة نفسها ويعتمل فى صدورهم الحنق ذاته تجاه كل ما هو إلهى أو إنسانى .
لاحقًا توجه نفر من أهالى البلدة نفسها يسمون آل مندوثا إلى المنزل الذى يضم المسيحيين المحتجزين، فأخرجوهم من هناك، وقفلوا عائدين معهم إلى أوخيخار. كان يرافقهم خلال الطريق واحد من أولئك المارقين، فأخذ يخبرهم أنهم سيطلقون سراحهم إذا ما تحولوا إلى الإسلام، وكان هناك أحد الكهنة القانونيين كان يدعوهم لتوجيه الشكر إلى عيسى المسيح، والثبات على دينهم؛ فأوغر صدر الموريسكى تجاهه، فجرح الخائن رأس الكاهن ببلطة تقطيع الحطب، فانفلقت إلى شقين؛ ثم قتل صهره بدرو باليرا Pedro Valera؛ وبعدها استل الجميع سيوفهم، وأجهزوا على كل المسيحيين الذين كانوا فى حوزتهم على مرأى من نسائهم؛ ثم جردوهم من ثيابهم، وألقوا جثثهم فى هاوية؛ لأنهم لم يوافقوا على دفنهم.

ثار أهالى طاعة خوغار فى اليوم ذاته الذى اندلعت فيه ثورة أهالى نيتشيت؛ فاحتشد المسيحيون داخل الكنيسة، لكنهم لم يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم، فاعتقلهم الثوار لاحقًا. وقد فرّ صاحب الإجازة دييغو دى ألماثان Diego de Almazán - الكاهن القانونى للاروليس - من المكان، حيث اعتقد أن بإمكانه الاعتصام ببرج الكنيسة، فى أثناء انغماس الثوار فى السرقة؛ عندما وصل إلى أُندورون، خرج لملاقاته رجل مسلم من أصدقائه يسمى غاسبار Gaspar، واصطحبه إلى داره، وقال له ألا يكمل مسيرته لأن سائر الأراضى تموج بالثورة؛ وإنه سيخبأه لديه، ثم يوصله لاحقًا إلى بر الأمان. بعد أن أودعه فى منزله، توجه الخائن الخطير لاستدعاء أمثاله من المارقين؛ ثم جره لإخراجه من مكمنه، واستاقه موثوق اليدين إلى منزله هو فى خوغار، لكى يمنحهم النقود التى يخبئها هناك؛ وبعد أن منحهم إياها، حملوه حافيًا وعاريًا إلى رابية موجودة على مقربة من المكان، وهم يكيلون له اللكمات والصفعات، وتركوه هناك مع رجال الحراسة؛ ثم توجهوا لإحضار امرأته، وبنت أحد إخوته، اللتين كانتا لديه؛ فلمّا وصلتا إلى موضعه، أشعل الثوار نارًا ضخمة، وألقوه فيها عاريًا كيوم ولدته أمه،

وقالوا له لتمت من أجل محمد(٢١)؛ بيد أنه أجابهم فى استبسال إنه يأبى أن يموت فى غير سبيل المسيح عيسى وأمه المباركة. حينئذ أخرجوه من النيران بعد أن احترق نصفه، وأحدثوا به إصابات عديدة؛ ثم أسلموه إلى الموريسكيات، اللاتى أجهزن عليه بالسكاكين والخناجر، فى حضرة هاتين المسيحيتين، اللتين أُحضِرَتا لتنالا قسطًا أكبر من الإيلام؛ ثم قتلوا بقية المسيحيين الأسرى فى وحشية.

ثارت بلدة مايرينا فى نفس أوان ثورة خوغار. حيث سرق المسلمون الكنائس ومنازل المسيحيين، وهشموها، وقبضوا على الجميع، ثم عادوا لإطلاق سراحهم فى ذات اليوم، ما عدا الكاهن القانونى خيوريغى Geurigui، الذى حبسوه فى إحدى الغرف. حينما فطن أولئك المسيحيين إلى عدم مقدرتهم على حماية أنفسهم فى تلك البلدة، خرجوا منها يلوذون بالفرار؛ فنبّه نفر من المسلمين الذين أطلقوا سراحهم الثوار فى أُندورون، لكى يقطعوا عليهم الطريق ويعتقلوهم، وهو ما قاموا به بالفعل؛ فحملوهم أسارى إلى أوخيخار دى ألباثيتى حيث قتلوهم مع بقية من ذكرناهم. وقد كان الطفل الصغير غونثالو، الذى سردنا حكايته فى الفصل الذى يتناول ثورة أوخيخار، من تلك البلدة. لنعد الآن إلى الكاهن القانونى خيوريغى. فقد احتجزوه فى غرفة دون أن يسمحوا له بالتحدث مع أحد، ألقوا له ببعض فتات خبز الذرة، حتى يأكل كالكلاب؛ بعد أن ملّوا من إبقائه سالمًا، أخرجوه عاريًا وأوثقوا يديه خلف ظهره، وقاموا بصفعه والبصق فى وجهه؛ ثم حملوه إلى جرن البلدة لقتله، وقال له المارقون بغرض الاستهزاء: "أيها الكلب، لم لا تدعو الآن لإقامة القداس؟ وتنهى المسلمات عن تغطية وجوههن؟". ثم قيدوه إلى إحدى أشجار التين، وطعنوه بالرمح فى ضلعه الأيمن، بينما هو يتضرع إلى اسم يسوع العذب؛ ثم أطلقوا عليه سهامهم، وكان لا يزال على قيد

---

(٢١) يجب أن يتوقف المرء عند هذه الجملة التى تخالف المنطق. إذا كان المخاطب سيعتنق الإسلام، فلماذا القتل؟ هذا إذا كان الموريسكى لا يفهم أنه لا إكراه فى الدين. إن معلومات المؤلفين الإسبان الخاطئة تؤدى إلى هذا الخلط (المراجع).

الحياة؛ حتى أدركه موريسكى اسمه غابيا ميلغا ، فأجهز عليه بسيف قصير محدب، وأفرغ قنينةً من البارود فى فمه، وعلى رأسه، وفوق وجهه؛ وأشعل فيه النيران، ثم أردوه صريعًا على الأرض ببنادقهم وأقواسهم؛ ولم يوافقوا على دفن جثته، بل تركوها فى الساحة.

لم تقل الوحشية التى أظهرها أهالى بتِّينا عن مثيلاتها فى باقى الأرجاء، وكانوا قد أعلنوا الثورة عندما تنامى إلى علمهم أن أهل ميرينا قد قاموا بثورتهم. فلمّا تجمّع المسيحيون فى الكنيسة، ظنًا منهم فى إمكانية الدفاع عن أنفسهم خلال عدة أيام، بادر أعداء المسيح عيسى بنهب دورهم، ثم حاصروهم. وكانوا يرغبون فى إشعال النيران فى المعبد، وإحراقهم بداخله، فقال لهم رجلان مسلمان يدعيان فرانثيسكو دى إيرّيرا Francisco de Herrera، ودييغو دى إيرّيرا ألاندير Diego de Herrera Alhander إنه يتعين عليهم تسليم أسلحتهم والقبول بالحبس، إذا كانوا يرغبون فى تجنب الموت حرقًا. عندما أدرك القوم مدى وهن دفاعاتهم، استحسنوا الرأى الذى ينصحهم بالاستسلام. فدخل المارقون إلى الكنيسة، وحطموا الأيقونات التى تزين المذبح، والتماثيل، والصلبان، وجرن المعمودية؛ وكذلك كسروا خزانة القرابين المقدسة، وأفرغوا محتوياتها على الأرض؛ واقترفوا الكثير من الشنائع والآثام. ثم قيدوا أيدى المسيحيين، وأخرجوهم من محبسهم إلى سفح أحد المرتفعات خارج البلدة، حيث قتلوهم شر قتلة. أما عالم اللاهوت القسيس برابو، فقد علّقوه من ذراعيه فى شجرة توت أسود شديدة الانخفاض، حتى أن ركبتيه كانتا تلامسان الأرض؛ وأخذوا يصفعونه لكى يقنعوه تحت التهديد أن يتحول إلى الإسلام؛ لكنه قال لهم إنه مسيحى، ويجب أن يموت من أجل المسيح عيسى؛ فانهالت عليه الطعنات وقذفوه بالحجارة حتى قتلوه. ثم تحولوا إلى شيخٍ كبيرٍ يربو عمره على السبعين عامًا، فحملوه عاريًا، وربطوه فى جذع شجرة، وانهالوا عليه ضربًا بالسياط، وبصقوا على وجهه، ثم اتخذوه هدفًا للرماية. بعد ذلك أخرجوا الكاهن القانونى بدرو دى أوكانيا Pedro de Ocaña وسادن كنيسته، وأمطروا الكاهن برصاص بنادقهم؛ وذلك فى حضور النساء المسيحيات، حيث

أحضروهن لرؤية ذلك المشهد، ليشعروهن بمزيد من الآلام؛ فلمّا فاضت روحه، عهدوا بأمه - وكانت امرأة طاعنة فى السن - إلى النساء المسلمات ليقتلنها، وهن يقلن لها: "هيا أيتها الكلبة! امضى إلى صديقاتك لكى يمنحنك وثيقة الحرية!" فاستقبلتها النساء الموريسكيات فى سرورٍ عارم، وسقنها إلى هاوية؛ وبعد أن نتفن شعر رأسها، ولطموا وجهها، وكالوا لها العديد من اللكمات؛ طعنّها بالخناجر والسكاكين؛ وقبل أن تلفظ أنفاسها، ألقينها إلى قاع الهاوية؛ وهى مستمرة فى تمجيد الرب وأمه المباركة. كما أسقطوا شماس الكنيسة على وجهه ، وقذفوه فى هوةٍ أخرى عميقة للغاية، حتى أنه حين وصل إلى القاع كان قد تمزّق إرباً إرباً.

الفصل الثامن عشر

يتناول كيفية نشوب الثورة فى قرى أراضى أدرا، ووصفا لها.

تقع أراضى أدرا على ساحل البحر المتوسط: حيث يحدها من الغرب طاعة الساحل، ومن الشرق بيرخا، ومن الشمال أوخيخار، ومن الجنوب البحر المتوسط. ويقطع تلك الأراضى النهر الذى ذكرنا آنفًا أنه يمر إلى جوار بلدة داريّكال، ثم يعود ليصب فى البحر بالقرب من أدرا الجديدة Adra la nueva؛ وهى قلعة يكون بها عادةً معقل المشاة والفرسان بغرض تأمين ذاك الساحل. تضم هذه المنطقة أربع دوائر: أدرا القديمة وكانت تحوى قديمًا الحصن الذى اعتاد المسلمون على تسميته القصبة وسالالوبرا Salalobra، ومربلة ، وأدرا الجديدة. وتطل جميعًا على ضفة النهر، حيث توجد أراضى الرى، والغيلات، والمراعى الجيدة لتربية الماشية، وبعض الأراضى التى تنتج القمح؛ كل ما دون ذلك أراضى بور ورملية، خاصةً إذا ما اتجهنا ناحية البحر. ويكسب المواطنون قوتهم من أراضى الرى تلك، وما ينتجونه من الحرير، وصيد البحر -وهو وفير. اندلعت الثورة بين مواطنى أدرا القديمة وسالالوبرا ومربلة، حينما صعد أهالى طاعة أوخيخار والموريسكيون إلى الجبال يرافقهم نساءهم وبنيهم، لكنهم لم يلحقوا بالمسيحيين الأذى لأنهم حشدوا صفوفهم فى بلدة أدرا الجديدة. بعد عودة القائد دييغو غاسكا من أوخيخار، أراد أن يكسب أرضًا فى هذا الميدان، فتوغل إلى الداخل مع الخيول التى كانت تصاحبه؛ وعندما شهد نقص الرجال وقلة المؤن الضرورية للدفاع عن المكان إذا ما حاصره الأعداء، وقلة جدوى إمدادات الإغاثة عن طريق البر؛ لأن البشرات كانت تموج بالثورة؛ أرسل قاربًا على وجه السرعة إلى مدينة

مـالقـة، يطلب النجدة عن طـريق البـحـر من المأمـور القـضـائـى، ومـتـعـهـد توريد أسـاطيل جـلالة الملك. فـبـعث إليـه المأمـور القـضـائى بالقـائد إيرنان باثكيث دى لوايسا Hernán Vázquez de Loaisa، على رأس مـائة رجل فى السـفن الشـراعـيـة ذات السـاريتين؛ وبعث إليه الممول بالمؤونة والذخيرة التى تمكن من جمـعها على عجل لسد الحاجة الراهنة. ومع وصول فرقاطة تقل على متنها أناس من ألمريّة، تم تأمين الموقع، وتسنى لهم إنقاذ كثير من المسيـحيين هربوا إلى هناك من بيرخـا وداليّاس ومـواقع أخرى. وقد جاب دييغو غاسكا فى أرجاء تلك المقاطعة مع الرجال الذين وصلوا من مدينة مالقة، وأبلى بلاءً حسنًا فى مجابهة الثوار.

الفصل التاسع عشر

يتناول كيفية نشوب الثورة فى قرى بيرخا، ووصفا لها.

تجاور طاعة بيرخا من جهة الغرب أراضى أدرا، كما يحدها من الشرق طاعة داليّاس، ومن الجنوب البحر الأبيض المتوسط، ويحدها من الشمال كل من جبل غادور وطاعة أندرش. وهى جميعًا أراض خصبة، يزرع فيها الكثير من القمح والحبوب والشعير، وبها وفرة من العشب لتربية الأغنام. كما أن إنتاج الحرير هناك جيد للغاية، ويتمتع المواطنون بمساحات كبيرة من أراضى الرى المزروعة بأشجار الفاكهة، والتى تسقى بمياه الجداول النابعة من العيون التى تنسال من جبل غادور. وتحتوى بيرخا على أربعة عشر قرية هى: ريّو تشيكو (أو النهر الصغير) Rio Chico، وبينينار Beninar، وريغوالتى Rigualte، وبيرخا، وإنابيد Inavid، وبنى هاشم Bena Haxin، وباغو، وبِرغوالتا Virgualta، وألمينتولو Almentolo، والكبرى Alcobra، وكاستالا Castala، وكابيليّرة، وإيلَر Iler، وخيريا Jerea. وقد أكد لنا موريسكيون ومسيحيون كثر أن الخنازير لم تكن تُربى فى كاستالا، وأن تلك التى كانت تُحمَل إلى هناك، كانت تنفق فيما بعد؛ وفى بعض الأحايين كان الناس يشاهدونها تسير على أسطح المنازل، ثم تطير وتهوى على الأرض ميتة. وفى بنى هاشم لم تكن الثعالب تستطيع الإمساك بالدواجن بفمها؛ لذا كانت تُرى وهى تسير خلفها وتضربها بكفوفها؛ لأنها لا تقوى على فتح فمها لعقرها؛ وهى رواية كانت لتبدو ساذجة، لولا أن أشخاصًا جديرين بالتصديق وقساوسة ورهبان خدام قد أكدوها. لكن أحدًا لا يعرف سبب تلك الأمور، وهم يعتقدون فقط أن وراءها تعويذة كان قد ألقاها أحد الموريسكيين على المكان منذ القدم.

بيرخا هى الموضع الرئيس فى تلك الطاعة، وتقع على مسافة نصف فرسخ من شاطىء البحر؛ وبدأت فيها الثورة فى أول أيام عيد الميلاد المجيد. لجأ بعض المسيحيين هناك إلى قرية أدرا؛ بينما تحصن آخرون مع نسائهم وأطفالهم فى أبراجٍ منيعةٍ، كانوا قد شيدوها خوفًا من القراصنة الأتراك؛ ومن لم يتسن لهم القيام بهذا أو ذاك، احتشدوا داخل برج الكنيسة. أما من توجهوا إلى أدرا فقد نجوا، بينما هلك الباقون أجمعين؛ لأن الأعداء أكدوا لهم فى صدقٍ مزعوم، وكلماتٍ معسولةٍ، أنهم لن يمسوهم بأذى؛ فلمّا أمسوا فى قبضتهم، جردوهم من ملابسهم، وعاملوهم بوحشية؛ ولم يفلت سوى ثيليدرون دى إنثيسو Celedron de Enciso، وخوان مونيوث Juan Muñoz، بعد أن تدليا من برجيهما واحتميا بأدرا. بعد الظفر بالأبراج، قام أعداء المسيح، وخاصةً الثوار الجبليون والجنود المسلمون، بتكسير الكنيسة وسرقتها: فحطموا المذابح، وضربوا المجامر بأقدامهم، ووطئوا أغطية كؤوس القربان وأقمشة البفتة، وكسروا خزانة القرابين المقدسة؛ كما أخذوا تمثالاً للمسيح المصلوب، وبدأوا يجولون الكنيسة وهم يجلدونه ويصيحون كما يفعل المنادى، ثم كسّروه بأسنة السكاكين، وقذفوه فى النيران التى أُشعلت لحرق الأيقونات والصور آنفًا. بعد ذلك أسقطوا تمثالاً بالحجم الطبيعى لسيدتنا العذراء، كان موضوعًا أعلى المذبح الأكبر، فألقوه على الدرج بالأسفل، فقال المارقون فى استهزاء: "احفظى نفسك، فلا يصيبنك مكروه"، أما المسيحيات اللاتى كن هناك فقد سألهن الموريسكيون لم لا يقفن إلى جوار أم ربهن؟ وكالوا لهن المزيد من السباب، ونعتوهن بالكلبات، وهددوهن بالقتل. فى اليوم التالى، غرزوا الكثير من العيدان فى ساحة البلدة، وأخرجوا المسيحيين لإعدامهم وسط احتفال صاخب بالطبول والمزامير؛ فاصطحبوهم أربعة أربعة، وأوثقوهم إلى تلك الأعمدة، ثم صرعوهم على الأرض بالبنادق والأقواس، وهم يحقرون من شأنهم ويسخرون منهم لأنهم كانوا يمجدون المسيح عيسى وأمه المباركة، وظلوا على تلك الوتيرة حتى أجهزوا عليهم جميعًا، ولم يتركوا أى فرد يتجاوز عمره الثانية عشر.

استمر إعدام الكهنة حتى وقت الصلاة، وأعقبه إخراج القساوسة إلى الساحة، وكانوا أربعة كهنة يدعون: بدرو بينيغاس Pedro Venegas، ومارتين كاباييّرو Martín

Caballero، وفرانثيسكوخويث Francisco Juez، ولويس دى كارباخال Luis de Carvaj al.
وقد حملوا أولئك الرجال عراةً، وأيديهم معقودة خلف ظهورهم إلى موضع النساء المسيحيات، وأخذوا يصيحون ويضربوهم بالسياط حتى وصلوا إلى الأعمدة التى سيقيدون إليها؛ فلمّا ألفوهم يصلون ويمجّدون الرب، صفعوهم ولكموهم على أفواههم، وقالوا لهم ادعوا محمداً، وسوف ينجيكم خيراً من مسيحكم هذا[٢٢]، ووجهوا لهم إهانات كثيرة. عندما وصلوا إلى الأعمدة، ربطوهم إليها، وأطلقوا عليهم نيران بنادقهم، ثم أتوا بالسيوف، وقطّعوهم إرباً إرباً. كان المارقون قد استبقوا خمسة مسيحيين لدفن الموتى، وبعد أن دفنوهم أخرجوهم ليقتلوهم بدورهم؛ فلفّوا الحبال حول أعناقهم، وأسلموهم إلى الغلمان، الذين ساقوهم إلى بعض الوهاد الموجودة خارج البلدة. لا يمكننى المبالغة فى سرد وحشية أعداء المسيح أولئك، الذين لا يتورعون عن إهانة المسيحيين الموتى، وكانوا يشمئزون منهم. كان أحد أهالى تلك البلدة مسلمًا اسمه الريندیدی el Rendedi، وكان قاسياً فى ملاحقته لأهلنا فى تلك القرية، وغيرها من قرى تلك الطاعة ونحن لن نأتى على ذكر ما اقترفوه فى بقاعٍ أخرى؛ لأنهم كانوا جميعاً يسيرون على النهج ذاته. ما رويناه كان هو الأساس، وقد انقادت الغالبية للسير على نفس الخطى. دعونا نشير فقط إلى أن الجميع هجروا القرى، وصعدوا مع نسائهم وبنيهم ومنقولاتهم إلى جبل غادور، مصطحبين معهم المسيحيات الأسيرات، بعد أن أعدموا الرجال.

(٢٢) من الطبيعى أن ينتقد الموريسكى التماثيل أو عبادة الأصنام. لهذا السبب نفسه لا نصدق أنه يأمر المسيحى بأن يدعو محمداً أو المسيح عليهما الصلاة والسلام، فكلاهما من البشر. (المراجع).

الفصل العشرون

يتناول كيفية نشوب الثورة فى بقاع أندرش، ووصفا لها.

تقع طاعة أندرش بين جبلين كبيرين: وهى تتاخم طاعة أوخيخار من الغرب، بينما يحدها جبل شلير من ناحية الشمال، وكذلك الجزء الكائن أعلى سند وادى آش عند ميناء غيبيخار Guevíjar؛ وعبور ذاك الجزء لا يقل صعوبة عن اختراق رَواحة Raguaha، وهو ما يرجع إلى وعورة تلك الجبال وارتفاعها، وأيضًا كثافة الثلوج التى تغطى قممها باستمرار. أما من ناحية الجنوب فيحدها طاعة بيرخا وداليّاس، ومن الشرق طاعة لوتشار Lúchar وجزءٌ من جبل غادور. يعبر تلك الطاعة فى المنتصف نهرٌ ينحدر من جبل شلير، ويطلق علي ذاك الجزء الذى يقطع تلك الطاعة نهر أندرش. ثم يكمل النهر مسيرته باتجاه لوتشار، ويندمج مع نهرٍ آخرٍ يسيل من الجبل الذى يعلو أوهانييث Oháñez، بالقرب من راغى Rague؛ ثم يخترق أراضى مارتشينا ليصب فى البحر، بعد أن يكون قد انعطف عدة مرات، سمى خلالها نهر المريّة، لعبوره إلى جوار تلك المدينة، محملاً بمياه أنهار وعيون أخرى.

طاعة أندرش هى أفضل أراضى البشرات قاطبةً، وهذا ما تعنيه التسمية العربية، التى تعنى "عصر الحياة"[٢٣]؛ لأنها شديدة الخصوبة وصالحة لزراعة الحبوب بكل أنواعها؛ ويكثر بها الكلأ اللازم لتربية الأغنام؛ كما أن أرضها وهواءها صحيان،

(٢٣) معرفة مارمول باللغة العربية موضوع جدير بالدراسة. ها نحن نرى الآن مرة أخرى أن شرحه للألفاظ العربية لا يستند إلى أى أساس. (المراجع).

وأجواءها معتدلة. وبها وفرة من العيون ذات الماء المنعش واليسر، التى يروى بها غيلات جميلة فيها أشجار فاكهة جمالها يفوق الوصف ومذاقها لذيذ؛ كما أن إنتاجها من الحرير غزير وعالى الجودة. وتضم خمسة عشر قرية تدعى: داياركال، والكوديا Alcudia، وباتيرنا Paterna، وحارات Harat، والوزير Alguacil، وإنييثا I?iza، وحارة البلوط Harat Albolot، وحارة ابن موسى Harat Aben Muza، وغواروس، والكولابا Alcolava، ولاوخار الحكان Lauxar al Hican، وكودبا Codbaa، وحورينيكة Horinica، وبنى آيل Beni Ail، والفوندون el Fondon. وكودبا هى الوحيدة من بينها التى يطلق عليها مدينة؛ أما لاوخار الحكان فكانت تحوى قديمًا حصنًا كبيرًا فى موقعٍ حصينٍ، بجوار الطريق المؤدية صعودًا إلى ميناء غيبيخار، وهو الآن مهدم.

كانت بلدتا إنيثا وغواروس أول من بادر بالثورة فى تلك الطاعة، وذلك فى مساء يوم الجمعة، الذى يوافق عشية أعياد الميلاد. وكان أول ما قام به الثوار هو التوجه إلى منزل الكاهن القانونى، واسمه بييدما Biedma؛ عندما لم يعثروا عليه؛ لأنه ما أن سمع بالجلبة الدائرة حتى اختبأ فى بيت أحد أصدقائه من الجيران - نهبوا داره. ثم أمّوا الكنيسة، فحطموها وسرقوها دونما توقير لأى شىء مقدس. ونظرًا لرغبتهم فى الانتقام من كاهن عيسى المسيح، قصدوا البيت الذى كان به، فكسّروا الأبواب، وأخرجوا الكاهن إلى الشارع حافيًا وعاريًا، وأوثقوا يديه خلف ظهره، وأساءوا معاملته بشتى الصور؛ ثم أحضروه أمام الثوار الجبليين ونواب مجلس البلدية فى هاتين البلدتين، فقال له اثنان منهم يدعيان بينيتو دى أبلا Benito de Abla ودييغو دى أبلا Diego de Abla إنه لو شاء أن يتحول إلى الإسلام فسوف يتركانه على قيد الحياة. حينما أجابهما أن إسداء ذاك النصح السىء لن يجدى معه، فهو كاهن مسيحى يتبع عيسى المسيح، ويجب عليه أن يموت فى سبيل عقيدته الكاثوليكية المقدسة؛ حينئذ أجلساه على الأرض فى مواجهتهما، وأمرا الغلمان المسلمين أن يتخذوه هدفًا للرماية؛ وبعد أن رموه بالسهام، أوسعوه طعنًا بالسكاكين والرماح، ثم لفّوا حبلاً حول عنقه، وأسلموه إلى الصبية الذين جروه وصولاً إلى هاوية خارج المكان.

ثار موريسكيو الكوديا وباتيرنا فى أول أيام عيد الميلاد؛ فلمّا فطن المسيحيون المقيمون هناك إلى الصخب الذى يحدثونه ورغبتهم فى الثورة، اصطحبوا معهم نساءهم وبنيهم، وتوجهوا إلى برج الكنيسة، وكان منيعًا. حين أدرك المسلمون أنهم لن يتسنى لهم النيل منهم، أكدوا لهم بأقوالهم أن عليهم العودة إلى ديارهم؛ لأن أهالى البلدة لا يريدون الثورة؛ وأنهم هم سيدافعون عنهم إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك. وقد وثق القوم فى كلامهم الزائف، وغادروا البرج؛ عندها لم يشأ الموريسكيون أن يظهروا كمن لا يفى بالوعود، أرسلوا فى طلب الثوار الجبليين من خارج البلدة، بعد أن شهدوا عودة المسيحيين إلى منازلهم؛ فقبضوا عليهم وسرقوا ما كان بحوزتهم؛ ثم دلف أولئك وهؤلاء إلى الكنيسة فى غضبٍ عارم، حيث نهبوا وسرقوا وهشموا كل ما هو مقدس.

اختبأ الكاهن أركوس Arcos فى بيت صديق له من المسلمين يسمى أغوستين العجوز Agustín el viejo؛ فقابل تلك الصداقة بتسليمه إلى أعدائه، الذين حملوه عاريًا وحافيًا إلى الكنيسة، حيث بقية الأسرى الذين احتجزوهم، ثم أخرجوهم بعد ذلك لقتلهم. كان أول من أخرجوه الكاهن القانونى، ورجلاً واسع الثراء يدعى دييغو لوبيث دى لوغو Diego López de Lugo، وكان سيدًا على معظم بقاع البلدة. فجردوهما من ثيابهما، وأخذوا يكيلون لهما اللكمات والصفعات لأنهما كانا يمجدان الرب وأمه المباركة؛ وحملوهما إلى مكان الصليب الموضوع على الطريق المؤدية إلى إنييّثا، حيث قيدوهما من أسفل، وأطلقوا عليهما سهامهم، وبعدها أخذوا يطعنونهما بالسيوف والسكاكين، حتى أجهزوا عليهما؛ ثم قضوا على كل المسيحيين الآخرين الأسارى لديهم؛ تمكن بعضهم من الهرب عبر الجبال قبل أن يقبضوا عليهم، وقد نجا هؤلاء. كان من لاحق المسيحيين فى هذا الموضع أربعة موريسكيين يسمون: غاسبار روخو Gaspar Rojo، وإيرناندو دى مالقة Hernando de Málaga، وبدرو دى إسكوبار Pedro de Escobar، وبيرناندينو دى إسكوبار Bernandino de Escobar.

كودبا، كما ذكرنا من قبل، كان يطلق عليها مدينـة؛ لأنه كان يقيم بها الملك أبو عبد الله الزغيبى، الذى سلَّم غرناطة. هناك ثلاثة مواضع متجاورة، حتى إنها تبدو وكأنها أحياء: كودبا، ولاوخار الحِكان، والفوندون؛ وقد احتشد سائر المسيحيين القاطنين بها وبغيرها من الأماكن القريبة فى كنيسة كودبا، حينما استشعروا ثورة المواضع الأخرى. وكانوا يرغبون فى الذهاب للاحتماء بمدينة ألمريّة، حيث بدا لهم أنهم غير آمنين هناك؛ فأشار عليهم أحد نواب البلدية الموريسكيين اسمه بدرو لوبيث بن حَدَمى Pedro L?pez Aben Hadami، وكان من أكثر رجال الطاعة ثراءً وسطوةً، بعدم المغادرة حتى يتضح ما سيؤول إليه الأمر. واصطحب الكاهن القانونى خوان لورينثو Juan Lorenzo إلى منزله، هو وأحد أبنائه وأسرة ذلك الابن بأسرها، وباتوا لديه يوم الاثنين مترفين منعمين. فى اليوم التالى، وكان الثلاثاء الموافق الثامن والعشرين من ديسمبر، دخل البلدة الكثير من مسلمى الكوليا Alcolea وغيرها من البقاع، ومعهم الثوار الجبليون الذين كانوا يشيعون الثورة فى البلاد. آنذاك تراءى لابن حَدَمى إن المسيحيين المقيمين لديه لم يعودوا آمنين؛ ولابد أنه إلى ذاك الوقت كانت لديه رغبة فى إنقاذ أرواحهم؛ لأنه أودعهم غرفةً صغيرةً إلى جوار الحظيرة، وألقى بعض حزمات من عيدان حطب الذرة على بابها، ثم انطلق باتجاه الميدان ليستطلع الأحوال. فألفى أعداداً كبيرة من المسلمين من أهالى البلدة والغرباء يسيرون رافعين الرايات، ويقومون بسرقة بيوت المسيحيين؛ وقد قصوا عليه كيف أن المملكة بأسرها تموج بالثورة، وأن غرناطة وحصونها باتت فى قبضة المسلمين. هنالك أدرك أن الأمر لابد صحيح، فاقتحم معهم الكنيسة، وأمر بإلقاء القبض على كل من فيها من المسيحيين القساوسة والرهبان الخدام؛ ثم حطموا الأيقونات التى تزين المذبح، والصلبان، وكسّروا خزانة القرابين المقدسة، وأشعلوا النار فى كل شىء حتى أحرقوها.

أعقب ذلك بفترة وجيزة مجىء إيرناندو الغورّى Hernando el Gorri، وكان القائد الرئيسى لتلك الزمرة وأحد أهالى لاوخار؛ فأمر هو، وألونسو بن الصيغى Alonso Aben Cigue، وبدرو لوبيث ابن حَدَمى عينه بإعدام كل المسيحيين الأسرى، كما حدث

فى المواضع الأخرى. فاحتشدت جموع غفيرة من الناس فى الميدان، وأخذوا يدقون الطبول الصغيرة، ويعزفون المزامير، وينشدون الأغانى احتفاء بيومهم المنشود الذى يشهدون؛ فكان أول من أخرجوا دييغو أورتيث Diego Ortiz، وأخاه خوان أورتيث Juan Ortiz، فحملوهما أمام الغورّى عاريين، فأمر برميهما بالسهام، وفعل الشىء ذاته مع كل الباقين. فأخذوهم من هناك إلى طريق على مشارف الفوندون، ورموهم بالبنادق والأقواس، ثم أجهزوا عليهم بالسيوف والسيوف القصيرة المحدبة. وهكذوا قضوا على مسيحيى المواضع الثلاثة برمتهم، وعلى مسيحيى غيثيخا Guécija، البلدة الموجودة فى سند وادى آش، وكانوا قد حملوهم آنفًا إلى كودبا.

لم يسلم آنذاك من القتل سوى ضيوف ابن حَدَمى؛ بيد أنه بعد مرور خمسة عشر يومًا، إما أنه ضاق ذرعًا بإخفائهم طيلة تلك الفترة، أو أنه خاف من ابن فرج - كبير وزراء ابن أمية - الذى كان قد وصل إلى أراضى أندرش. حيث أمر ذاك الأخير بإعدام كل من يُبقِى على حياة رجل مسيحى؛ فأبلغ عنهم أمامه، فما كان منه إلا أن أرسل الحسينى el Hoceni ورجالاً آخرين من رفاقه فى طلبهم؛ فحملوا إليه خوان لورينثو، وأجبروه على التجرد من ثيابه، ثم قيدوا يديه وقدميه، وأمر الغورّى بوقوفه على ركبتيه فوق مجمرة نيران مصطلية فى منزل لانخى Lanxi، وهكذا أحرقوه من ركبتيه إلى أسفل قدميه. عندما أخذ ينادى على المسيح عيسى وأمه المباركة ويمجدهما، دس الملحد الخائن نعل حذاء فلاحى متسخ من الخيش والحلفاء فى فم المسيحى، وشرع يكيل له اللطمات والضربات على رأسه، ويستهزىء به قائلاً: "فلتتل صلاتك الآن أيها الكلب! سوف يلقى رئيس الأساقفة والرئيس ذات المصير، وسنبعث برأسيهما إلى بلاد المغرب!" . ورغبةً فى إخضاعه للمزيد من التعذيب، أحضروا أمامه فتاتين من بناته لتشهدا مقتله، فأهانوهما فى حضرته، وأساءوا معاملتهما، وسألوهما ليحقروا من شأنهما إن كانتا تعرفان ذلك الرجل الذى يتدفأ بحرارة النيران؟ بعد أن استبقوه على تلك الهيئة لفترة لا بأس بها، جرّوه بحبل إلى خارج المكان، وأسلموه للنساء المسلمات عند إحدى الروابى، لكى يتسنى لهن أيضًا الانتقام منه، فاستخرجن عينيه بالسكاكين،

وقضين عليه رجمًا بالحجارة. ثم توجهوا لإحضار أخيه، وقطعوه إربًا إربًا إلى جوار شقيقه، وأجبره أحد المارقين على فتح فمه قبل أن يلفظ أنفاسه، وصبَّ فيه كمية كبيرة من البارود، وأضرم فيه النيران. كما أعدموا سادن الكنيسة فرانثيسكو دى ميدينا Francisco de Medina، حيث أسلموه إلى الغلمان الذين رجموه بالحجارة؛ لأنه كان يعلّمهم مبادىء العقيدة المسيحية. وكذلك فقد مثّلوا بلويس مونتيسينو دى سوليس Luis Montesino de Sol?s فى وحشيةٍ بالغةٍ، كما سيرد لاحقًا فى الفصل الذى يتناول غيثيخا. أما دييغو بيلتران Diego Beltrán، الغلام البالغ من العمر أربع عشرة سنةً، فقد عذّبه مارقان اسمهما الحسينى والقيصرانى el Caicerani، وحينما كانا يقيدانه لنقله إلى مكان موته، سأل أمه إلى أين يأخذانه؟ فأجابته فى استبسال: " أى بنى! إنهما يأخذانك للشهادة! لتمت فى سبيل عيسى المسيح. يا لك من محظوظ! سوف تلقاه وتستمتع بملكوته عما قريب؛ فلتمجده، ولا تخش الموت من أجل ذلك الرب الكريم!" وكان هذا ما فعل الفتى، الذى قتله السيافون طعنًا بالسكاكين.

الفصل الحادى والعشرون

يتناول كيفية نشوب الثورة فى قرى طاعة دالياس، ووصفا لها.

تقع طاعة داليّاس على ساحل البحر المتوسط: وتجاورها طاعة بيرخا من جهة الغرب، وأراضى ألمريّة من الشرق، ومن الجنوب البحر المتوسط، كما يحدها من الشمال جزء من جبل غادور موجود بينها وبين طاعة أندرش؛ ويعد كذلك جزءًا من ألمريّة. تلك الطاعة موجودة بالكامل على أراض سهلية، وهى تحتوى على مراعى ذات جمال أخاذ ترتع فيها الأغنام خلال فصل الشتاء. كما تُحصَد فيها كميات ضخمة من الحبوب والدقيق والشعير، وبها مساحات كبيرة من الغيلات، وكذلك فإن تربية الحرير فيها جيدة. تضم ستة قرى هى: أسوبروس Asubros، وأودبا Odba، وثيليتا Celita، والشيطان Elchitan، والميثيت Almecet، وداليّاس؛ وهى أبرزها، وتوجد بها ما يُسمى حقول دالياس، التى تشتهر بوفرة الأغنام التى تربى فيها.

روى لنا بعض الموريسكيين[٢٤]، وبعض المسيحيين، أن المسلم الذى أسلفنا ذكره، ويدعى الرِيندِيدى، توجه فى اليوم عينه الذى ثار فيه أهالى بيرخا إلى داليّاس؛ وعندما ألفى الأهالى برمتهم لدى باب الكنيسة، يستعدون للدخول لحضور القداس، جاء بصحبة العديد من الرجال المسلحين، حاملين أربع رايات، وتمركز على مرأى من المكان، عند جبل صغير يقع أسفل جبل غادور من ناحية الشرق؛ فى التوقيت نفسه

(٢٤) يبدو مارمول فى الكتاب إما شاهد عيان وإما كمن يستقى أخباره من مصادر مباشرة. (المراجع).

ظهرت أربعة ألوية أخرى على إحدى قمم الجبيل ذاته باتجاه الغرب؛ فدار اللغط والمرج بين الأهالى بسبب ذلك؛ واجتمع نواب مجلس البلدية، وكانوا جميعًا من الموريسكيين، وخرجوا فى نفر من الناس ليعلموا شأن تلك الرايات. فهبط الرِيندِيدى لملاقاتهم على رأس خمسين من الرماة، وطلب منهم القيام بالثورة؛ لأن سائر بقاع البشرات بدأت فى ثورتها؛ فأجابوه بأنهم لا يرغبون فى إثارة القلاقل فى تلك الآونة. عندها اشتعل المسلم غيظًا، ورد عليهم بأنه لم يأت إلا لذلك، ولا بد من اندلاع الثورة رغمًا عنهم؛ ثم اقتحم الموقع برفقة رجاله جميعًا، وأمر أن يُذاع فى شتى الأنحاء أنه يتعين على كل المواطنين الخروج إلى الساحة وبحوزتهم ما يملكون من أسلحة.

عندما لم يخرج نفر من الرجال الموسرين فى عجالة، أصدر أوامره بقتلهم وسلب منازلهم، قائلاً إنهم مسيحيون أعداء لمحمد. فى أعقاب ذلك تدافع الثوار فى زخم شديد صوب الكنيسة، فاقتحموها، ونهبوها وسرقوها، وحطموا الأيقونات والتماثيل التى كانت تزين المذابح، وهدموا جرن المعمودية، وخرّبوا كل ما هو مقدس، ثم أشعلوا فيه النار. عندما نهرتهم واحدة من السيدات الموريسكيات البارزات فى تلك الطاعة عما يقترفون من آثامٍ و انتهاكٍ للمحرمات، ونزعت من الغلمان صفحات كتاب القداس التى كانوا يمزقونها، قطع أحد أولئك المارقين رأسها. أُسِر بعض المسيحيين وقُتِلوا فى ديارهم ذاتها، سواءً كانوا من القساوسة أو من الرهبان الخدام؛ وكان الكثيرون غيرهم قد أسعفهم الوقت للتوجه إلى أدرا. فيما بعد قتلوا كلاً من الكاهن الكاهن القانونى أنطونيو دى كويباس Antonio de Cuevas، والمعلِّم غارابيتو Garavito فى منزليهما. احتمى أحد أشقاء المعلِّم غارابيتو بالحصن القديم الكائن فى داليّاس العليا، وكان بصحبته بعض المسيحيين من تلك القرية وغيرها من قرى الطاعة ودافعوا عن أنفسهم هناك طيلة ثلاثة أيام؛ بيد أن أعداء الرب جمعوا كميات كبيرة من الحطب، وأغصان قصب السكر والكتان، وأشعلوا النار فى الحصن. عندما ألفى القوم أنفسهم دون دفاعاتٍ أو أمل فى أن يجيرهم أحد، وأنهم يحترقون أحياءً، طلبوا الاستسلام وعقد هدنة؛ لكن الخونة سخروا منهم، وكانوا يريدون القضاء عليهم بأيديهم المجردة.

فأخبروهم أن يلقوا بأنفسهم من البرج إلى الأسفل، وهم سيتلقفونهم بين أيديهم؛ لأنهم لا يستطيعون استخدام السلم، فما كان من المسيحيين إلا أن ألقوا بأنفسهم من علٍ - رجالاً ونساءً - ليفروا من النيران التى كانت تحاصرهم من جميع الاتجاهات. منهم من كسرت ساقه، ومنهم من شجت رأسه وأغشى عليه من جراء الارتطام بالأرض؛ لأن البرج كان شاهق الارتفاع؛ فكانت السلوى التى وجدوها هى سكاكين السيافين غلاظ القلوب، الذين أجهزوا عليهم. وهكذا قتلوهم جميعًا، ولم يستبقوا سوى أعداد ضئيلة للغاية من النسوة والأطفال أخذوهم أسارى، وقد قاموا بنفس المعاملة القاسية والوحشية مع أهالى بقية الأرجاء التى ثارت فى الآونة نفسها. سوف نروى الآن كيفية دخول ابن أمية إلى البشرات، وما أصدره فيها من قرارات؛ على أن نعود لاحقًا لسرد كيفية اندلاع الثورة فى سائر أرجاء الطاعات الأخرى.

الفصل الثانى والعشرون

يتناول دخول محمد بن أمية إلى البشرات عقب تنصيبه ملكًا فى بيثنار، وما أمر به هناك.

عقب مغادرة ابن فرج لبيثنار، تبعه ابن أمية، الذى كان يرافقه مسلمون كثيرون خوفًا من أن ينصب ذاك الأول نفسه ملكًا على البشرات. عندما وصل ابن أمية إلى لانخارون، وجد أنه قد تم إحرق الكنيسة، وقتل بعض المسيحيين كانوا بداخلها. فانتقل منها إلى أورخيبا، فألفى المحاصرون بها داخل البرج يدافعون عن أنفسهم، فعرض عليهم الاستسلام والهدنة، لكنهم لم يلقوا له بالاً؛ فقسّم رجاله إلى قسمين: ترك أحدهما لمحاصرتهم، وكان يصحبهم النجار الكورثينى دى أوخيخار el Corceni de Ugîjar ودالاى Dalay، أما القسم الآخر فقد اصطحبهم معه إلى بوكيّرة وفيريرّة. وقد وصل إلى بيته فى بالور فى يوم عيد الأتقياء، وفى اليوم التاسع والعشرين من ديسمبر دخل إلى أوخيخار دى ألباثيتى، رغبة منه – وفقًا لأقواله لاحقًا – فى إنقاذ حياة رئيس دير الرهبان، وكان من أعز أصدقائه، وأصدقاء آخرين؛ فلمّا وصل هناك كانوا قد ماتوا. قام بتوزيع الأسلحة التى تم الاستيلاء عليها من المسيحيين بين المسلمين؛ ثم توجه فى نفس اليوم إلى أندرش، حيث حمل أهل البشرات على تأكيد اختيارهم له. عقب تجديد البيعة له، منح الامتيازات والصلاحيات لأبرز رجال المسلمين فى المناطق المختلفة، وأعز أصدقائه، لكى يتيح لهم أن يتابعوا بمقتضى سلطته سير الأمور، على النحو الذى يتماشى مع الدولة الجديدة والذات الملكية، على الرغم من بطلانها وانعدام أساسها. فأمرهم أن يولوا عنايتهم للمحافظة على الأراضى على وجه الخصوص، بأن

يضعوا قوات على مداخل البشرات؛ وأن يعمموا الثورة فى شتى بقاع المملكة؛ ومن لا يرغبون فى الثورة عليهم بقتلهم، ومصادرة ممتلكاتهم لصالح خزانته.

بعد تقسيمه للمهام، عاد إلى أوخيخار، بعد أن نصّب ابن الصيغى -أحد رجال ذوى النفوذ فى تلك الطاعة- قائدًا على أندرش. وهناك أوكل صلاحياته ونفوذه إلى حميه ميغيل دى روخاس Miguel de Rojas، وعيّنه وزيرًا للخزانة؛ فهو رجلٌ بارزٌ من سلالة موهايواخى Mohayguajes أو آل كريم Carimes - الوزراء السالفين لتلك الطاعة إبان حكم المسلمين- كما أنه كان مدينًا له بنقود. وكان مسلمو البشرات يوقرونه لثرائه ونسبه؛ أما هو فلم يكن أقل حنقًا على رجال القضاء والشرطة من ابن أمية: فقد ألقوا القبض عليه لمدة طويلة على خلفية جرائم الثوار الجبليين؛ إضافةً إلى ذلك فقد منعوه من جلب أسلحة، على الرغم من امتلاكه لرخصة تبيح له ذلك؛ كما أنهم لم يدعوه يستكمل إنشاء برج قوى كان يبنيه فى داره، بل إنهم أرادوا هدمه. وأخيرًا فقد أنهى ابن أمية كل تلك الإجراءات سالفة الذكر فى يومٍ واحد، وتوجه فى الليلة ذاتها ليبيت فى كاديار، حيث منح امتيازات القائد العام إلى عمه السيد إيرناندو الصغير؛ ثم ترك رجالاً لتزيين مدخل فيريّرة وبوكيّرة، حيث كان ينوى الإقامة. بقدوم يوم الثلاثين من ديسمبر كان قد عاد أدراجه إلى وادى ليكرين، تحسبًا لإمكانية التصدى لماركيز مونديخار، والدفاع عن مدخل البشرات من تلك الناحية، إذا دعت الحاجة لذلك؛ ورسّم ميغيل دى غرانادا شابا - أحد مواطنى فيريّرة - قائدًا عامًا على تلك الجبهة.

الفصل الثالث والعشرون

يتناول كيفية نشوب الثورة فى قرى طاعة لوتشار، ووصفا لها.

يجاور طاعة لوتشار من جهة الغرب طاعة أندرش، ومن الشمال جبل شلير، ومن الجنوب جبل غادور، ومن الشرق طاعة مارتشينا. وتحوى سبع عشرة قرية هى: بيّريس Béyres، وألمواثاثا Almozata، وموتورا Mutura، وبوغايرارا Bogairara، ومولَيّرة Muleira، ونِيلّيس دى لوتشار Nieles de Lúchar، والكولا Alcola، وبادوليس Padules، وبولينيبار Bolinebar، وكانخايار Canjáyar، وأوهانييث ، وكومانوتولو Cumanotolo، وكابيليّرا دى لوتشار Capeleira de Lúchar، وباغو Pago، وخولينا Ju-lina، وغيبيديكى Guibidique، وبنى حبير Benihíber، ورووتشيس Rooches. تلك الطاعة أرضها خصبة نظراً لمرور نهر أندرش بها، وأيضاً النهر الذى يهبط من جبل أوهانييث، ليجتمع مساره مع النهر الآخر بالقرب من راغى، الكائنة بطاعة مارتشينا. وتتوافر فى جميع أنحائها مراعى للأغنام جيدة جداً، وفيها الكثير من الغيلات، وأشجار الفاكهة، وشجر التوت الأسود اللازم لإنتاج الحرير. كما يوجد فى بوغايرارا مصنع للحديد، يُشكّل فيه الحديد المستخرج من أحد المناجم الموجودة بالقرب من البلدة.

ثارت تلك المواضع ثالث أيام عيد الميلاد. لمّا كان المسيحيون القاطنون بها غافلين عما يدور حولهم، اعتقلهم الثوار جميعًا، وسرقوا منازلهم؛ كما نهبوا الكنائس، وحطموا المذابح، وكسّروا الأيقونات والصلبان والنواقيس، ولم يدعوا حرمةً إلا انتهكوها.

أما كانخايار، وهى البلدة الرئيسة فى تلك الطاعة، فقد أذاع فيها الملحدون قرار ابن فرج فى سرور بالغٍ على أنغام الآلات الموسيقية، وقد جاء فيه أن كل من يبقى على حياة أى مسيحى يتجاوز عمره عشر سنوات يعرض حياته للخطر. من أجل إحياء ذاك الحفل، ذبحوا طفلاً مسيحيًا يبلغ من العمر تسعة أعوام، يدعى إيرنانديكو Hernandico؛ فقطعوا رأسه وجعلوه فى محل الجزارة، فى سلة صغيرة كان الجزار يحتفظ داخلها بنقود اللحم الذى يبيعه إلى المسيحيين؛ ووضعوا الجسد المذبوح على الجذع المستخدم لتقطيع اللحم؛ ثم غلّفوا جلده بالكتان، وأحرقوه. بعد أن انتهوا من ذاك الفعل غير الإنسانى مع طفل برىء، جردوا كلاً من فرانثيسكو دى لا تورّى Francisco de la Torre وخيرونيمو دى سان بدرو J - Jerónimo de San Pedro وهما من أهالى غرناطة – من ثيابهما، وحلقوا لحيتيهما، وكذلك هشّموا أسنانهما وأنيابهما بقبضاتهم، كما قطعوا أذنيهما وأنفهما من أجل متعتهم الخاصة، ونزعا عيونهما ولسانيهما؛ ثم انهالوا عليهما طعنًا بالسكاكين والسيوف؛ لأنهم لم يطيقوا مشاهدة الرجلين يمجدان المسيح عيسى وأمه المباركة. هذا ولم يكتفوا بذلك، فبعد أن قتلوهما، شقوهما بالسيوف، وأخرجوا قلبيهما، وقام أحد المسلمين بأكل قلب فرانثيسكو دى لا تورّى نيئًا(٢٥).

فى أعقاب ذلك جرّدوا كلاً من الكاهن القانونى ماركوس دى سوتو Marcos de Soto، وسادن كنيسته فرانثيسكو نونيث Francisco Núñez من ملابسهما، وحملوهما إلى الكنيسة؛ ثم أجلسوا الكاهن على أحد الكراسى فى الموضع الذى اعتاد أن يشغله

---

(٢٥) الحديث عن ذبح طفل ليس جديدًا فى كتابات مسيحيى إسبانيا خلال القرن السادس عشر؛ لدرجة أنهم يزعمون أن المسلمين يحتفلون بعيد الأضحى بذبح طفل مسيحى (انظر كتاب "حياة الموريسكيين الدينية" لبدرو لونغاس ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المركز القومى للترجمة، القاهرة). ويخطر ببالنا أن ذكر هذه الفظائع الموصوفة فى الفقرة والتأكيد على أن المسيحى لم يتخل عن دينه له هدف محدد: كان بوسع الموريسكى أن يتمسك بالإسلام رغم التعذيب، وإذا كان لم يفعل فلأنه غير مقتنع بالإسلام، ودخل المسيحية بإرادته وهنا يخضع لسلطة محاكم التفتيش. (المراجع).

أثناء الوعظ، ووضعوا إلى جواره شماس الكنيسة، حاملاً بين يديه سجل أسماء مواطنى البلدة؛ ثم قرعوا ناقوسًا حتى يحضر كل الأهالى إلى الكنيسة. عندما امتلأت الكنيسة بالحضور، أمروا السادن أن يقرأ من السجل، كما اعتاد أن يفعل للتثبت من عدم تخلف أحد؛ فبدأ الرجل فى مناداة الأسماء؛ وباتوا يخرجون على الترتيب - رجالاً ونساءً- حتى يصلوا إلى موضع الكاهن، فيصفعوه ويلكموه على رأسه، كما قام بعضهم بنتف حاجبيه و بعد أن مر عليه الجميع - صغارًا وكبارًا - اقترب منه سيافان بسكينيهما، وشرعا يقطعانه إلى أشلاءٍ مفصلاً بمفصل، بدءًا من أصابع قدميه ويديه. حينما بادر قسيس المسيح عيسى بالتضرع إلى اسمه الأقدس وتمجيده، استخلصا عينيه وأعطياهما للحاضرين لأكلهما(٢٦)، ثم قطعا لسانه. فلمّا فاضت روحه إلى بارئها، شقا جسده، وأخرجا قلبه وأمعائه، وألقياها إلى الكلاب لتأكلها. وأيضًا لم يكتفيا بذلك، فسحبا الجسد، بعد أن ربطا حبلاً إلى رقبته، ووضعاه أسفل شجرة زيتون؛ ثم أوثقا إليه السادن، وأسقطاهما أرضًا بأقواسهما، وبعد ذلك أشعلا نارًا ضخمةً وأحرقاهم فيها. وقد أعدموا بنفس الوحشية أربعة وعشرين شخصًا من الرجال والنساء؛ لأنهم لم يرحموا حتى النسوة، وكان من بينهم بعض من أُسِروا فى بولودوى.

(٢٦) يصعب على المرء أن يصدق كل هذا القدر من البشاعة، ونرى أن المؤلف أراد بذلك تبرير ما فعله الكاثوليك بالمسلمين فى سجون محاكم التفتيش، وما سيفعلونه خلال إخماد الثورة. (المراجع).

الفصل الرابع والعشرون

يتناول كيفية نشوب الثورة فى قرى طاعة مارتشينا، ووصفا لها.

يجاور طاعة مارتشينا من جهة الغرب طاعة لوتشار، ويحدها من الشمال جبل شلير، ومن الشرق أراضى ألمريّة ، ومن الجنوب جبل غادور. وبها اثنا عشر موضعًا هى: راغى، وإنستنثِيون Instinción، وراغول Ragol، والحابية Alhabia، وغيثيخا، وأليكوم Alicum، وسورخينا Surgena، والحامة لا سيكا Alhama la Seca، وغادور حرّ Gádor Hor، وتيِركى Terque، وابن طارق Abentarique، وإيلار Ílar، والسدس el Soduz، وسانتا كروث Santa Cruz، والحصان el Hizan . تلك الأراضى ليست خصبة أو عامرة بالغيلات كسابقتها، وخاصةً أشجار التوت الأسود. ويربى فيها الكثير من رؤوس الأغنام، ويقطعها فى المنتصف النهر الذى كنا قد ذكرنا أنه يعبر طاعة لوتشار، ويُطلَق عليه - منذ دخوله مارتشينا إلى أن يصب فى البحر - نهر ألمرّية. ثارت تلك المواضع بالتزامن مع ثورة بقاع لوتشار، فقام الثوار بسلب المعابد ودور المسيحيين وتخريبها، واستباحوا الحرمات ودنسوا المقدسات؛ وكان ذلك فى غيثيخا على وجه الخصوص، وهى القرية الرئيسية فى تلك الطاعة؛ ولن نتناول سواها فى هذا الفصل، لتجنّب الإطناب.

وصلت إلى غيثيخا فى ثانى أيام أعياد الميلاد رسالةٌ من السيد غارثيا دى بيّارّويل، وهو - كما أسلفنا الذكر - قائد القوات المحاربة فى مدينة ألمريّة(*)، موجهةً

(*) انظر الفصل الرابع عشر، صفحة ٧٢. (المترجمة).

إلى الأب خيباخا Gibaja، الحاكم العام لتلك الطاعة، التى تتبع دوق ماكيدا Maqueda. وقد أرسل يطالبه فى إلحاحٍ شديدٍ أن يجمع كل المسيحيين الموجودين فى تلك البقاع، ويتوجه للاحتماء بالمرية قبل أن يقتلهم المسلمين؛ حيث وصلت إليه أنباءٌ مؤكدةٌ - عن طريق خطاباتٍ جاءته من الساحل - أن المملكة بصدد القيام بالثورة؛ أما هو فلا يتوفر لديه رجال يكفون لإغاثته. فما كان من الأب، الذى اعتقد أن الأمر بسيط، إلا أن يجيبه بأنه لن يهجر أولئك الرعايا؛ وأنه يفضل الحياة أو الموت معهم، على أن يفقد فى يومٍ واحدٍ ما أنجزه على مدار ستين عامًا. ثم أمر أن يأوى المسيحيون جميعًا، برفقة نسائهم وبنيهم، إلى برجٍ حصينٍ فى المكان، يوجد إلى الخلف قليلاً من الزاوية الكاهن بها دير قساوسة القديس أغوستين؛ وأن يأخذوا بحوزتهم كل ما يتسنى لهم حمله من المياه والمؤونة، تحسبًا إذا ما دعت الحاجة أن يدافعوا عن أنفسهم فى الداخل لعدة أيام. على ضوء تلك القلاقل، تحصّن داخل البرج ما يربو على مائتى شخص من شتى قرى الطاعة. ما إن انتهوا من حشد صفوفهم، حتى جاء ماتيو الرامى Mateo el Rami، ويدعوه البعض الحُبينى el Hubini، وهو أحد الحجّاب فى بلدة إنستينثيون Instinción، على رأس مجموعات الثوار الجبليين، وأناس غيرهم كثيرين؛ وهم يدقون الطبول الصغيرة ويعزفون على المزامير، رافعين الألوية ومروجين لقيام الثورة فى المملكة.

كان أول ما قاموا به لدى دخولهم إلى القرية، هو سرقة وتدمير بيوت المسيحيين والكنيسة. ثم توجهوا فيما بعد للتصدى للبرج؛ فاقتحموا الدير، ووجدوه خاليًا؛ لأن القساوسة كانوا قد احتشدوا مع الحاكم العام. فسرقوا الزخارف، والكؤوس، وستائر المذبح؛ وحطموا المذابح والأيقونات التى تزيّنها، ولم يدعوا إثما إلا اقترفوه، كما لو كان ذاك الفعل هو مكمن سعادتهم. فى صبيحة اليوم التالى بعثوا إلى المحاصرين، يطالبونهم بالاستسلام وتسليم أسلحتهم، على أن يدعوهم ليذهبوا حيث يشاءون فى حرية. وقد بدا الأمر وكأنه عرض جيد لكثير من الموجودين داخل البرج، بيد أن المسيحيين فطنوا لاحقًا إلى أن المسلمين كانوا يخدعونهم؛ لأنه فى أثناء مغادرة فتاتين

نبيلتين هما الآنستان فرانثيسكا خيباخا Francisca Gibaja وليونور بانيغاس Leonor Vanegas للبرج، أطلقوا عليهما نيران بنادقهم، فصرعوا بدرو دى أوروثكو Pedro de Horozco، وهو الشيخ الكبير الذى كان يرافقهما. عندما رأى المسيحيون ما حدث، أغلقوا باب البرج فى سرعةٍ كبيرةٍ؛ وتركوا الآنسة فرانثيسكا خيباخا بالخارج(٢٧)؛ لأنه لم يتسن لهم إدخالها؛ ثم تأهبوا للدفاع عن أنفسهم. لم يمض وقتٍ طويلٍ حتى اتفق المسلمون على إضرام النيران فى البرج، وحتى يتمكنوا من القيام بذلك وهم فى مأمن، أرسلوا بعض الرماة المتخفين إلى المنطقة المحيطة بالبرج؛ وبينما انشغل المسيحيون برميهم من الكوات والشرفات، وصل المسلمون إلى إحدى زوايا البرج، وشرعوا فى ثقبها بالمعاول؛ ثم دلفوا إلى القبو السفلى دون أن يشعر بهم أهلنا، فوضعوا به أخشاب الأيقونات والصور التى كانوا قد كسّروها، وكميات كبيرة من الحطب والكتان المغمورة فى الزيت العكر، وأشعلوا النار. عندما أحس المسيحيون غير المتمرسين والغافلون بالدخان وألسنة اللهب، كان السلم مشتعلاً بالفعل.

هنا ألفى القوم أنفسهم يحترقون أحياءً، فبدأ عويل النساء والأطفال: منهم من ينادى على أبويه، ومنهم من ينادون أزواجهم أو إخوتهم؛ والرجال – الذين لو كانوا بفردهم لتحلوا بالشجاعة والإقدام – ثبّط عزمهم، وغالبتهم مشاعر الشفقة تجاه نسائهم وبنيهم؛ فبادروا بالتدلى من البرج على عجل، بالحبال أو بأفضل الوسائل المتاحة، إلى الجزء الذى لم تصله النيران بعد؛ ثم أسلموهن، وكذا أنفسهم، إلى قبضة الأعداء القساة؛ الذين بدأوا فى تجريدهم من ملابسهم أثناء هبوطهم، وانهالوا عليهم ضربًا بالعصى ولكمًا، وأوثقوا أيديهم.

حينما شاهد الحاكم العام، والقساوسة، والكثيرون غيرهم ممن لم يشاءوا الاستسلام، لهيب النيران يتزايد بمرور الساعات، أدلوا باعترافاتهم، ومجدوا الرب؛

(٢٧) تبدو رواية مارمول ناقصة إذ يعود إلى ذكر مصير الآنسة فرانثيسكا التى تركوها بالخارج فيما بعد ولا ندرى ما حدث بين المناسبتين. (المراجع).

وأخذ الحاكم العام تمثالاً للمسيح المصلوب بين ذراعيه؛ وشرعوا جميعًا يجابهون النيران لفترةٍ طويلة، محاولين إخماد ألسنة اللهب بإلقاء التراب والثياب فوقها. لكن ذلك لم يجد نفعًا، لأن أعداء الرب كانوا يغذوها بمزيد من الحطب والزيت. وقد تصاعد الدخان واللهب إلى الحد الذى أسفر عن عدد من الوفيات المختلفة: فمات البعض خنقًا من جراء الدخان، وتفحّم آخرون فى النيران؛ لم يبق على قيد الحياة سوى قسٌ واحدٌ واثنان من غلمان الدير، بعد أن تورّموا وامتلأوا بالفقاقيع. مات داخل البرج كلٌ من الحاكم العام، وكهنة البلدة، والكهنة التابعين للحامة لا سيكا، وقسيس الملك فى إنستنثِيون، والكثير من الرهبان، ونفر من السيدات والأطفال، الذين لم يكن هناك سبيل لإنزالهم.

لم يكن مصير من استسلموا أفضل ممن احترقوا فى البرج؛ لأن المسلمين قاموا بنحرهم فى حوض معصر الزيت التابع للدير، وكان قريبا من ذلك الموضع. أما لويس مونتيسينو دى سوليس، الذى أشرنا إليه فى الفصل الذى يتناول ثورة أندرش(*)، فقد اصطحبوه مع المسيحيات الأسيرات إلى جبل غادور، ومنها إلى كودبا؛ وهناك أرسلوا فى طلب ابنته الآنسة ماريا دى سوليس **María de Solís**، والآنسة فرانثيسكا غيباخا، ابنة الحاكم العام، واحتجزوهما فى منزل رجل مسلم ثرى يدعى زكريا ، بعيدأ عن باقى الرهائن، يرافقهما أربعون فرد حراسة من المسلمين، لكى يحملوهما فيما بعد كهدايا لملك المغرب. وقد قتلوا لويس مونتيسينو دى سوليس فى وحشيةٍ بالغةٍ، وذلك فى حضرة كلتا الفتاتين: فجردوه من ثيابه كلها، وعلقوه من إصبعى قدميه الكبيرين فى إحدى النوافذ الأمامية للمنزل الذى حُبِسَت به ابنته، وشرعوا فى تقطيع أعضائه بالسكين عضوًا عضوًا، وصولاً إلى كتفيه. ولمّا كان يمجّد المسيح عيسى، أخرجوا لسانه وعينيه، وقطّعوا أنفه وأذنيه، ثم عرضوه للدخان، وأخيرًا أحرقوه فى النيران.

(*) انظر الباب الرابع، الفصل العشرين، صفحة ١٠٤. (المترجمة).

لنعد الآن إلى مسلمي غيثيخا؛ لأنهم في أعقاب إحراق البرج حشدوا صفوفهم، وصعدوا جميعًا مع نسائهم وبنيهم ومنقولاتهم إلى جبل غادور، يسبقهم في مقدمة الركب الأمتعة والأغنام. وقد خلّفوا وراءهم خمسمائة مسلم، ينتظرون حتى تنطفئ النيران، عسى أن يكون في البرج ما يمكن سرقته؛ فعثروا على أولئك المسيحيين الثلاثة - الذين أتينا على ذكرهم آنفًا - شبه محترقين، فلم يرغبوا في الإجهاز عليهم، وحملوهم معهم في طريق عودتهم إلى الجبل. أثناء خوض نهر كانخايار، جعلوهم يحملون الجميع على عاتقهم أثناء الخوض فيه؛ حينئذ حل المساء وأظلمت الدنيا، ولم يتمكن الثوار من إرجاء رغبتهم في الانتقام أكثر من ذلك: فقتلوا القسيس طعنًا بالسكاكين، وسلخوا أحد الغلامين حيًا، ولا ندري ما الذي حل بالثالث، ولا يسعنا سوى أن نظن أنهم قتلوه أيضًا، بحيث لم يبق من كل المسيحيين الذين كانوا موجودين في بقاع تلك الطاعة سوى ثلاثة أفراد، وقد تمكنوا من النجاة بأرواحهم بعد أن خبأهم نفر من أصدقائهم الموريسكيين، ليضعوهم بعد ذلك في مكان آمن.

جمع المسيحيون في تيركي نساءهم وبنيهم، واحتشدوا في برج الكنيسة، ظنًا منهم أن بإمكانهم الدفاع عن أنفسهم. بيد أن المسلمين أضرموا فيهم النيران، وأحرقوهم جميعًا جنبًا إلى جنب مع الكنيسة والبرج. فيما بعد قامت النساء الموريسكيات بإظهار مشاعر الأسى لاحتراق ناظر الحرير بتلك الطاعة في ذاك الموضع، ولم يكن الداعي لذلك الحزن هو أسفهن لحاله، ولكنهن كن يرغبن بشدة في تعذيبه كما يحلو لهن؛ لأنهن كن يكرهنه للغاية.

الفصل الخامس والعشرون

يتناول كيفية نشوب الثورة فى بقاع نهر بولودوى، ووصفا للنهر.

ينبع نهر بولودوى من أعلى نقاط جبل شلير الواقعة فى أقصى الشرق. وتجاور قراه طاعة مارتشينا من جهة الغرب، ومن الجنوب أراضى ألمريّة، كما يحدها من الشرق جبال بسطة، ومن الشمال جبال وادى آش وبقاع أبلا Abla ولاوريثينا Lauricena. يوجد بذاك النهر خمس قرى هى: الحصان Alhizán، وسانتا كروث Santa Cruz، وكوتشويلوس Cochuelos، وبيلومبين Bilumbin، والحابية. ويهبط النهر إلى المنطقة الواقعة بين أبلا ولاوريثينا، ثم يستكمل مساره حتى سانتا كروث – وهى البلدة الرئيسية فى المنطقة – وبعدها يتوجه حيث يلتقى بنهر ألمريّة فى البقعة الموجودة ما بين الحابية وغيثيخا. وهى أراض تمتاز بوفرة الغيلات، وينتج قاطنوها نوعية جيدة للغاية من الحرير. كما تُزرع بها كميات من الحبوب، والقمح؛ وتحتوى على أعداد كبيرة من رؤوس الأغنام. ويزرع أهلها الحناء، وهى نبتة ورقية تشبه الريحان، لكنها أرفع بعض الشىء، ولها مكانة كبيرة عند المسلمين. كان القائد العام لتلك االقرى التابعة للسيد دييغو دى كاستيّا Diego de Castilla، سيد غور Gor، هو السيد بلاس دى بيدما Blas de Biedma. كان منزله يقع فى سانتا كروث، وكان بإمكانه تجميع كل المسيحيين الموجودين فى تلك المنطقة، لولا ثقته فى عدم قيام موريسكيى تلك الأرجاء بالثورة. وكان السيد غارثيا دى بيّا رّويل قد كتب إليه هو أيضًا، كما كتب إلى السيد خيباخا، ليتوسل إليه، وكذلك يطالبه، أن يعجّل بالاحتماء بمدينة ألمريّة؛ بيد أنه لم يشأ أن يقوم بذلك.

ثارت تلك المواضع فى ثانى أيام عيد الميلاد. هرول أهالى سانتا كروث إلى ديار المسيحيين، فقبضوا عليهم، وسرقوا كل ما كان بحوزتهم، ودمّروا الكنيسة. وقد أجهزوا على الحاكم العام بطريقة وحشية، فحذوا حذو سكان كانخايار، وجردوه من ملابسه أمام أربع فتيات مسيحيات - ثلاثة من بناته وابنة المحلّف بوستُس Bustos، أحد مواطنى المريّة، وكانت الفتاة ابنة أخته -. ثم عقدوا يديه خلف ظهره، وأتاه أحد المارقين، فجدع أنفه، ودقّ مسماراً فى جبهته؛ وبعدها قطع أذنيه، وأعطاهما إياه ليأكلهما. لمّا كان الرجل يمتدح الرب بينما هم آخذون فى تعذيبه، قطعوا لسانه، ويديه، وقدميه؛ وبقروا بطنه، ووضعوا تلك الأعضاء بداخلها؛ ثم شقّ أحد السيّافين صدره، وأخرج قلبه، وبادر بقضمه قائلاً: " مبارك اليوم الذى يمكننى أن أرى فيه قلب ذاك الكلب الكافر فى يدىّ! ". وبعدها أحرقوا الجثة؛ ثم حملوا باقى المسيحيين - رجالاً ونساءً - إلى كانخايار، حيث قتلوهم لاحقاً.

ثار أهالى الحصان فى نفس أوان ثورة مواطنى سانتا كروث. فجمع الكاهن القانونى خوان رودريغيث Juan Rodríguez كل المسيحيين فى برج منزله. نهب المسلمون البيوت والكنيسة، وهشّموا كل الأشياء المقدسة؛ ثم اتجهوا إلى البرج، وأشعلوا فيه النيران من كل الإتجاهات، وحرقوا كل من احتموا بداخله أحياءً، ما عدا الكاهن القانونى وثلاث فتيات من بنات إخوته. لكن حينما أرادت القرية أن تسعد بمقتل كاهن عيسى المسيح فيما بعد، خلعوا عنه ثيابه، وأسلموه إلى السيدات الموريسكيات ليقمن هن بقتله؛ فأخرجن عينيه بالخناجر، وجرحنه بالسكاكين والحجارة، إلى أن فاضت روحه إلى بارئها، ولسانه ما برح يلهج بحمد عيسى المسيح، ويمجد اسمه الأقدس. حُمِلَت الأسيرات المسيحيات إلى كانخايار، حيث قُتلن فيما بعد ومعهن نساء أخريات كثيرات، عندما تغلّب ماركيز بلش على مسلمى فيليكس Filix، كما سنذكر فى موضعٍ آخر. دعنا الآن من معالجة بقية القرى التى ثارت، على أن نعود إلى شأنها فيما بعد، لنذكر ما كان يدور فى مدينة غرناطة فى تلك الآونة.

الفصل السادس والعشرون

يتناول ما كان يدور فى تلك الآونة فى مدينة غرناطة لحمايتها ضد الموريسكيين، والأعذار التى قدمها هؤلاء.

عم الأسى الشديد مدينة غرناطة عندما سرت الأنباء حول عدم قدرة الرجال المصاحبين لماركيز مونديخار من اللحاق بالثوار الجبليين، وتنامت تلك المشاعر ساعةً تلو الأخرى، مع ورود أخبار الحرمات التى انتهكها الثوار، والأفعال الوحشية التى قاموا بها فى المواضع التى أشعلوا فيها الثورة فى البشرات. وحرك الغضب العارم لدى العامة الرغبة فى الانتقام، فأمسوا يتحدثون بحرية، يلقون باللوم على من يشاءون وينفونه عمن يشاءون، وهم فى نهاية الأمر يبحثون جميعًا عن حلٍ لما يجرى. رأى بعضهم أنه يكمن فى تطبيق مبدأ المساواة، ورآه البعض الآخر فى اللجوء إلى تطبيق القوانين بحزم، وقد اجتمع الكل على حتمية استخدام القوة المسلحة.

لمَّا اجتمع المجلس الملكى مع سيادة الرئيس بدرو دى ديثا فى ذاك اليوم بقاعة المحكمة الملكية لمناقشة الوضع، كما اعتادوا أن يفعلوا فى مناسبات أخرى، قال الأب ألونسو نونييث بوهوركيس Alonso Núñez Bohorques المستشار القانونى بكل من المجلس الملكى فى قشتالة ومحكمة التفتيش - وكان آنذاك المستشار القانونى لتلك المحكمة الملكية - إن أقصر طريقٍ للقضاء على شرور الموريسكيين الثائرين، ومنع الباقين من الثورة، يتمثل فى إخراج كل من يقطنون فى البيّازين وبقاع غوطة غرناطة، وتسكينهم على مسافة تبعد عشرين فرسخًا إلى الداخل؛ مما يحول دون إمدادهم بالرجال، أو المقاتلين، أو التحذيرات، أو النصح؛ وهو أمر لا يمكن التحكم فيه إذا تم

الإبقاء عليهم فى المدينة، حيث يجولون ويدركون ما يجرى وما يُدَبَّر. لاقى ذاك الرأى استحسان سائر المجتمعين بالقاعة، بيد أنهم لاقوا صعوبة إزاء تنفيذه؛ لأن إخراج تلك الأعداد الغفيرة من منازلها بدا شأنًا تحفه المخاطر. فى النهاية، رُفِعَ الأمر إلى جلالة الملك. إذا كان الاقتراح لم يوضع محل التنفيذ آنذاك، فإن تطبيقه لاحقًا أمسى أقل استنكارًا وخطرًا عن ذى قبل، وهو ما سنتطرق إليه فيما بعد فى موضعه.

على جانب أخر، قام ماركيز مونديخار، الذى كان يرغب فى اللجوء إلى القوة المسلحة، بتنبيه كل من المدن، وكذا سادة أندلوثيا، ومملكة غرناطة، أن يعجّلوا بتهيئة رجال الحرب؛ إذ ربما دعت الحاجة للتدخل من أجل قمع الثورة؛ فأرسل المجلس الملكى التعزيزات وفقًا لما طالب به الماركيز. حينما وردت أنباء عن امتداد الثورة باتجاه مملكة مرسية، قرر المجتمعون تحذير السيد لويس فاخاردو **Luis Fajardo**، ماركيز بلش، وأحد القادة فى تلك المملكة، لكى يحشد جموعًا من رجال الحرب فى تلك الأرجاء، ويبيت متأهبًا لما قد يأمر به جلالة الملك، على أن يُعلِم صاحب الجلالة بما فعله فى هذا الشأن. كان الموريسكيون يهابون ماركيز بلش كثيرًا، فاعتقد المجتمعون أن سماع اسمه فحسب سيصير كافيًا لإعادتهم إلى جادة الصواب؛ وبمقتضى ذاك الاتفاق أرسل سيادة الرئيس بدرو دى ديثا فى طلب السيد كارمونا **Carmona**، محامى المحكمة الملكية لكى يناقش الأمر مع ماركيز بلش، وقال له أن يبعث كتابًا إلى الماركيز ليحذره من قدوم المسلمين لإثارة البيّازين، ونشر عقيدة محمد بها، ترافقهم آليات الحرب والألوية المنشورة؛ وإنه من الضرورى للغاية أن يقترب من مملكة غرناطة بصحبة أكبر قدر من المشاة والفرسان يتسنى له تجميعهم، وأنه سيتلقى عما قريب أمرًا من صاحب الجلالة حول ما يتعين علي القوات القيام به؛ لأنه هو سيكتب إلى جلالة الملك حول ذاك الشأن.

حينما ذاع ذاك الأمر فى المدينة، اضطرب الموريسكيون؛ فلمّا شاهدوا كل تلك الاحتياطات التى تُتَخذ، حاولوا بكافة السبل التضرع وإبعاد الشكوك التى كانت تحوم حولهم، وإلقاء اللوم على الثوار الجبليين. هاهنا اجتمع رجال البيّازين البارزون فى ثالث

أيام عيد الميلاد، وتوجهوا برفقة نائبهم العمومى للتحدث مع كافة مستشارى الملك؛ وأخذوا يقنعون كلاً على حدة بحججهم، ليظهروا براءتهم من التهم التى تُنسب إليهم؛ مبالغين فى وصف وقاحة أولئك الهالكين، الذين قدموا إلى البيّازين ليتسببوا لهم فى كل تلك الشرور. وقالوا لهم إنهم إذا ما قبضوا عليهم لاحقًا، فإنه سيتبين لهم من كانوا المذنبين؟ وعند معاقبة هؤلاء، ستنطفىء نيران الفتنة قبل أن تستشرى. وأضافوا كذلك أن المرسوم لم يهيجهم هم، وإذا كانوا قد عارضوه، فقد كان الداعى إلى ذلك هو الغيرة المحمودة؛ وأنهم الآن سعداء بإقراره، بعد أن علموا أن تلك هى مشيئة صاحب الجلالة؛ وأن كل المضايقات التى كان قد سببها لهم قد تلاشت، بعد أن رأوه ينفذ بذلك القدر من الانصاف. كما أنهم مستعدون لخدمة جلالة الملك بأموالهم، حتى يُعاقب المذنبين ويُكرّم الأخيار؛ كما كان الحال فى تلك المملكة فى أونةٍ أكثر اضطرابًا، فى أعقاب الاستيلاء على[٢٨] المملكة وبعد ذلك بفترة وجيزة.

أجاب المسئولون على كل تلك الأقاويل، وغيرها من الأمور التى تطرق إليها الموريسكيون فى حلمٍ وود، خاصةً رئيس المحكمة[٢٩]، حيث ألقى باللوم على من يلوكون شرفهم بألسنتهم، وقال إنهم يُعِدّون الموريسكيين على الدوام رعايا أوفياء لجلالة الملك؛ وهذا هو فحوى مكاتباتهم إلى صاحب الجلالة، وإنهم سيرسلون إليه فى هذا الشأن من جديد. وأضاف أنه من جانبه سينظر فى أمرهم، وأكد أنه لن يسمح أن يمسهم سوء أثناء تنفيذ المرسوم، حاثًا إياهم على التمسك بإيمانهم وولائهم الذى يزعمون؛ وإذا قاموا بخلاف ذلك فلن يعاقبوا بأقل من الدمار الشامل، نظرًا لمعاداتهم الرب وذلك الأمير واسع النفوذ؛ فهو إن لزم الأمر يستطيع أن يشن الحرب بحرًا وبرًا على جميع

(٢٨) لاحظ أن مارمول لم يستخدم هنا مصطلح "استرداد". (المراجع).

(٢٩) قال مارمول إن ماركيز مونديخار كان يريد استخدام السلاح ويقول هنا إن رئيس المحكمة كان حليمًا مع الموريسكيين، وهو هنا يختلف مع مؤرخين أخرين يرون أن ماركيز مونديخار كان يريد حلاً سياسيًا للمشكلة. (المراجع).

أمراء الكون فى آنٍ واحد. هكذا حاول المسئولون تهدئتهم قدر المستطاع، مستخدمين تلك الحجج والكثير غيرها على شاكلتها، بينما هم يُقرّون من ناحيةٍ أخرى ما من شأنه تأمين سلامة تلك المدينة والمملكة بأسرها. على ضوء كل تلك الشكوك والمخاوف، لم يتوقف انعقاد الاجتماعات بالقاعات سوى يوم واحد، بينما واصل المستشارون الحقوقيون والعمد عقد جلساتهم فى أثناء اندلاع الثورة كل يومٍ فى المواعيد المعتادة. كان ذلك من الأهمية بمكان، حتى أن الموريسكيين لم يجرؤوا على إحداث أى أمر فى المدينة أو فى القرى المجاورة، فقد كانوا يخشون المشنقة إلى حد كبير، بما يفوق خوفهم من السيف. لاحقًا صدر الأمر بأن تُكَوّن سرايا الدوائر كتيبة للحراسة فى المحكمة، على أن يخرج بها المأمور القضائى ثلاث أو أربع مرات فى كل ليلةٍ، لتفقد البيّازين والقصبة. لمّا كانت أعداد الجنود قليلة، والمخاوف كبيرة، لجأت السلطات إلى حيلة - اعتادت استخدامها فى بعض الأحايين - للحيلولة دون إدراك الموريسكيين لحقيقة الأمر؛ فكان الجنود بعد أن يدخلوا براياتهم المشهرة من البوابة الرئيسية، يعاودون الخروج واحدًا تلو الآخر من بوابةٍ مستترة، لكى يدخلوا من جديد ضمن الكتائب الأخرى. كانت الأمور تجرى بقدرٍ كبيرٍ من الحذق، حتى إن المواطنين ذاتهم لم يدركوا ما يحدث. وقد زود الرئيس القادة والرجال العاديين بطاولاتٍ للعب، حتى يمسى لديهم وسيلة للترفيه، كما أمر بتقديم العشاء والوجبات الخفيفة لهم؛ بيد أنه رغمًا عن كل تلك الاحتياطات، لم ينته التعساء عن المضى قدمًا فى شرورهم، بعد أن تملكت منهم الوقاحة، كما سنفهم لاحقًا فى سياق هذا التأريخ.

الفصل السابع والعشرون

يتناول كيفية نشوب الثورة فى بقاع أراضى شلوبانية، ووصفا لها.

شلوبانية بلدة منيعة للغاية نظرًا لطبيعة موقعها ومهارة مؤسسيها، حيث تقع على ضفة البحر الأبيض المتوسط، فوق صخرة شديدة الارتفاع، ويوجد أمامها غابة معزولة من الأشجار تتوسط الأراضى السهلية المنبسطة، وإلى الغرب منها يقع شاطىء صغير بمعزل عن الساحل الشرقى، حيث ترسو السفن. والبلدة محاطة بأسوار لا يمكن إضعافها؛ لأنها مشيدة من الصخور الرخامية، وبالطبع لا يمكن هدمها أيضًا؛ لأنها عالية جدًا ومدببة من جميع الاتجاهات، فيما عدا الجهة الشرقية التى بها البوابة الرئيسة للبلدة . وهناك قلعة حصينة فى أعلى بقاعها الشمالية، لا يمكن قتالها سوى من منازل البلدة، وقد تم تأمينها من تلك الناحية بسورين عريضين بينهما تراب، وهى محصنة بالمتاريس. بالإضافة إلى ذلك فهو محاط بالأحجار المدببة ، يوجد بالداخل بئر مياه دافقة، ما من سبيل لمنعها.

تقع تلك القلعة فى حيازة السيد دييغو راميريث دى أرو Diego Ramírez de Haro، أحد أهالى مدريد، وكانت مملوكة لأسلافه، حيث منحهم إياها الملكان الكاثوليكيان إبان غزو مملكة غرناطة. يحد شلوبانية من ناحية الشرق بلدة موتريل، ومن الغرب مدينة المنكب، ومن الجنوب البحر الأبيض المتوسط، ومن الشمال وادى ليكرين. يوجد داخل حدودها ست قرى هى: لوبريس، وإترابو ítrabo، ومولبيثار Mulvízar، وغواخار العالية Guájar la alta، وغواخار دى الفغيت/الفقيد Guájar de Al-faguit، وغواخار ديل فوندون Guájar del Fondón. كل تلك المواضع مأهولة

بالموريسكيين، أما البلدة فقاطنوها من المسيحيين؛ وعندما تعمر بكاملها تضحى سعتها ستمائة منزل، أما فى تلك الآونة فلم يكن يشغلها سوى ثمانين شخصًا.

وهى أراضى وعرة، تصبح أشد انحدارًا ووعورة ناحيتى الغرب والشمال، حيث تُزرَع بها كميات ضئيلة من القمح. المواضع المرتفعة توجد فى شق منحوت فى الجبل، حيث ينحدر منه نهر ينبع من عدة عيون تخرج من الجبل، ثم يكمل مساره فيما بعد لينضم إلى نهر موتريل. تلك الأودية عامرة بأراضى الرى التى تكثر فيها الغيلات، وأشجار الزيتون، وأشجار التوت الأسود، التى تتيح للأهالى حريرًا عالى الجودة؛ بالرغم من أن المحصول الرئيس حاليًا هو السكر، ويرجع ذلك إلى وجود غوطة فى الناحية الشرقية باتجاه موتريل تتمتع بوفرة من عيدان قصب السكر اللذيذة، وكميات غزيرة من المياه لريها. هناك مصنع شديد الضخامة لتكرير السكر بجوار أسوار البلدة، ويوجد غيره فى القرى المجاورة، حيث يُحمَل إليها أعواد قصب السكر.

ثار موريسكيو قرى غواخار فى أول وثانى أيام عيد الميلاد، بالتزامن مع أهالى الوادى؛ بيد أنهم لم يحدثوا أضرارًا بالكنائس أو يؤذوا المسيحيين، بل أخبروا الكاهن القانونى أن يكف عن إقامة شعائر القداس. وقد وعده حاكم البلدة المدعو غونثالو التارتيل Gonzalo el Tartel، وكان أحد أصدقائه، أن أحدًا لن يغضبه أو يتعرض له؛ وأنه سيودعه مكانًا آمنًا، إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك، وهو ما قام به بالفعل. فيما بعد صعد أهالى لوبراس، وإترابو، ومولبيثار إلى جبال غواخار، وهجروا ديارهم فرارًا من الأذى الذى ألحقه بهم جيرانهم فى شلوبانية وموتريل: حيث يمكن القول إنهم كانوا من أثاروهم، أو عجّلوا بثورتهم على أقل تقدير؛ لأنه فى أعقاب معرفة ما قام به الثوار فى أورخيبا، خرج الأهالى على شكل كتائب لسرقة الدور والمواشى، وأساءوا معاملتهم بوسائل أخرى، ولكنهم امتنعوا آنذاك عن إلحاق أضرار بالكنائس.

حينما بدأت تلك القلاقل، كان السيد دييغو راميريث فى بلدة موتريل ترافقه عائلته وأهل بيته؛ عندما وصلته الرسالة التحذيرية التى بعثها ماركيز مونديخار، ذهب ليحتمى بحصنه. عندما أدرك أنه لا يوجد بالبلدة عدد كاف من الأفراد، كما أنه

لا يرافقه سوى خدمه، قرر أن يرسل شخصًا يدعى كلاوديو دى روبلِس Claudio de Robles إلى أريبالو دى ثواثو Arévalo de Zuazo– المأمور القضائى لمدينة مالقة – يطلب منه تزويده ببعض المقاتلين لوضعهم بالبلدة؛ حيث كان يظن أن الثوار سيحاولون احتلالها، نظرًا لوجود الحصن بها، وملائمة موقع ذاك الميناء. فبعث إليه دييغو بارثانا Diego Barzana، على رأس خمسين من الرماة، مما عمل على تهدئة المواطنين بعض الشىء. فى نهاية الأمر، وضع السيد دييغو راميريث الحصن موضع الدفاع، واعتمد على قوات المدفعية، التى كانت منتشرة فى سائر الأرجاء دونما هياكل لحمل المدافع أو عجلات، واتخذ كافة التدابير التى تتماشى وكونه صاحب قلعةٍ قدير. وهو لم يدافع عن المكان فحسب، بل إنه خرج مرات كثيرة لاقتفاء آثار الأعداء، وقام بالعديد من المآثر العظيمة، التى سنسوقها فى موضعها.

الفصل الثامن والعشرون

يتناول كيفية مهاجمة المسلمين لبرج أورخيبا.

فى يوم الأحد، السادس والعشرين من شهر ديسمبر ، الموافق لثانى أيام عيد الميلاد، اتفق المسلمون على مهاجمة برج أورخيبا؛ وجمعوا من أجل ذلك الكثير من حزم الحطب، وأعواد القصب المضفورة مع الأغصان والمغمورة بالزيت؛ لأنهم كانوا يفكرون فى إحراق المسيحيين الموجودين بالداخل. وقد أرسل صاحب البرج غاسبار دى سارابيا عشرين رجلاً إلى الخارج، فقتلوا بعض الموريسكيين، وأحرقوا كل تلك الحزم فى المكان الذى تم تجميعها فيه. فهرول الأعداء إلى الكنيسة، وألفوها دونما حماية، فدلفوا إلى الداخل؛ وشرعوا يهشمون الأيقونات ويحطمون المذبح فى غضبٍ عارم، وكسَّروا جرن المعمودية، وأراقوا الزيت المقدس والميرون، وأطلقوا رصاص البنادق على صندوق القرابين المقدسة؛ وقد استشاطوا حنقًا لمَّا لم يعثروا بداخله على قربان المناولة المقدس، حيث كان الكهنة القانونيون قد أنهوا ما لديهم فى كل تلك الأماكن. فأخذوا يلقون كل الأشياء المقدسة على الأرض، ولم يدعوا حرمة إلا انتهكوها أو إثمًا إلا اقترفوه.

وقد صعدوا إلى برج الناقوس، ووضعوا على أعلى نقطة به ساترًا واقيًا من الألحفة والملاءات، لكى يتمكنوا من إطلاق نيران بنادقهم على المسيحيين من خلفه. وقد أرسلوا لهم فى تلك الليلة مسلمًا من بنى ثالتى اسمه الفيرثا el Ferza، ابن ألونسو فيرثا Alonso Ferza، ليطالبهم بالاستسلام، وتسليم أسلحتهم وأموالهم، على أن يتركهم الثوار على قيد الحياة. وصل المسلم إلى البرج رافعًا رايةً بيضاء، وأبلغ

الرسالة التى يحملها، قائلاً إن غرناطة قد أُبيدت، وإن المسلمين قد استولوا على حصن الحمراء وجعلوه تابعًا لهم؛ كما أن جلالة الملك فيليبى لا يستطيع أن يرسل إليهم نجدة، لأنه محاصر باللوثريين(*)، وأن أمور المسلمين تسير على أكمل وجه، حتى أنهم يتوقعون أن يصلوا منتصرين عما قريب إلى قشتالة القديمة. حينما سأله أحد القساوسة إذا ما كان يتحدث كمسيحى أم مسلم؟ رد المارق بأنه يتكلم كرجل مسلم، وأن تلك الأرض لم يعد بها سوى الله ومحمد، وأنه يجدر بمن هنا أن يحسنوا التدبر، ويعتنقوا الإسلام إذا كانوا يرغبون فى الحصول على حريتهم. أسف أهلنا كثيرًا لتلك الكلمات، ولم يطيقوا سماع عبارات كفر على شاكلتها، فأجابوه بأن ينصرف من هنا، إلا إذا كان يرغب فى أن يردوه قتيلاً ببنادقهم؛ وحذروه ألا يرجع هو أو غيره بتلك الرسالة؛ لأنه لن يصيبهم خير؛ لكن ذلك لم يثنهم عن عرض السلام عليهم مرات أخرى، ليروا إذا ما كانوا سيتمكنوا من خداعهم.

لم يمض وقتٌ طويلٌ حتى اتفق المسلمون على صنع غطائين من الخشب، لثقب الحائط من الأسفل، وإسقاط البرج على الأرض؛ بيد أن المحاصرين أظهروا حذقًا شديدًا، فأحرقوا واحدًا بينما كان لا يزال فى طور الإنشاء، أما الثاني فقد أنهاه المسلمون؛ وعندما وُضِعَ فى المكان المناسب، أعطوا إشارةً للناس جميعًا، وتهيؤا للقتال. صُنِعَ ذاك الغطاء من جذوع الأشجار السميكة، وغُطِيَ بألواحٍ من الخشب المكسو من الخارج بجلود الأبقار، ثم وُضِعَ أعلى الخشب والجلد ألحفةٌ من الصوف المبلل، لمقاومة الأحجار والنيران. عقب وضعه على أربع عجلات منخفضة، قام من هم تحت الغطاء أنفسهم بإدارة العجل؛ وأخذوا يجرّون من كلا الطرفين حزمًا ضخمةً من أعواد قصب السكر والحطب الجاف والكتان، وقد كانت كلها مغرقة فى الزيت، حتى يتسنى لهم إحراق البرج بواسطتها بعد ثقبه وتدعيمه بجذوع الأشجار. كان تصميم الأعداء كبيرًا، وأمسى الغضب والحنق معتملين داخل الصدور؛ رغمًا عن أن المسيحيين

(*) انظر الكتاب الثالث صفحة ٢٦، ٢٧ (المترجمة).

قتلوا الكثير منهم بطلقات بنادقهم، فإنهم واصلوا الدنو بغطائهم. حاول رجالنا تحطيمه عن طريق رميه بالأحجار الثقيلة من علٍ؛ حينما فطنوا إلى قلة جدوى ذلك؛ لأن الخشب كان صلبًا، كما أن الكسوة الخارجية كانت تصد الحجارة، أخذوا بعضًا من بلاط الأرضيات تصادف وجوده بالبرج، وقذفوه على الزاوية فى الموضع الذى تنكشف فيه الأغطية، فمزقوا النسيج، ثم ألقوا فوقهم قدرين من الزيت المغلى - من القربة التى كان لياندرو قد أحضرها - وكمياتٍ من مشاقة القُنَّب والكتان المحترق، فاشتعلت النيران على نحو أحرق الألحفة والملاءة فى برهة وجيزة. أما من كانوا قد شرعوا بالفعل فى نقر الجدار، فقد لاذوا بالفرار لما أحاط بحياتهم من خطر محدق. لم يشهد ابن أمية ذلك الاعتداء؛ لأنه كان قد ابتعد عن المكان، كما ذُكِرَ آنفًا، متوجهًا إلى بيتريس دى فيريِّرة لإقرار أمور أخرى؛ حينما علم بما صار من أحداث خسيسة، أمر بوقف الهجمات، والاكتفاء بتطويق البرج لمنع دخول الإمدادات إليه؛ وقد ظلوا على حالتهم تلك طيلة سبعة عشر يومًا حتى أغاثهم ماركيز مونديخار، كما سنسوق لاحقًا.

(*) راجع الكتاب الرابع، الفصل التاسع ، صفحة ٤٤. (المترجمة).

الفصل التاسع والعشرون

يتناول ما كان يدور فى تلك الآونة فى ألمرية، ووصفًا لتلك الأراضى ولبعض مواضعها التى اندلعت فيها الثورة.

كانت مدينة ألمرية تدعى قديمًا بيخى Viji. وهى تقع على ساحل البحر، وحدودها مترامية الأطراف: حيث يحدها من جهة الغرب طاعة داليّاس، وأندرش؛ ومن الشمال طاعات لوتشار، ومارتشينا، وبولودوى؛ كما يحدها من الشرق نهر المنصورة، ومدينتى موخاكار وبيرا؛ أما حدودها الجنوبية فهى ممتدة بطول الساحل الأبيض المتوسط من برج رابطة Rábita، فى فيليكس Filix بالناحية الغربية، وحتى هضبة رولدان Roldán شرقًا. هناك سبعة وثلاثون موضعًا وبلدة فى نطاق حدود ألمرية، وأسماؤها كالتالى: إينيكسÍnix ، وفيليكس، وبيكارVícar، وتورّياس Turrillas، وأُوبريبو Obrevo، وإنوكس Inox، وكاربال Carbal، والقِطان Alquitán، وبيدريغال Pedregal، والحضارة Alhadara، وبايتور Vaitor، وغويركال Güércal، وألغوايان Alguayán، وبنى حبوس Benahaduz، وبيتشينا Bechina، والحامة دى بيرتشينا Alhama de Barchina، ورِيوخا Rioja، وغادور، وغوَيثيليانا Guyciliana، وسانتا فى، ونِيخار Níjar، وموندوخار، وغيثِين Guézhen، وألوكاينونا Alocainona، وسورباس Sorbas، وأولِيلة ديل كامبو Uleia del Campo، وأولِيلة دى كاسترو Uleia de Castro، وبيليفيكى، وبابرين Babrin، والحَمّية Alhamilla، وتابِرناس Tavernas، وخيرغال Gérgal، وكاسترو Castro، وباكاريس Bacares، والبيرى Elbeire، وبايارکا Bayarca، وماكايل Macael.

يمر نهر أندرش بتلك الأراضى، وبعد أن يعبر طاعة مارتشينا، يتوجه لينضم إلى نهر آخر ينبع من بقعة أسفل قلعة خيرغال. عندما يصل إلى السهول الجنوبية، يعرج على الموضع الذى تقع على ضفته كل من تابيرناس، والحامية Alhamilla، وجادة تابِرناس؛ وحينما يصبح بمحاذاة غادور، وبنى حبوس يصب ماءه فى البحر الأبيض المتوسط، على مقربةٍ من مدينة ألمرية. تتميز ألمرية بموقع فاتن وخلاب، وكان بها آنذاك ما يربو على ألفين وخمسمائة نسمة. على الرغم من أن المساحة داخل الأسوار يمكنها أن تسع عدداً أكبر من المنازل؛ لأن محيط المدينة يبلغ ستة آلاف وخمسين خطوة، وفى أطرافها توجد قلعة حصينة، مقامة أعلى صخرة شديدة الارتفاع، لا يمكن اختراقها أو هدمها أو مهاجمتها من ثلاث جهات؛ أما الجهة الرابعة فبها عائق واحد باتجاه الجبل، إلا أن بينه وبين الحصن واد عميق جداً. والموضع بأكمله محاط بصخرة مدببة عالية جداً، والأسوار عليها متاريس من التراب.

إلى الشرق من تلك المدينة يوجد شاطىء فسيح وكبير، وآمن للغاية من الناحية الشرقية، التى يمكن أن يرسو بها ألفا مركب ويزيد. ومن جهة الغرب هناك شاطىء آخر، ليس على تلك الدرجة من التأمين، على الرغم من أنه يمتلك غطاءً من الجبال التى تبدأ من البحر باتجاه تلك الناحية. كل تلك الحدود عامرة بكلأ للماشية، وقاطنو المدينة ينتجون كمية وافرة من الحرير عالى الجودة، وهناك غيلات ضخمة على ضفاف الأنهار. يُحصَد فى تلك الأراضى قدر من القمح، مع أنه ليس بالكم الوفير الذى يكفيها لعام كامل، إلا أنها تتزود ببقية احتياجاتها من المنطقة المجاورة. صارت ألمرية مدينة عامرة بالسكان إبان حكم المسلمين لها، وباتت تتمتع بمكانة عالية، أرادت من خلالها أن تتنافس مع غرناطة؛ ومن هنا لقبوها بالمراية Almereya، وتعنى المرآة. وقد كان تتميز فى العادة بأرباض فسيحة، وكان يُصنع بها أعداد كبيرة من مراكب التجديف؛ بيد أن أعداد السكان أخذت فى التناقص، كما قلّت معاملاتهم وباقى مناحى الحياة لديهم.

عندما بدأت الحرب على أثر ذاك الانقلاب، كان يقطن بها الكثير من الفرسان والرجال البارزين، كما كان فيها ما يربو على ستمائة من منازل الموريسكيين بدءًا من الأسوار ووصولاً إلى داخل المدينة؛ وكذلك فقد كان هناك فصيلتان من رجال الحرب المعتادين: واحدة للفرسان، وأخرى للمشاة؛ وكان الغرض منهما تولى مهمة حراسة الساحل، والاضطلاع بحمايته. حينما شاهد أهل قرى طاعة مارتشينا، والبقاع المتاخمة لألمرية، أن أحوالها مزدهرة، وأن الأتراك لا يوفون بما زعموا، صمموا أن يقوموا هم بذلك. ومن ذلك المنطلق انتقوا مائة وخمسين رجلاً، وكانوا قد أمروهم من قبل باصطحاب أحمالٍ من القمح وما سواه من المؤن، والتوجه بها إلى سوق الغلال بالمدينة – وكان موجوداً إلى جانب الحصن – وإفراغ شحنتهم هناك، كما اعتادوا أن يفعلوا فى طبيعة الأمر. على أن يعبر عشرة رجال أو أحد عشر رجلاً منهم بأحمال من الحطب والقش، بحجة تقديمها إلى الحاكم العام؛ وما أن يجتازوا أبواب الحصن، حتى يخربوها بما يمنع المسيحيين من إغلاقها. حينئذ يأتى الرجال الموجودون بالسوق، فيدلفون إلى الداخل، ويجهزون على القائد ومن معه؛ ثم يتحصنون فى القلعة ويرسلوا إشارةً بالدخان، لكى توافيهم باقى قرى المنطقة فيما بعد. من أجل أن يفهموا أولئك القادمين من أين يمكنهم الدخول دون أن يعترضهم من بالمدينة، كان ماتيو الرامى(*) -حاجب إنستنثِيون- وكان صديقًا حميمًا لألبارو دى سوسا Alvaro de Sosa، قد أفلح فى إقناع ذلك الأخير فى تلك الآونة باصطحابه فى أحد الأيام إلى الحصن لتناول الغذاء؛ بحجة أنه ينتوى قضاء عطلة مع زوجته فى ألمرية. من هنا تعرف على دروب وأبراج القلعة، أثناء سيره برفقة الحاكم فى سائر أرجائها؛ على الرغم من أنه لم يسمح له بالدخول إلى برج التكريم، بحجة إن الملك وهو فقط يمكن لهما مشاهدته.

(*) انظر الفصل الرابع والعشرين، صفحة ١١٤-١١٥. (المترجمة).

لمّا رأى الموريسكى الخبيث أن الحاكم كان أشد تحفظًا فى تلك المناسبة عنه فى مرات سابقة، وكذلك رأى كتيبة الجنود الموجودة عند البوابة الأولى، شك فى إدراك المسيحيين لبعض ما يخطط، فرأى التخلى عن المهمة، وأن يسلك نهجًا آخر ربما يمسى أشد إضرارًا بالمدينة. فأظهر رغبته فى رد كرم صديقه وجوده، ورجاه أن يذهب معه فى يوم آخر ليستجم بقريته، وأن يأخذ معه أصحابه وأقرباءه جميعًا؛ لأنه يريد الاحتفاء بهم وتقديم الطعام لهم على طريقته المعتادة. بعد أن قبل الحاكم دعوته، وقام المسلم من جانبه بدعوة كل الرجال ذوى المكانة، ممن ظن أنهم قد يتولون الدفاع عن المدينة، إلى المأدبة. كان سيقتلهم فى ذاك اليوم، لو لم يحدث شجار بين نفر من المدعوين فى المكان، فأمر القائد بحبسهم، وهكذا لم تأت المأدبة بثمارها المرجوة. بعد أن وصلت الأمور إلى تلك المرحلة، وصل إلى الحاكم فى ثانى أيام عيد الميلاد أحد حراس الأبراج القائمة على الساحل الغربى، وسلمه الرسالة التحذيرية التى ذكرنا آنفًا أن دييغو غاسكا كان قد بعثها إليه، وكان نصها على النحو التالى: " فى الوقت الذى أكتب إليك فيه رسالتى هذه، الساعة الآن الحادية عشرة صباحًا، واليوم هو أول أيام عيد الميلاد، تم تنبيهى إلى وجود ثلاثمائة مسلم فى طريقهم إلى أوخيخار بالبشرات. أنا فى طريقى لملاحقتهم، وأنا أستنجد برحمتك أن تغيثنى. مُؤرخ فى داليّاس، فى اليوم المذكور أعلاه.

وضعت تلك الرسالة السيد غارثيا دى بياروِيل فى حيرة بالغة؛ لأنه كان يدرك أن من يقصدهم دييغو غاسكا ليسوا بمسلمين، ولا يمكن أن يكونوا مسلمين(٣٠)؛ لأن البحر ظل هائجًا للغاية فى وقت الظهيرة على مدار خمسة عشر يومًا، والقادمون ليس لديهم غطاء على ساحلنا. لذلك تيقن السيد غارثيا أن المعنيين هم موريسكيون من الأهالى قاموا بالثورة، وقد تريث للتدبر فى مضار الخروج من المدينة، وقلة جدوى ذهابه؛ لأنه إذا كان من يقصدهم دييغو غاسكا مسلمين من بلاد المغرب، فهم سيكونون

(٣٠) يقصد من شمال إفريقيا. (المراجع).

قد رسوا بالفعل على سواحلنا حينما يصل إليهم؛ من هنا اكتفى بالتظاهر بالخروج من الأسوار، مع أنه لم يكن ينتوى الابتعاد كثيراً بجنوده. حينئذ أمر السيد غارثيا بنفخ الأبواق لحشد القوات، والتعجيل بخروج الجنود؛ وبعد أن أضحى خارج الأسوار، أمر المشاة بالتوقف عند المحجر المشرف على المدينة، وبقى هو والفرسان لإلهاء الرجال على مقربة من الأسوار. بعدها عاد للدخول إلى المدينة، حيث تراءى له أنه من الأجدر الاعتناء بتأمينها، عن الذهاب لإغاثة دييغو غاسكا فى أمر ملتبس. مع رجوع السيد غارثيا دى بيارّويل إلى المدينة، اتخذ رجال الشرطة ومجلس البلدية الإجراءات اللازمة، كما قام بها هو من جانبه، وبعثوا جنديًا إلى ماركيز مونديخار يطلبون إغاثتهم بالرجال والمؤن والإمدادات، لأن ألمرية كانت تفتقر إلى كل تلك الأشياء.

عندما فطنوا إلى أن النجدة لن تصل إليهم بالسرعة التى يتطلبها الوضع الراهن، أرسلوا أيضًا إلى ماركيز بلش، وإلى مدن مملكة مرسية، وإلى خِيل دى أندرادا Gil de Andrada – القائم بشئون السفن فى إسبانيا – فأكدوا لهم أن ثورة الموريسكيين فى المملكة بسائرها باتت أمراً محققًا، حتى يعجلوا بإغاثة ذاك الموضع. وكذلك فقد قاموا بما يلزم مع القساوسة المسيحيين والرهبان الخدام فى كل بقاع أراضى ألمرية، حتى يحتشدوا فى المدينة فى الوقت المناسب، وهو ما أنقذ الكثيرين. كما أنهم كتبوا إلى الحكام العموم لمنطقتى مارتشينا وبولودوى من أجل أن يقوموا بالأمر ذاته.

فى الساعة الرابعة من مساء ذلك اليوم وصل إلى ألمرية سيافان من كتيبة دييغو غاسكا، فأخبروا القوم أن الموريسكيين كانوا يريدون الإجهاز عليهما، أثناء وجودهما فى إحدى قرى طاعة لوتشار. وإنه من حسن الطالع تمكنهم من الفرار بعد أن انطلق جواداهما بأقصى سرعة، ففى كل موضع كانوا يمرون به، خرج أناس مسلحون لقطع الطريق عليهم. فى أعقاب ذلك بعث القوم رسالتين جديدتين إلى كلا الماركيزين، يخبرونهما فيهما بتأكيد اندلاع الثورة، كما قاموا أيضًا بزيادة أعداد المقاتلين على بوابة الحصن؛ وقد أعلنوا فى أرجاء المناطق الحدودية أن كل الموريسكيين الراغبين

فى الاحتماء بالمدينة مع نسائهم وبنيهم بإمكانهم فعل ذلك. وكذلك أمروا بدرو مارتين دى ألدانا Pedro Martín de Aldana، مسئول كتيبة الفرسان التابعة للسيد غارثيا دى بياروّيل، أن يذهب إلى ريف نِيخار ليحمل الرعاة المسيحيين على جمع أغنامهم فى الوقت المناسب؛ وأن يُحضِر إلى المدينة من يجدونه منهم من الموريسكيين لتأمين الطعام لهم.

بينما هم عاكفون على ذلك وصلت إليهم أنباءُ جديدة فى ثالث أيام عيد الميلاد، تفيد باندلاع الثورة فى أوخيخار دى ألباثيتى، وكيف أن المسيحيين محاصرون فى برج الكنيسة. وبحلول يوم الثلاثاء الموافق الثامن والعشرين من ديسمبر علموا أنهم قد أُهلِكوا، وإن الثورة قد عمت سائر الأرجاء، بدءًا من أوخيخار ووصولاً إلى المرية. عندئذ اجتمع القائمون على شئون القضاء ونواب البلدية فى المجمع الديرانى، وقاموا بما يلى طبقًا لما رواه لنا[٣١] السيد غارثيا دى بياروّيل: عينوا أشخاصًا يتولون مهمة الذهاب إلى جلالة الملك، على أن يعرجوا فى طريقهم على ماركيز بلش ليسلموه رسالة، يطالبونه فيها بإغاثتهم على وجه السرعة؛ لأن المكان يجابه خطرًا شديداً. وقد شرعوا فى ذات اليوم فى جمع الموريسكيين الموجودين فى المدينة والحقول والضواحى مع نسائهم وأطفالهم، ولمّا كان بينهم عددٌ كبيرٌ قادرٌ على حمل السلاح، فقد حشدوا جموع المسيحيين فى بلدة المدينة Almedina.

وقد وصل فى مساء اليوم عينه جاسوس من غويثيخا، فأخبرهم كيف أن الموريسكيين يحاصرون الدير والبرج، وأنه التقى رجالاً من كل من إينيكس وفيليكس وبيكار خرجوا للانضمام إليهم؛ وقد أخبروه أن غرناطة والمملكة بأسرها باتت فى قبضة المسلمين، وأنه لم يتبق لهم سوى الظفر بالمرية، لكنهم سيفوزون بها قريبًا؛ لأنه عقب انتصارهم على برج غويثيخا وقلعة خيرغال أمسى لديهم أعدادٌ غفيرةً

(٣١) أى أن مارمول يعتمد على شاهد عيان. (المراجع).

من الرجال تمكنهم من هزيمتها. وقد أحضر معه بضع وريقات مقطعة من كتاب القدّاس الذى مزقه الثوار فى كنيسة الحامة لاسيكا، دلالةً على صدق ما روى حول لقائه مع أولئك القوم.

وقد أكد ذلك الخبر جاسوس آخر حضر فى ذات اليوم، وقد أسهم فى زيادة الحرص في المدينة، حيث ألفاها دونما زاد، ولا تمتلك سوى القليل من المؤونة؛ بيد أن الأمر تغير خلال برهة وجيزة؛ لأن الجنود الذين ذهبوا مع بدرو مارتين دى ألدانا إلى ريف نِيخار أحضروا ألف بقرة[٣٢]، والكثير من رؤوس الماشية متوسطة الحجم مما كان فى حوزة الموريسكيين، وهو ما أمد الناس بما يحتاجون، وزودهم بالطعام لأيام عديدة. كما كان لخروجهم أهميةٌ بالغةٌ؛ لأنهم جمعوا كل مواشى المسيحيين، والرعاة الذين كانوا يسوقونها فى الأراضى، وهكذا استطاعوا الخروج آمنين عبر جبال نِيخار وفيلابريس و تابِرناس؛ لأن ماركيز بلش حينما شرع فى حشد الجموع فى تلك الأرجاء، لم يجرؤ الموريسكيون على الثورة فى تلك الجبال. وقد حذا حذوهم قاطنو هوة بسطة، ونهر المنصورة، وبيرا، وموخاكار، وكل البقاع الشرقية، ولو كانوا قاموا بثورتهم لتسببوا فى أضرارٍ فادحةٍ؛ لأن عددهم كان كبيراً. وقد ثارت بعض بقاع أراضى المرية الكائنة ناحية البشرات: إينيكس، وفيليكس، وبيكار، وخيرغال، وغيرها من القرى التى مارس فيها المارقون وحشيتهم، فى غضب لا يقل عن الحنق الذى أظهروه فى المواضع المذكورة آنفا؛ وهو ما سنتناوله فى الأسطر التالية.

تقع بقاع إينيكس وفيليكس وبيكار إلى الغرب من مدينة المرية، فى أحد الأركان التى يكونها جبل غادور حينما يرتفع أعلى سطح البحر الأبيض المتوسط. وقد ثار أهالى تلك البقاع بالتزامن مع ثورة أهالى غيثيخا، فبعد أن سرقوا الكنائس ودمّروها،

(٣٢) رقم مبالغ فيه دون شك. (المراجع).

وقتلوا بعض المسيحيين وأسروا آخرين، توجه الكثير منهم لتدعيم من يحاصرون برج غيثيخا. فى أعقاب الظفر به، كما ذُكِرَ من قبل، رجعوا إلى مواضعهم، وأمروا بقتل الكاهن القانونى ساليناس، وإثنين من السدنة كانوا محتجزين لديهم. فأجبروه على ارتداء الثياب التى كان يلبسها أثناء إقامة شعائر القداس، وأجلسوه على كرسى أسفل قاعدة المذبح الأكبر، ثم أوقفوا السادنين على جانبيه، وهما يحملان السجلات المدون بها أسماء الأهالى، ثم أمروهما أن يتلوا الأسماء بالترتيب، كما اعتادا أن يفعلا لمعرفة إذا ما كان هناك من تغيب عن الحضور ومعاقبته. فأخذا يناديان على الأهالى، فحضروا إلى الكاهن القانونى - رجال ونساء، صغار وكبار - وشرعوا يكيلون له اللكمات والصفعات، كما بصقوا فى وجهه ونعتوه بالكلب. بعد أن نادوا على الجميع، جاء أحد المارقين إلى الكاهن ومعه سكين، فأشار عليه بالسكين إشارة الصليب، ثم شق وجهه من أعلى إلى أسفل، ومن جنب إلى الجنب الآخر؛ ثم قطعه إربًا إربًا ومفصلاً مفصلاً، بالطريقة ذاتها التى انتهجها أهل كانخايار مع كاهنهم القانونى(٢٣)؛ ولَمّا كان قسيس عيسى المسيح يمجد اسمه الأقدس، قطعوا له لسانه. فيما بعد سحبوا الثلاثة إلى خارج المكان، ورموهم بالسهام مجتمعين. فى أعقاب ذلك حشدوا صفوفهم، واصطحبوا نساءهم وبنيهم وماشيتهم إلى رابية مرتفعة بجانب فيليكس، ظانين أنه سيتسنى لهم الدفاع عن أنفسهم هناك، نظرًا للموقع المنيع لتلك الربوة.

بعد اندلاع الثورة فى قرى طاعة مارتشينا وبولودوى، أرسل كل من الغورّى والرامى ستة ألوية من الثوار الجبليين والرجال البواسل جيدى التسلح لإثارة أهالى بقاع نهر ألمرية، وتجميع كل تلك الحشود. وقد وصل أولئك إلى خيرغال - التابعة لكونت لا بوبيلا - فى ثالث أيام عيد الميلاد. أما صاحب القلعة، وكان فى الوقت ذاته الحاكم العام للموضع، فقد كان متنبهًا أثناء تنفيذ خيانته، فأخبر المسيحيين أن عليهم

---

(٢٣) لا نجد ذكرًا للفظائع التى يصفها مارمول عند مندوثا ولا يتوقف عندها بيريث دى إيتا، وبالتالى قد تكون مبالغات أو تعميما لحالات فردية (المراجع).

الاحتماء بالحصن برفقة نسائهم وبنيهم، وهناك يمكنهم التجهز والتهيؤ؛ وما أن تحصل عليهم بالداخل حتى أمر بقتلهم جميعًا. حيث ذبح القاضى الكنسى دييغو دى أثيبو Diego de Acebo ووالدته - وكانت سيدة طاعنة فى السن - والكاهن القانونى باث Paz وشقيقته، وبيرنال غارثيا Bernal García - الكاتب العمومى لتلك الدائرة القضائية - وكل المسيحيين والمسيحيات الذين كانوا يعيشون هناك، صغارًا وكبارًا؛ ثم أمر بإلقاء الجثث فى الحقول. بقت سيدتان لم يتم الثوار ذبحهما، فظلتا عاريتين فى الحقول، دون طعام أو شراب لمدة سبعة أيام، يرتشفون البرد فحسب. وقد تم إنقاذهما بحمد الله، حيث وصل إلى هناك بالصدفة بعض جنود بسطة، الذين كانوا يتفقدون الأراضى؛ وعندما ألفوهما على تلك الحالة، التقطوهما ودثروهما، وبعثوهما إلى المدينة، حيث تم علاجهما وشفيتا من جراحهما. كان ذاك المارق يدعى ظاهريًا فرانثيسكو بويرتو كارّيرو Francisco Puerto Carrero، وفى السر ابن مكنون(٣٤) Aben Mequenun، وهو اسم مسلم. عندما استشعر مجىء ماركيز بلش إلى تلك الناحية، لم يتجاسر على الانتظار؛ فهجر القلعة، وتوجه مع جميع الأفراد إلى البشرات، كما سنروى لاحقًا.

(٣٤) كثير من الموريسكيين كان له اسم مسيحى رسمى واسم مسلم يُعرف به بين الأقارب والأصدقاء. (المراجع).

الفصل الثلاثون

يتناول اندلاع الثورة فى قريتى أبلا ولاوريثينا بوادى آش، ووصفهما.

تقع مدينة غواديكس، التى يطلق عليها المسلمون غيد آيش، وتعنى نهر العش[٣٥]، على مسافة تسعة فراسخ إلى الغرب من غرناطة. وهى كائنة برابيةٍ صغيرة، موجودة أسفل تبة. وفى السفح المقابل لها نجد غوطةً فسيحةً ومنبسطة، يعبر خلالها نهر، اكتسبت المدينة اسمها منه. ينبع ذاك النهر من أعلى جبل شلير، على مقربة من ميناء لُه، ثم ينحدر مساره ليمر ما بين شريش والقصر، إلى أن يصل إلى الكيف el Quif و قلهرة - وكلاهما من مواضع سند وادى آش - ومنهما يواصل طريقه إلى الكوديا وثالابين Zalabin وإشفيليانا Ixfiliana وأسوار مدينة وادى آش، حاملاً معه المياه التى تجرى على الدوام فى اتجاه الشمال. وتمتلىء ضفتاه بالغيلات على كلا الجانبين، حيث تروى مياهه البساتين وحقول الغوطة. ههنا يخرج النهر من تلك المنطقة ليرجع إلى الجهة الغربية، مكونًا بعض الخلجان، ثم ينضم إلى نهر البيثا Peza، أثناء مروره بين تلك الجبال ليجمع قدرًا أكبر من المياه من فروع أخرى. يستكمل النهر جريانه إلى أن يلتقى ماؤه مع نهر شنيل، على مسافة فرسخ إلى الشرق من مدينة غرناطة، عند جسر نهر المياه البيضاء الكائن أسفل جبل غويخار.

---

(٣٥) هكذا يتبين تدنى مستوى اللغة العربية عند مارمول، وبالتالى لا يكون هو مترجم شواهد قبور سلاطين بنى نصر. (المراجع).

يحد وادى آش من الغرب والشمال حدود مدينة غرناطة، ومن الجنوب الماركزية التى يطلق عليها زناتي – وهى من الأراضى المملوكة للسادة النبلاء – وكذلك جبل شلير، ومن جهة الشرق مدينة بسطة. وتضم المدينة داخل حدودها أربعة وعشرين موضعًا، دون حساب البقاع التابعة لسند وادى آش، وتلك المواضع هى: لا بيثا la Peza، ولوس بانيوس (الحمامات) los Ba?os، وبياس، وألاريس Alares، وبورّيينا Purrillena، وألماتشار Almáchar، وكورتيس، وغرِيينا Greyena، ولوبروس Lubros، وفونيلاس Fonelas، ولوبيرا Lopera، وحدرّة، وديثما Diezma، وموريدة Moreda، والكوديا، والسيخينىّ el Sigení، وسالابين Salabin، وكوغويّوس دى وادى آش Cogollos de Guadix، وباولانثا Paulanza، وإشفيليانا، وفينيانا Fiñana، وغور، وأبلا، ولاوريثينا. تلك الأراضى بأسرها شديدة الخصوبة، وبها وفرة من القمح والماشية؛ كما تنتج كميات كبيرة من الحرير المأخوذ من أشجار التوت الأسود. تلك البقاع تعمرها غالبية من الموريسكيين، حتى أن المدينة ذاتها كانت تضم ما يربو على أربعمائة من منازلهم؛ وهناك قلعة قديمة ومهملة فى المنتصف، موجودة فى أعلى أجزاء المدينة ارتفاعًا. فى أثناء ذلك الانقلاب لم تثر سوى قريتين من الأراضى المملوكة للنبلاء، يدعيان أبلا ولاوريثينا، اللتان تقعان فى منطقة جبال شلير؛ وهما ما سنتناولهما فى هذا الفصل، بينما سنتطرق إلى بقاع سند وادى آش لاحقاً.

ثارت كل من أبلا ولاوريثينا فى ثالث أيام عيد الميلاد، حيث حضر إليهما بغرض إشاعة الثورة فيهما مجموعتان من الثوار الجبليين والمسلمين الثائرين، كان الغورّى – قائد جند أوهانييث – قد أرسلها لذلك الغرض؛ فدمّروا الكنائس، وقتلوا المسيحيين الذين استطاعوا وضع أيديهم عليهم. أما ثوار أبلا، فبعد أن حطّموا المذبح، وخربوا أيقونات الكنيسة، أخذوا خنزيرًا كان يحتفظ به أحد المسيحيين فى منزله، وذبحوه فوق المذبح الأكبر؛ كما اقترفوا العديد من الآثام، ودنسوا مقدسات أخرى. بعد ارتكابهم لما أسلفنا، جمعوا نساءهم وبنيهم وأعادوهم إلى البشرات؛ بينما توجهوا هم لإثارة بلدة فينيانا، حيث كانوا يفكرون فى احتلال الحصن؛ لأنهم كانوا يدركون أنه لا يوجد

مقاتلون بداخله. بيد أنهم لم يفلحوا تلك المرة، لأن الموريسكيين القاطنين بالبلدة لم يرغبوا في مرافقتهم، وقد تكرر الأمر ذاته مع أهالي سند وادي آش - الذين رفضوا القيام بالثورة، إلى أن عادت إليهم فيما بعد أعداد أكبر من الرجال، وحملوهم معهم، كما سنروى في موضعٍ آخر.

الفصل الحادى والثلاثون

يتناول توجه السيد دييغو دى كيسادا لاحتلال تابلاتى - الكائنة بوادى ليكرين - وما ألحقه المسلمين بها من دمار، ووصفًا لذلك الوادى.

يطلق اسم وادى ليكرين على الفج الواقع فى الجبل الأكبر، على مسافة ثلاثة فراسخ إلى الغرب من غرناطة، فى النقطة التى يبدأ فيها جبل شلير فى البزوغ. حيث يحده من الغرب جبل مانخارا -المتاخم لنهر الحامة، ومن الشمال كلٌ من غوطة غرناطة وسهول كيمبى Quempe - بينما يجاوره من جهة الجنوب قرى غواخار الكائنة بشلوبانية(*)، وأراضى موتريل؛ ومن الجهة الشرقية يجاورها جبل شلير، وطاعة أورخيبا. يحوى ذاك الوادى عشرين موضعًا تدعى: بادول، ودوركال، ونيغويلاس Nigüelas، والثكينة (أو الساقية الصغيرة) Acequina، وموندوخار، وحارات Harat، والرباط Alarabat، والتشيتى Chite، وبيثنار، وتابلاتى، ولانخارون، وإشبور Ixbor، وكونتشا، وغوثبيخار Guzbíjar، ومليليخيش Melegix، ومولشاس Mulchas، وريستابال Rest?bal، ولاس ألبونيويلاس las Albu?uelas، وسالاريس Salares، ولوخار Lújar، وبينوس ديل ريتش Pinos del Rich أو بينوس ديل بايى Pinos del Valle.

تلك الأراضى تتميز جميعًا بغزارة مياه الأنهار والينابيع؛ وبها غيلات ضخمة من أشجار الزيتون، وأشجار التوت الأسود، وغيرها من أشجار الفواكه، التى تمد

(*) الكاتب يعنى غواخار العالية، وغواخار دى الفغيت/الفقيد، وغواخار ديل فوندون. وكلها مواضع مأهولة بالموريسكيين. (المترجمة).

القاطنين بشتى صنوف فاكهة المناخ المعتدل ذات الجودة العالية. كما يتوفر بها البرتقال، والليمون، والليمون الحامض، وسائر أنواع الحوامض، التى تحمل إلى مدينة غرناطة وأنحاء أخرى لبيعها. أما مراعى الماشية فهى جيدة جداً، ويُحصَد بها كذلك كميات من القمح المزروع بالرى وبدونه فى الأماكن المنخفضة؛ وانتاج الحرير وفير ومتميز.

يمر عبر ذاك الوادى ستة أنهار، تنبع جميعًا من الجبل الأكبر. أولها يجرى فى الناحية الغربية، ويطلقون عليه نهر لاس ألبونيويلاس، ويعبر على مقربة من موضعى سالاريس وبينوس ديل بايي، ليتوجه بعدها للانضمام إلى نهر موتريل. أما الثانى فينبع من البقعة المحاذية لميليخيش، ويسير حتى ينضم إلى نهر لاس ألبونيويلاس أسفل ريستابال. أما الثالث فيسيل من جبل شلير، ليصب فى بحيرة ضخمة تقع بين موضعى بادول ودوركال، ومنها يكمل مساره حتى يلتقى بنهر لاس ألبونيويلاس. هذا وينبع الرابع كذلك من جبل شلير، عند قرية الساقية Acequia، حيث يتفرع إلى فرعين قبل أن يصل إلى ذاك الموقع، لتضحى البلدة فى المنتصف؛ ثم يتوجه أحدهما ليزود قرية التشيتى بالماء، بينما يذهب الفرع الآخر إلى تابلاتى. بعد ذلك يستكمل كلاهما مجراه ليصبا فى نهرى لاس ألبانيويلاس وموتريل. والخامس ينبع من جبل شلير أيضاً، ثم يتخذ مساره نحو بلدة لانخارون، ومنها إلى نهر موتريل. سادس الأنهار - الذى ينبع من الجبل ذاته، ولكن إلى الشرق قليلاً من نظرائه - هو الذى يرسم حدود كل من الوادى وطاعة أورخيبا، حيث ينحدر باتجاه نهر موتريل ليصب به، وذلك فى المنطقة التى يقع بها سورتيس وبنى ثالتى وباغو، التى توجد جميعًا فى طاعة أورخيبا.

ثارت الأماكن المنخفضة فى وادى ليكرين فى ثانى أيام عيد الميلاد، إبان وصول ابن فرج ومن معه من الثوار الجبليين القادمين من غرناطة إلى بيثنار؛ لأنهم أوهموا الموريسكيين أن المدينة وحصن الحمراء أضحيا تحت سيطرتهم، وأن الثورة قد اندلعت

بالفعل فى البيّازين؛ وأنهم قد توجهوا لنشرها فى مواضع أخرى بالبشرات، بعد أن سرقوا الكنائس وقتلوا الكثير من المسيحيين الذين كانوا يعيشون فى تلك الأرجاء. بيد أن قاطنى كل من بادول، ودوركال، ونيغويليس، ولاس ألبونيويلاس، وسولاريس لم يثوروا آنذاك، على الرغم من أن الكثيرين منهم توجهوا إلى الجبال؛ وقد أعقب ذلك اقترافهم لأمور أضرت بهم بشدة وأسفرت عن خسارتهم. كانت تابلابتى أحد المواضع التى قامت بالثورة؛ وهى تقع بالقرب من معبر مهم، لا محيص من المرور به للوصول إلى البشرات. لمّا كان ماركيز مونديخار يرغب فى بسط نفوذه عليه لاستغلاله إذا ما دعت الحاجة، فقد أمر السيد دييغو دى كيسادا أن يذهب بصحبة رجاله الموجودين فى دوركال، ترافقهم القوات التى سيمدهم بها الماركيز لذاك الغرض، للتمركز فى تابلاتى؛ على أن يرجع القائد لورينثو دى أبيلا إلى غرناطة، ومنها يتوجه لحشد الرجال من البلدان السبعة؛ لأنه كان ينتوى الخروج لمعاقبة الثوار فى أقرب وقت.

ما أن وصل ذاك الأمر إلى دوركال، حتى توجه السيد دييغو دى كيسادا إلى بيثنار، بمرافقة كل من بالبلدة من المشاة والفرسان، فألفى المنازل خاوية، والكنيسة مهدمة ومحترقة؛ فأكمل الطريق إلى تابلاتى، وهناك أيضاً وجد المنازل مهجورة، حيث صعد قاطنوها إلى الجبل. كان الرجال قد وصلوا إلى ذاك الموضع وهم يشعرون بإعياء شديد، هم والخيول، وأعقب ذلك أن ضلوا طريقهم بين الشوارع والبيوت على غير هدى، أدى ذلك إلى أنهم كانوا فى وضع يقل بشدة عن الحذر الذى ينبغى أن يتحلى به رجال مقاتلون، فرأى المسلمون – الذين كانوا يرقبون الجنود من أعلى الربوات – أن تلك فرصة جيدة لمباغتتهم. وهكذا جمعوا حشوداً غفيرةً منهم، وهبطوا من مكانهم خلسة، وانقضوا عليهم فى حمية داخل البيوت والشوارع، فقتلوا وجرحوا أعداداً كبيرة من المسيحيين. كان هناك بعض السيافين ممن لم يتسن لهم تلجيم أفراسهم، التى كانت تتناول طعامها، فتركوها وغادروا المكان فراراً على الأقدام. كان بوسع المسلمين أن يحدثوا أضراراً أشد، لو لم يتجاوز بعض الجنود حدودهم،

ويتجولوا دون أوامر ليبحثوا عما يسرقونه بين تلك الروابى(٣٦)؛ فعندما أبصروا أولئك الثوار ينزلون من الجبل عن بعد، توقعوا ما يمكن أن يقوموا به، وأخذوا يصرخون منادين على جنودنا. وقد أمنوا لهم التغطية حتى يستعدوا ويشهروا أسلحتهم، وظلوا على ذاك الحال إلى أن سمع السيد دييغو دى كيسادا -الذى كان يسير فى حذر يفوق الآخرين - صرخاتهم. ففطن إلى ما يمكن أن يحدث، وأصدر أوامره بحمل السلاح فى عجالة، وخرج إلى الميدان يصاحبه الرجال الذين استطاع جمعهم على وجه السرعة من الرجال، وأمر بتنظيم كتيبة يلجأ إليها من يلوذون بالفرار من الجنود. حينما تراءى له أن الوقت بات سانحًا، تراجع وهجر المعبر الذى كان قد تلقى الأوامر بحمايته، لأن ثقته كانت قليلة فى أولئك الرجال الجبناء، وغير المحنكين، وقليلى الخبرة الذين بحوزته. فعبر إلى بادول مرورًا ببيثنار ودوركال، وكان يدخل فى مناوشات مع المسلمين طيلة الطريق، حيث تبعوهم حتى هوة دوركال؛ لكنهم رجعوا على أعقابهم، ولم يجرؤوا على مواصلة التقدم؛ لأن تلك الأرض تعلو كلمة الفارس فيها على الراجل.

(٣٦) لعل مارمول يبرر هنا بشكل غير مباشر تجاوز الجنود المسيحيين واستيلائهم على متاع الموريسكيين دون إذن من قادتهم، وهو أمر كان موضع تقريع من بيريث دى إيثا ومندوثا. (المراجع).

الفصل الثانى والثلاثون

يتناول الاستعدادات التى قام بها كل من ماركيز مونديخار، ومدينة غرناطة فى تلك الأيام.

أدت عملية تابلاتى[٣٧] إلى رفع معنويات الثوار. عندما تنامى إلى علم ماركيز مونديخار أن السيد دييغو دى كيسادا قد تراجع إلى بادول دون أمر منه، استدعاه وأمره بالعودة إلى غرناطة، وبعث بدلاً منه القائد غونثالو دى ألكانتارا Gonzalo de Alcántara – وهو رجل محنك، تربى فى وهران[٣٨]– ومعه خمسين فارسًا. وأمره بالدخول إلى دوركال، ومحاولة الاحتفاظ بولاء ذاك الموضع، وغيره من المواضع المتاخمة التابعة لوادى ليكرين، التى لم تكن ثارت حتى الآن، حتى مجىء القوات التى ينتظر قدومها من أندلوثيا ومملكة غرناطة. بعد أن أدرك الماركيز أن الثوار يستعرضون ليس – فقط مقدرتهم على الدفاع عن بيوتهم، ولكن قدرتهم على إذلال المسيحيين فى ديارهم –، وأنهم يسيرون فى البشرات وعلى مقربة من غرناطة شاهرين الرايات، يشعلون الثورة فى القرى التى يمرون بها، ولا يتركون على قيد الحياة رجلاً مسيحيًا، كان يرغب فى تكوين جيش ليقهرهم به. لمّا ألفى لديه عجزًا فى الأفراد، والمدفعية، والذخيرة، وسائر الأمور المتبقية من أجل ذاك الغرض؛ لأن غرناطة لم يكن

---

(٣٧) يتردد مارمول فى اسم المدينة، فتارة يذكرها تابلاتى، وتارة يذكرها تابليتى. (المراجع)

(٣٨) مدينة وهران فى ذلك الحين كانت محل صراع بين تركيا وإسبانيا، وكان الطرفان يتناوبان احتلالها لأهميتها الإستراتيجية. (المراجع).

بها ما يعينه؛ وكذلك فهو لا يقدر على الاعتماد على المقاتلين الموجودين فى المعاقل الساحلية؛ لأنهم موجودون حيثما يتعين عليهم أن يبيتوا، كما أن أعدادهم قليلة؛ لذا فقد بعث رسائل على وجه السرعة إلى المراكز الكبرى، ومدن، وبلدان أندلوثيا لينبههم إلى اندلاع الثورة، ويخطرهم برغبته فى الخروج شخصيًا لإخماد الثورة، ويخبرهم أيضًا بما يلاقيه من نقص فى كل من المشاة والفرسان يعوقه عن تحقيق ما يريد؛ وأمرهم باسم جلالة الملك أن يبعثوا إليه بأكبر عدد يتمكنوا من جمعه.

حينما تأخر المأمورون القضائيون فى تنفيذ ما طلب منهم – لأنهم حسبوا أن الأمر لا بد أن يكون كالمرات الفائتة، التى تم تنبيههم فيها لاتخاذ الحيطة، ثم عاد الرجال أدراجهم لأنه لم يكن هناك حاجة لمجهوداتهم – بادر المجلس الملكى بإرسال تعزيزات بشق الأنفس، وأمرَ الرجال أن يمتثلوا لقرارات ماركيز مونديخار بكل همة. أما الماركيز، فقد أصدر أوامره بالمبادرة بتهيئة المؤونة والذخيرة داخل مدينة غرناطة وخارجها، أثناء انتظاره مجىء تلك القوات. وحمل رجاله على إعداد كل الأمور اللازمة لتكوين جيش. وقد بدأ التحضير للأمر ووضع الأمور فى نصابها منذ يوم السادس والعشرين من شهر ديسمبر، وحتى اليوم الثانى من يناير. لم تكن هناك أموال من جلالة الملك تكفى لتعينهم على تنفيذ ذلك، لكنهم استعانوا بجهاتٍ أخرى واستغلوا أقصى الامكانيات المتاحة. لما كانت بقاع الساحل تعانى عجزًا فى الرجال والمؤونة، ولا يمكنها التزود بما يلزم عن طريق البر، فقد كتب الماركيز إلى مدينة مالقة ومتعهد التوريدات بدرو بيردوغو، وأوكل إليهما مهمة إمدادهم بالمطلوب عن طريق السفن الشراعية ذات الساريتين والمراكب، أو بأفضل الطرق المتاحة لهم.

كان فرانثيسكو أريبالو دى ثواثو هو المأمور القضائى لتلك المدينة ولمدينة بلش، وهو فارس يتبع رهبانية سانتياغو، ورجل محنك بحكم عمره، ويولى عنايةً فائقةً للمسئولية الملقاة على عاتقه. لذا فقد أرسل بدوره إلى كاستِل دى فيرّيرو – التى لم يعد بها سوى الحاكم وغلامان – القائد سانشيثنار Sanchîznar، ومعه عشرون رجلاً

وبعض البنادق. كما أرسل دييغو بارثانا إلى شلوبانية مع خمسين من الرماة، وأرسل كذلك دييغو دى مندوثا Diego de Mendoza إلى موتريل على رأس ستين رام آخرين. أما متعهد التوريدات، فقد أمدّ تلك المواضع، بالإضافة إلى المنكب وسائر البقاع الكائنة على الطريق وصولاً إلى ألمرية، بالمؤونة والذخيرة على قدر استطاعته؛ لأنه كان متحفظًا فيما يتعلق بمقدار الاحتياجات الحالية.

كذلك فقد قرر المجمع الديرانى لغرناطة، على ضوء قلة أعداد المقاتلين النظاميين، وعظم الخطر المحدق بالجميع وشموله، أنه من الأفضل تسليح كل الأهالى، وتكوين فرق مقاتلين منهم دون استثناء أى فرد. كما أقر تنصيب قائد فى كل دائرة، على أن يرفع لواءً ينضم إليه كل المقيمين بتلك الدائرة؛ ويأمرهم القادة بأن يطوفوا بالمدينة كل ليلة فى نوبة حراسة لدوائرهم وثكناتهم، على أن تتواجد وحدة الحراسة فى مقار المحكمة الملكية، لقربها من الميدان الجديد -الذى سيضحى ساحة التدريب والعرض. وقد دخل الأمر حيز التنفيذ، فلمّا كان المواطنون لا يمتلكون أسلحةً جرى البحث عن السلاح، وتم تسليمهم إياه. وعند نقطةٍ ما تحول أهل الحرف جميعًا إلى مقاتلين غير نظاميين، إلى الحد الذى أمسى فيه الكتبة الإداريون والمحامون ونواب المحاكم يدخلون جميعًا بالسيوف فى غمدها، وكان المظهر رائعا حينذاك، كما شكل تجار جنوة - الذين كانوا يقطنون فى تلك المدينة - جماعة خاصة بهم، كانت تمثل بأسلحتها وهيئة طاقمها قيمةً مضافةً للوحدات الأخرى. وهكذا بدأت دوريات الحراسة، وتمركزت الكتائب والثكنات فى المواضع والأماكن التى بدت أكثر موائمة. أما سيادة الرئيس والمستشارون الحقوقيون، فقد أذاعوا أن كل الأهالى والقاطنين بغرناطة عليهم الامتثال لما يمليه عليهم المأمور القضائى، بيد أن ذلك الوضع لم يدم طويلاً؛ لأن جلالة الملك بعث رسالةً إلى كلٍ من رئيس المحكمة الملكية والمأمور القضائى يشكر لهما حرصهما على حماية المدينة، ويأمرهما بإطاعة ماركيز مونديخار - حاكمهم العام، الذى يقع على عاتقه كل مهام القتال والحرب - كما كتب ما يفيد نفس المعنى إلى المجمع الديرانى، حيث تراءى لجلالته أن فى ذلك نفعًا أكبر.

الفصل الثالث والثلاثون

يتناول ذهاب السيد خوان ثاباتا بصحبة مائة وخمسين رجلاً لتعزيز غواخار ديل فوندون، ومقتله على أيدى المسلمين.

كان موضع غواخاراس ديل فوندون يتبع السيد خوان ثاباتا Juan Zapata، الرجل الغرناطى الذى كان موجوداً فى تلك الآونة ببلدة موتريل. ورغبةً منه فى تجنيب أهالى بلدته أذى الثوار الجبليين الذين يجوبون الأراضى وينشرون فيها الثورة، جمع مائة وخمسين رام من جنود الساحل، وتوجه معهم إلى بلدته فى يوم الخميس الموافق الثلاثين من شهر ديسمبر ، ما بين الرابعة والخامسة مساءً. اضطرب الموريسكيون عقب رؤيتهم إياه قادمًا مع أولئك الرجال المسلحين، وتضرعوا إلى الكاهن القانونى لكى يخبره كيف أن سائر البقاع تموج بالقلاقل، وتعمر بالموريسكيين الغرباء – الذين قدموا فراراً من مواضع أخرى – وما يتصفون به من سلوك سيئ ؛ وإنه سيكون من الأجدى له أن يعود أدراجه إلى موتريل قبل أن يلحقه أى ضير. فذهب إليه الكاهن القانونى ليتحدث معه، يرافقه الحاجب غونثالو تيرتيل ونفر من نواب مجلس البلدية. وقد طالبوه بإلحاح أن يرجع إلى موتريل؛ لأن وجوده هناك لن يسفر سوى عن اندلاع الثورة فى ذاك الموضع؛ بيد أنه رد عليهم قائلاً إنه قد أتى بأولئك الجنود على نفقته لحمايتهم من الثوار الجبليين، إذا ما جاءوا إلى هناك للنيل منهم؛ وإنه يتعين عليهم دفع رواتبهم وإطعامهم. وطلب منهم أن يجلبوا له لاحقًا مائتى دوقية، وخبزًا، ونبيذًا، ولحمًا إلى الكنيسة، وهو المكان الذى سيلجأون إليه، لأنهم لا يرغبون فى أن يمسى الجنود عبئاً على المنازل. أجابه القوم بأنهم لن يتسنى لهم تنفيذ أى من مطالبه، نظرًا لما رآه

من الأوضاع الراهنة التى تشهدها البلدة؛ فهددهم أنهم إذا لم يذعنوا لطلبه، فإنه سينهب المنازل التى يقيم بها الموريسكيون الغرباء، ويمكن أن يحل الدور فيما بعد على ممتلكات الأهالى.

بذلك الرد قفل الموريسكيون عائدين إلى البلدة، بينما ظل الكاهن القانونى مع السيد خوان ثاباتا يلح عليه فى الرجوع قبل أن يحل الظلام؛ لأنه كان هناك عشرة موريسكيين فى مقابل كل مسيحى، ومن الجائز أن يلحقوا به الأذى. عندما رأى الكاهن أن التوسلات والمخاوف التى طرحها عليه لا تجدى نفعًا، تركه وقصد موضع غواخار العالية حيث يوجد منزله؛ لأن السيد خوان ثاباتا لم يقبل أن يبيت الرجل معه تلك الليلة، على الرغم من شدة تضرعه إليه. أما الموريسكيون، الذين أثارت حفيظتهم الإجابة التى منحهم إياها السيد خوان ثاباتا، فقد عقدوا العزم على قتله، هو والجنود الذين أحضرهم برفقته؛ وقاموا من أجل ذلك بحشد كل الرجال المسلحين، وساروا فى الطريق إلى الكنيسة. وقد اصطحب الحاجب الكاهن القانونى ورجاله، لأنه كان يخشى عليهم من القتل، وحبسهم فى غرفةٍ بمنزله ليس بها مفتاح، ومعهم مسيحيون آخرون من البلدة.

كان أول ما قام به الموريسكيون هو احتلال أبواب الكنيسة، للحيلولة دون خروج الجنود -الذين تمركزوا داخلها غير مبالين للقتال. وكان الموريسكيون قد جلبوا العديد من حزم الحطب، وأعواد القصب، ونسالة حبل القنّب المطلية بالزيت، فأضرموا فيها النيران مع حلول المساء. حينما أبصر الجنود أنفسهم محاطين بألسنة اللهب، أرادوا الخروج إلى الساحة؛ لكن الرماة وحاملو البنادق الواقفون أمام الأبواب، والنيران الضخمة التى كانت تشتعل حولها، حالت دون ذلك. إذا كان بعض الجريئين قد أقدموا على ذلك، فقد لقوا حتفهم. لمّا تزايدت ألسنة اللهب فى كل مكان، احترقت أسقف الكنيسة، وظلت مشتعلة حتى تهاوت؛ وأخذت القراميد، والآجر، والأخشاب المحترقة تسقط فوق رؤوسهم على الأرض. وقد ماتوا جميعًا ميتات مختلفة: فمنهم من اختنق

بالدخان والغبار، وآخرون انهال عليهم المبنى، وهناك من تفحموا بين اللهب، حتى أنهم أُبيدوا جميعًا فى غضون ساعة، ما عدا ثلاثة استطاعوا الافلات بأنفسهم.

قُتِلَ السيد خوان ثاباتا وهو يحاول فتح طريق لباقى الرجال لكى يتمكنوا من الخروج لقتال الموريسكيين، وكان معه بعض الجنود البواسل الذين حذوا حذوه. وقد شاهد ذلك الحدث الحزين الكاهن القانونى ومن كانوا برفقته من المسيحيين، من إحدى النوافذ الموجودة بمنزل غونثالو تيرتيل؛ وكانوا يخشون أن يتوجه المسلمون فيما بعد ليقوموا معهم بالأمر عينه. إلا أن الموريسكى قدم إليهم، وطمأنهم إلى أنه سيرسلهم إلى موتريل خلال ثلاثة أيام فى صحبة خمسين من أصدقائه؛ وقد أوصلوهم إلى موضع على مقربة من البلدة، ودخلوا إليها سالمين آمنين مع المنقولات التى استطاعوا أن يحملوها معهم. ولم يكن ذلك هو الشىء الوحيد الجيد الذى قاموا به؛ لأنهم حينما رأوا تصميم المسلمين والخطر المحدق بالسيد خوان ثاباتا قبلًا، بعثوا أحد الموريسكيين إلى ماركيز مونديخار على وجه السرعة، لتنبيهه إلى ما يدور، لكى ينقذهم بطريقة ما فى الوقت الملائم، قبل أن يفنوا. وقد أمر الماركيز من جانبه القائد لورينثو دى أبيلا - الذى كان موجودًا فى دوركال - أن يذهب لنجدتهم على رأس خمسين من الجنود المسلحين بالبنادق. تحرك القائد فى اليوم التالى لإنقاذهم، وحينما نزل بخان على منحدر يدعى ثيبادا Cebada، يفصل موتريل عن الطريق المؤدية إلى غرناطة، تنامى إلى علمه الدمار الذى لحق بالمسيحيين جميعًا، فعاد أدراجه دون أن يبيت هناك.

الفصل الرابع والثلاثون

يتناول رغبة المسلمين فى نشر الثورة فى بقاع نهر المنصورة، والسبب الذى منعهم من ذلك.

عقب اندلاع الثورة فى موضع خيرغال، أرسل الغورّى إلى أهالى قرى نهر المنصورة ينبههم إلى انتشار الثورة فى الأراضى بأسرها، لكى يقوموا بالأمر ذاته؛ وحذرهم من أنهم إذا لم يستمعوا لما يقول، فسوف يغير عليهم ويدمرهم. بينما أخذ الجواسيس الذين أرسلهم فى إقناع الموريسكيين بالقيام بالثورة، وذلك فى يوم الجمعة الموافق لآخر أيام شهر ديسمبر. تصادف فى الليلة ذاتها أن وصل إلى هناك دييغو راميريث دى روخاس Diego Ramírez de Rojas، حاكم ألمونيا Almuñia الذى حضر لاصطحاب زوجته وعائلته إلى بلدة أوريا، على خلفية القلاقل الموجودة فى البشرات. عند وصوله على مقربة من المكان، التقى بعض المسيحيين الذين كانوا فى طريقهم للالتجاء بذات الحصن، بمقتضى تحذير نفر من أصدقائهم الموريسكيين لهم. وقد علم منهم بكيفية وصول مسلمين من خيرغال وغيرها من المواضع لإثارة الأراضى، امتثالاً لأوامر الغورّى؛ وعلى الرغم من أنهم رجوه ألا يتقدم إلى الأمام؛ لأنه سيجابه مخاطر كبيرة، فإنه لم يشأ أن يستمع إليهم.

تابع السيد دييغو مسيرته حتى وصل إلى ألمونيا قبيل بزوغ الفجر، وتوجه مباشرةً إلى الساحة دون أن ينزل من على صهوة جواده؛ وأخذ ينادى صاحب الدكان الذى يبيع عجينة الخبز، وذاك على سبيل التحايل حتى يسمع الأهالى صوته، فسأله عن كمية الطحين الموجودة لديه بالمنزل، وعندما أجابه بأنه لا يمتلك سوى قدر قليل

جداً، قال له أن يأتي لاحقًا إلى الدار، ويجلب معه عشرين مكيالاً من الدقيق، ثم يعجنه، وهو أمر ضرورى لتموين معسكر ماركيز بلش الذى سيصل فى ذاك اليوم إلى النهر بصحبة خمسة عشر ألف رجلًا. ثم ترجل عند مسكنه، وتناول مداداً وورقةً، وشرع يكتب - أمام الموريسكيين الموجودين بالمكان - أربع رسائل إلى مجالس كل من باكاريس، وسِيرون Serón، وتِيخولا Tíjola، وبورتشينا، لينبههم إلى ضرورة التزود بكميات كبيرة من المؤونة لذاك الغرض، وأرسلها مع أربعة من الموريسكيين. فى أعقاب ذلك انتشر الخبر فى سائر قرى حوض النهر وجبال بسطة، حول قدوم ماركيز بلش بنفوذه وسطوته إلى تلك المنطقة. عندها اعتقد المسلمون الذين كان الغوريّ قد أرسلهم فى صحة ما يقال، ورجعوا إلى البشرات، بعد أن بعثوا إشارات بالدخان فى أرجاء الجبال، وقد وصل بعضهم إلى خيرغال، وأخبروا بويرتو كاريّرو بالأمر. فبات الرجل يفتقر إلى الشعور بالأمان فى القلعة، فهجرها، وتمركز هو ومن معه من الرجال فى طاعة مارتشينا.

كانت تلك الحيلة، التى لجأ إليها دييغو راميريث دى روخاس فى تصميم شديد، الداعى وراء عدم ثورة تلك المواضع آنذاك. وهو لم يخدعهم فيما قال؛ لأنه فى يوم الأربعاء الموافق عشية عيد الظهور(*) قدم ماركيز بلش إلى موضع أولولا Olula فى ثلاثة آلاف راجل وثلاثمائة فارس، ثم انتقل منها ليدعم المرية حيث أقام فى تابيرناس. وهكذا ربما يكون الحاكم قد بالغ فى عدد الرجال، بيد أنه لم يقل سوى الحقيقة فيما رواه عن مجىء الماركيز.

(*) يتم الاحتفال به فى كل عام فى السادس من شـهر يناير، وقد اعتاد الناس تبادل الهدايا أو العيديات فى ذاك اليوم إحياء لذكرى هدايا المجوس إلى المسيح، وفقًا للزعم السائد. (المترجمة).

الفصل الخامس والثلاثون

يتناول وصف مربلة وأراضيها، والكيفية التى قام بها موريسكيو إستان بالثورة.

تقع مدينة مربلة على ساحل البحر الأبيض المتوسط فى شبه الجزيرة الأيبيرية، وهى محاطة بالأسوار والأبراج، وتحوى قلعةً قديمة. وهى كائنة بأرض سهلية، وبها ثمانمائة منزل. كانت قديمًا تدعى ماربيلى Marbilli، ولم يغير المسلمون اسمها. حدودها جميعًا تقع فى مناطق جبلية شديدة الوعورة والانحدار، وليس بها سوى أرض زراعية منبسطة واحدة، تمتد على مدى أربعة فراسخ باتجاه الغرب؛ جعل منها مواطنوها، وسكان باقى مواضع تلك المنطقة مزارع لهم. أما الجبال، فهى على الرغم من وعورتها، عامرة بالكروم، والغيلات المملوءة بأشجار التوت الأسود، وشجر القسطل، والجوز، وأشجار أخرى على تلك الشاكلة؛ كما أن بها وفرة من الكلأ لرعى الماشية. يكسب الناس قوتهم بصورة أساسية فى تلك الأراضى من تجارة الحرير، ومن الزبيب والنبيذ، اللذين يعبأن فى ذاك الميناء على متن السفن القادمة من كل من فلانديس، وبريطانيا، وإنجلترا.

إبان حكم المسلمين، كان العديد من البقاع التى تدخل فى نطاق مربلة تقع بين تلك الأودية، إلا أن نارباييث Narbáez - حاكم جبل طارق - قد أخلى غالبيتها من قاطنيها، حينما أخذهم أسرى أثناء نشوب الحرب؛ أما بقية المواضع فقد هجرها أهلها للذهاب إلى بلاد المغرب، بعد أن ظفر الملكان الكاثوليكيان بمملكة غرناطة. فلم يبق منها

جميعًا سوى خمسة مواضع قائمة، هى: أوخين Hojen، وإستان Istín، ودايدين Daidin، وبنى حبوس Benahaduz، وإستيبونا Estepona.

يحد مربلة من الغرب جبل طارق، ومن الجنوب البحر الأبيض المتوسط، ومن الشرق مدينة مالقة، ومن الشمال مدينة روندة. توجد بدايات الجبل الأحمر (بيرميخا) Sierra Bermeja داخل الإطار الحدودى لمربلة، بينما يستكمل الجبل مسيرته لمسافة تربو على ستة فراسخ إلى الغرب فى نطاق أراضى روندة، وصولاً إلى البقاع الخلفية الغربية أو الأبارال، التى يطلق عليها كاساريس Casaresأو غاوسين؛ ويقطع الجبل تلك المسافة على بعد من البحر، يقل أو يزيد بعض الشىء عن الفرسخ. وأراضى مربلة لا يقطعها إلا نهر واحد – النهر الأخضر el río Verde - وله شهرة واسعة ترجع إلى الهزيمة النكراء التى منى بها رجالنا هناك. ينبع ذاك النهر من جبل آخر مرتفع موجود باتجاه الشمال، وهو يبعد أربعة فراسخ عن البحر، ويطلق عليه جبل بِلانكيّا Sierra Blanquilla؛ وسوف نشير إليها وإلى غيرها من الجبال التى تتفرع منها عندما نتطرق إلى وصف مدينة روندة. يسيل ذاك النهر فى أودية شديدة الانحدار، ثم يخرج إلى بساتين إستان، التى يغادرها ليصب فى البحر على مسافة فرسخ إلى الغرب من مربلة؛ فتضحى إستان إلى اليسار منه، وجبل أربوتو Arboto- وهو بداية جبل بيرميخا – على يمينه.

كانت إستان على الدوام موضعًا ثريًا، وقد أمست فى تلك الآونة أغنى من مثيلاتها فى تلك المقاطعة. اندلعت الثورة هناك فى أول أيام العام الجديد، وكان الداعى لقيامها هو أحد الأهالى الموريسكيين، ويدعى فرانثيسكو باتشيكو مانخوث Francisco Pacheco Manxuz. وكان قد مضى عليه ستة أشهر وهو يترافع فى دعوى أقامها أمام هيئة محكمة غرناطة، بشأن إطلاق سراح أحد أبناء إخوته. فلمّا علم بما ينتويه أهالى البيّازين، من خلال رسائل فرج بن فرج وآخرين، عرض عليهم أن يحمل موريسكيى بقاع جبل بيرميخاس على الثورة؛ فبعث إليه الخائن الأكبر(*) كتابةً بالأوامر حول ما

(*) هذا هو اللقب الذى منحه المؤلف لفرج بن فرج. (المترجمة).

يتعين عليه القيام به، ورسَمه قائداً على تلك المنطقة. أدت تلك الضمانات إلى قدوم مانخوث إلى إستان يملأه الزهو، فأفهم أهالى البلدة - وكانوا جميعًا من الموريسكيين - أن غرناطة والمملكة بأسرها تموجان بالثورة، وأن أوضاع المسلمين فى تقدم وازدهار؛ وحرضهم على الثورة ونفوسهم مطمئنة فى جبل أربوتو، وهو الموقع المنيع - نظرًا لوعورة تضاريسه - الذى كانوا ينتوون اللجوء إليه. من أجل أن يتسنى للماشية والمتاع الصعود أعلى الجبل عندما تدعو الحاجة لذلك، قاموا بفتح طرق الرعاة القديمة، التى كانت قد أُغلقت وباتت مهملة، لمّا توقف الناس عن ارتيادها.

أسفرت محاولات إقناع ذاك الرجل الآثم للأهالى عن استثارتهم، وفى يوم الحادى والثلاثين من شهر ديسمبر وصل ستون ثائرًا جبليًا، كان فرج بن فرج قد أرسلهم لحثهم على الخيانة[٣٩]. فقام أولئك بتأكيد كل ما قاله مانخوث، وأفلحوا فى دفعهم للقيام بالثورة بعد ذلك، حيث قضوا تلك الليلة يطالبون المواطنين واحداً واحداً بذلك الأمر؛ حتى إنهم مع طلوع الصباح كانوا قد باتوا جميعًا خارج البلدة، ولم يتبق بها سوى موريسكيين اثنين لم يرغبا فى مرافقتهم يدعيان: بدرو دى روخاس عثمان Pedro de Rojas Hozm?n، ولورينثو الأزرق Lorenzo Alazarac.

كان الكاهن القانونى لتلك البقعة هو السيد بدرو دى إسكالانتى، ولم يكن قد مضى عليه وقتٌ طويلٌ بالمكان. ولمّا لم يكن يمتلك منزلاً خاصًا به، فقد كان يقيم فى برج قديم يرجع إلى عهد المسلمين، كان مبنيًا على هيئة الحصن. كان الموريسكيون يرغبون فى اعتقاله والقضاء عليه، بعد أن بدأت ثورتهم؛ فخرج واحد منهم يطلبه على عجل، قائلاً إن عليه أن يخرج لسماع اعتراف إحدى الموريسكيات التى تحتضر. فامتنع الكاهن عن الذهاب، ليس شكًا منه فى مسألة الثورة - كما أنبأنا لاحقًا - بل لأن الوقت كان ليلاً، ولم يكن هناك مسيحى عداه فى البلدة. فأجاب من يناديه بأن

(٣٩) يقصد الثورة. (المراجع).

ينتظر إلى أن يبزغ الفجر، وإن المرأة لن تموت بتلك السرعة التى تمنعها من الاعتراف فى الصباح. فرجعوا إليه بعد برهة برسالة أخرى، حيث استحلفوه بمحبته للرب أن يفتح أبواب البرج؛ لأن أهل مربلة قادمون للإجهاز عليهم، ويريدون قتل من بالبلدة من النساء، لكنهم لم يتمكنوا من خداعه.

لم يمض وقت طويل حتى كان الموريسكيان، اللذان ذكرنا سلفًا أنهما بقيا فى البلدة، قد وصلا إلى نافذة الغرفة التى ينام بها الكاهن؛ ورجياه أن يسمح لهما بالدخول؛ لأن كل الأهالى يلوذون بالفرار إلى الحقول، وهما لا يريدان الذهاب معهم، بيد أن ذلك لم يحمله على الوثوق بهما إلى أن طلع النهار. عندئذ جاء حائك مسيحى كان قد تصادف مبيته هناك فى تلك الليلة، وكان قد أحس بالصخب الذى أحدثه الناس أثناء مغادرتهم؛ فانضم إليه، وتوجها صوب الكنيسة ليعلما حقيقة الأمر، فألفيا عثمان وامرأته فى الطريق، وكانا لا يزالان على رغبتهما فى الاحتماء بالبرج؛ وبينما هم يتحدثون، أبصروا جمعًا من الغلمان مسلحين بالأقواس والبنادق، كانوا قادمين لقطع الطريق عليهم. أطلق أحدهم النار من بندقيته نحو الكاهن القانونى، لكنه لم يفلح فى إصابته، حيث تمكن من الدخول هو ورفيقه إلى بيت عثمان؛ وما كادوا يوصدون الباب ويغلقون المزلاج، حتى أخذ الغلمان يطرقون الباب لكسره، وهم يصيحون بصوت عال: "تعال إلى الخارج أيها الكلب الفقيه".

هـهنا طلب عثمان من الكاهن أن يحترس وينتبه لنفسه؛ لأن القوم يريدون قتله. عندها خلع الرجل ثيابه، وترك غمد السيف الذى كان يحمله ؛ وعاون الموريسكى كلاً من الكاهن والحائك لكى يتسلقا جدارًا فى الأعلى؛ لأنهما أرادا الوصول إلى بوابة تؤدى إلى الحى الموجود به البرج، عن طريق المرور عبر أسطح المنازل الأخرى؛ فلمّا رأيا أن المسلمين قد استولوا على البوابة بالفعل، دفعهما الخوف من القتل للاختباء فى مربض للخيل. لم يقصر عثمان فى مساعدتهما قدر استطاعته للنجاة بأرواحهما، وعندما رأى أن من كانوا بالباب يريدون هدمه قد ابتعدوا عن المكان، راح يبحث عن الرجلين المسيحيين، ثم ذهب إليهما، وأنزلهما من ذات الجدار الذى ساعدهما من قبل

على اعتلائه، ثم فتح لهما الباب، وأخبرهما أن المكوث فى ذلك الموضع لن يجديهما؛ لأن الثوار يريدون قتلهما. هكذا لم يتوان الرجلان عن اللجوء إلى الحقول، بعد أن قفزا من فوق أسياج وصخور، كما لو كانا فى أراض مستوية إلى أن سلكا شعاب الجبل الذى يتوسط الطريق بين ذاك المكان ومربلة. وهناك أبصرهما أولئك الجنود الغلمان، وخرجت فى أثرهما كتيبة، راحت تتبعهما لمسافة تزيد عن الفرسخ؛ بيد أنهما لم يتمكنوا من اللحاق بهما، لأن الرجلين كانا يهربان، بينما كان الغلمان يجرون وراءهما(٤٠).

وهكذا وصل الرجلان إلى المدينة قبيل انتصاف النهار بساعتين، أنفاسهما لاهثة وهما يتصببان عرقًا وتملأهما الخدوش - التى لم يكونوا قد أحسوا بوجودها إلى ذلك الوقت- من جراء تعثرهم فى نباتات العوسج والأشواك. كان الكاهن أول القادمين، فقرع ناقوس الإنذار، وأخبر الأهالى أن موريسكيى إستان قد ثاروا وهم راغبون فى قتله. بالكاد عثر الرجل على من يصدّقه، فقد كان تصديق المواطنين لأهالى تلك البلدة وثقتهم فيهم دون حدود؛ لأن موريسكيى إستان أناس أثرياء، فلم يصدق المسيحيون أنهم يودون إهلاك أنفسهم؛ وهكذا أخذ العديد من الأهالى يواسون الكاهن ويهدئون من روعه، قائلين إن القوم لابد أن يكونوا قد ضبطوه مختبئًا فى إحدى الزوايا برفقة إحدى النساء.

كان الكاهن قد خلّف وراءه فى البرج فتاةً كانت بصحبته من بنات إخوته تدعى خوانا دى إسكالانتى Juana de Escalante، وإحدى فتيات الخدمة؛ بينما كان الرجل يلوذ بالفرار، ألفى المسلمون الباب مفتوحًا - كالهيئة التى تركها عليه الكاهن - فدلفوا إلى الداخل، وسطوا على القمح والزيت وأشياء أخرى كانت بالطابق الأول، كما قبضوا على الفتاة التى تصادف وجودها بالأسفل. أخذت الفتاة تبكى، ورجتهم أن يدعوها

---

(٤٠) أى أن من يجرى لينجو بنفسه يكون أكثر سرعة ممن يطارده. (المراجع).

تصعد إلى أعلى لتكون مع سيدتها. كان بالبرج درج ضيق، وعال، وشديد الاستقامة؛ حينما أبصرت ابنة أخ الكاهن الخطر المحدق بها، وضعت على درجة السلم الأخيرة حجراً ضخماً، وجعلت إلى جوارها أحجاراً أخرى كثيرة كانت موجودة فى موضع التخزين بالأعلى، من أجل أحد الأعمال التى كان مقرراً القيام بها. لمّا كانت الخادمة قد باتت بصحبة الفتاة، صممت تلك الأخيرة ألا تدع أحداً يصعد إلى الطابق الأعلى؛ فجمع الرجال الغنائم، وغادروا البهو. كان هناك بعض الغلمان ممن أرادوا أن يذهبوا إلى حيث توجد الفتاتان، فاتخذت الشابة وضع الدفاع، وبدأت تلقى الأحجار من أعلى الدرج، فقتلت أحد الغلمان، ولاذ الباقون بالفرار. وعندما ألفت البرج خاوياً، لم تضع الوقت وسارعت بالنزول، فأغلقت الباب وأوصدته بدعامة خشبية، ثم عاودت الصعود إلى أعلى.

لم يتأخر المسلمون فى الرجوع لاصطحابها هى ورفيقتها، وعندما وجدوا الباب مقفلاً أرادوا كسره؛ بيد أن الفتاة دافعت عن نفسها فى بسالة، كما كان سيفعل أى شاب متحمس، وشرعت تقذفهم بالأحجار الثقيلة من إحدى الفتحات ومن أعلى الجدار. وهكذا أجبرتهم على التراجع، وشجت رأس بعضهم؛ على الرغم من أنهم أطلقوا عليها سهماً، اخترق ذراعها على مقربة من كتفها، لم تكف عن القتال، ولم تتوقف لخلع السهم طيلة القتال الذى تعدى ثلاث ساعات؛ وكانت تحطّم الحوائط للحصول على المزيد من الحجار لإلقائها على الرجال، بعد أن نفد ما كان لديها. عندئذ وصل السيد بارتولومى سيرّانو Bartolomé Serrano، وهو فارس من لواء الفرسان التابع للسيد غوميث أورتادو دى مندوثا Gómez Hurtado de Mendoza – قائد قوات مقاتلى مربلة – الذى خرج استجابةً لدق ناقوس الإنذار، يصحبه ثلاثون سيافاً وثلاثمائة من المشاة. ولما كان النهار قد انتصف منذ ساعتين، فقد ألفى المسلمين يقاتلون البرج، فأخذ يناوشهم، وأجبرهم على التراجع؛ بيد إنه لم يقو على هزيمتهم؛ لأنهم صعدوا إلى بعض الصخور الموجودة بين ذاك الموضع والنهر، حيث لا تقدر الخيول على السير. وهكذا رجع فى تلك الليلة إلى مربلة، واصطحب معه الفتاة والخادمة، وترك الأرض وراءه تموج بالثورة.

الفصل السادس والثلاثون

يتناول مجابهة مدن روندة، ومربلة، ومالقة للثوار؛ والاحتياطات التى اتخذتها قرى مالقة.

فى يوم الأحد الموافق الثانى من يناير، اجتمع فى مربلة حوالى ثلاثة آلاف رجل، وبعد أن قام أولئك بتنبيه كل من مدينتى روندة ومالقة حول قيام الموريسكيين بالثورة، عادوا لملاحقة الثوار. عندما افتقر أولئك الرجال إلى الأمان فى الجبال التى كانوا قد لجأوا إليها فى ذاك الصباح، صعدوا إلى الجبل عبر الممرات التى قاموا بفتحها، يسوقون أمتعتهم التى حزموها ومواشيهم أمامهم؛ وتوجهوا للتمركز فى منطقة أربوتو المنيعة، الموجودة إلى الشمال من النهر الأخضر، وتبعد قدر فرسخ عن إستان. ولم يفلح رجالنا فى التصدى لهم فى ذاك اليوم أيضًا، نظرًا لوعورة الجبال التى قصدوها، وصعوبة تضاريسها؛ فساروا بمحاذاة النهر هبوطًا فى الطريق المؤدى إلى روندة، وتوجهوا إلى بلدة أربوتو ذاتها - وكانت مهجورة - ليقيموا بها معسكرهم عند سفح جبل بيرميخا. وقد أتى إلى ذاك الموضع فى اليوم التالى الأب أنطونيو غارثيا دى مونتالبو Antonio García de Montalvo - المأمور القضائى لكل من روندة ومربلة - فى صحبة ما يربو على أربعة آلاف رجل. ولم يبادر رجالنا بالهجوم على الثوار فى ذاك اليوم، على خلفية الخلاف الذى دار بين الأب أنطونيو والسيد غوميث أورتادو دى مندوثا - الذى يترأس القوات القادمة من مربلة - وأخروا المعركة إلى اليوم التالى الثلاثاء. لم يجرؤ المسلمون على الانتظار، وهجروا مكانهم المنيع فى الصباح الباكر، وفروا جميعًا - رجالاً ونساءً - بعد أن أضرموا النيران فى الأكواخ والمؤونة الموجودة

بداخلها. لم يهنأ المطاردون بالفريسة؛ لأنهم وقعوا فى قبضة أناس آخرين كانوا فى طريقهم للانضمام إليهم من: موندا، وغوارو، وتيليكس Telex، وكاثارابونيلا، وتيبا Teba، وأرداليس Hardales، وكامبيّو Campillo، وألورا، وكوين، وكارتاما Cartama، والحورين Alhaurín. عندما عثر أولئك القادمون على النساء والأطفال والشيوخ مشتتين ويلوذون بالفرار فى تلك الجبال، أسروهم جميعًا، ولم يتفاداهم سوى الرجال الفرادى، ومن لا تعوقهم الأحمال.

عقب اندلاع الثورة فى إستان، لم تعد مدينة مالقة تثق كثيراً فى الموريسكيين القاطنين فى المنخفض الموجود بها؛ فأمرت مسيحيى كوين باللجوء إلى موندا، ومسيحيى ألورا بالذهاب إلى تولوكس؛ لأن كليهما موضعان شائكان، وهكذا لن يتسنى لهما القيام بالثورة؛ على أن يشغل المسيحيون منزلين منيعين كان ماركيز بيينا - الذى تتبعه كلتا البلدتان - قد أقامهما بهما. كما كلّف السيد كريستوبال دى كوردوبا Cristóbal de Córdoba - حاكم كاثارابونيلا - بالتوجه إلى الحصن، فهى خطوة مهمة، وكان الحصن مهملاً ؛ فقامت المدينة بإصلاحه لاحقًا، وزوّده بمائة وخمسين جنديًا لحماية البلدة. عندما تبين أن وجودهم هناك ليس ضروريًا؛ لأن موريسكيى البلدة كانوا من المسالمين، أرسلوهم فيما بعد إلى يونكيرا Yunquera؛ وقد أحدثوا بها قلاقل واضطرابات شديدة للغاية، حيث نهبوا البلدة، واعتقلوا سائر النساء الموريسكيات، وجلبوهن معهم فى طريق عودتهم إلى ألوثاينا. وقد لاقاهم غابرييل ألكالدى دى غوثون Gabriel Alcalde de Gozón - أحد أهالى كاثارابونيلا - عند الموضع الذى يطلقون عليه خورول Jorol، وكان يجوب الأراضى لتهدئتها على رأس خمسين رام، تنفيذًا لأوامر أرّيبالو دى ثواثو؛ فأخذ النساء من بين أيديهم، واعتقل بعضًا منهم، تمت معاقبتهم لاحقًا .

توجه غاسبار بيرنال Gaspar Bernal بصحبة مائة رجل إلى برج غوارو، الموجود بجوار موندا؛ وقام بإصلاح حصن ألموخيًا Almoxía، وأمر أهالى الموضع المسيحيين أن يحتشدوا بداخله. كما نبه قادة حصون ألورا، وألوثاينا، وكارتاما، لكى يحتاطوا

للأمر، وحتى يسهر المسيحيون فى تلك القرى على حمايتها، ويقوموا بنوبات حراسة. أما ماركيز قمارش، فقد بعث كتيبة من المشاة، وخمسة وعشرين فارسًا إلى حصن قمارش؛ فعمل بذلك على تأمينه، لأن تلك البلدة كانت مأهولة كلها بالموريسكيين؛ وكان الثوار قد وضعوها نصب أعينهم، وعقدوا اتفاقًا مع أهلها لاحتلالها، كما عُرِفَ لاحقًا. أسفرت تلك الاحتياطات عن تأمين تلك الأراضى؛ أما موريسكيو إستان فقد تركوا نساءهم وبنيهم أسارى، وانضموا إلى أناس آخرين قدموا هاربين من روندة وهوة مالقة، وعاشوا حياةً فظةً فى تلك الجبال. لنعد الآن إلى تناول ما كان يجرى فى تلك الآونة فى المنطقة الشرقية.

الفصل السابع والعشرون

يتناول الكيفية التى ثار بها موريسكيو قرى سند وادى آش ووصفا لتلك الأراضى.

تقع سند وادى آش فى سفح جبل شلير المواجه لجهة الشمال، وتحدها من الجنوب البشرات، بينما تحيط بها من باقى الاتجاهات مدينة وادى آش. وهى أرض بها وفرةٌ من مياه العيون الغزيرة التى تسيل من الجبال. يقطع تلك الأراضى النهر الذى يسير فيما بعد بمحاذاة مدينة وادى آش، من أجل ذلك أُطلِق عليه نهر وادى آش؛ بيد أن الأمر الأكثر احتمالا هو كون النهر ما أكسب المدينة اسمها، فوادى عايش – كما يسميه العرب – يعنى نهر الحياة(٤١)، توجد بالولاية تسعة مواضع، هى: دولار Dólar، وفيريّرة، وغيبيخار، والدير el Deire، ولانتيّرا Lanteira، وشريش، والقصر، والكيف، وقلهرة. كان قاطنو تلك الولاية جميعًا من الموريسكيين، وهم أناس موسرون، ينعمون بحظوة خاصة لدى كل من تولى منصب ماركيز زناتى – اللين تتبعهم تلك المنطقة. وكانوا يعيشون فى رغد من قوت أعمالهم، ومن تربية المواشى، والحرير؛ حيث كانت لديهم أراض، وغيلات، ومرا ع شاسعة وعالية الخصوبة، تتيح لهم زراعتها، وتربية الماشية ودود القز بها.

وصلت أنباء ثورة موريسكيى البشرات، والضير الذى ألحقوه بالمسيحيين والكنائس، إلى قلهرة فى أول أيام عيد الميلاد. حينئذ صعد القاضى مولينا دى

(٤١) مرة أخرى يثبت مارمول عدم درايته باللغة العربية. (المراجع).

موسكيرا - الذى كان موجوداً فى ذاك الموضع ليباشر الدعاوى المقامة ضد الموريسكيين، كما أسلفنا(*)- إلى الحصن مع امرأته، التى كانت برفقته، وخدمه، وعشرين راميًا كان يصطحبهم لحمايته الشخصية وأيضًا لإقرار العدالة. فأودع داخل الحصن ستين ثائرًا جبليًا موريسكيًا -كانوا محتجزين لديه - وحمل حراسه على حبسهم فى بعض أقبية القلعة، لأنه لم يكن يشعر بالأمان معهم حيثما كانوا. بعثت كل تلك الأحداث الراحة فى نفس حاكم المنطقة المدعو خوان دى لا تورّى Juan de la Torre- الغرناطى الأصل - لأنه أدرك ان الحصن سيضحى فى مأمن أكثر من ذى قبل لوجود السيد مولينا به، وستتم إغاثته بصورة أفضل إذا ما تعرض لمأزق ما. فيما بعد شرع كل واحد منهم على حدة فى مكاتبة مدينتى وادى آش وبسطة، لتنبيههما إلى ما كان من شأن الثورة، والخطر المحدق بذلك الحصن، وكذا حصن فينيانا؛ من أجل أن يمدوهم بقوات تتمركز بالداخل وتؤمن الوضع. وقد أمرا المجالس المحلية بالمنطقة أن تزودهم بالحطب والمؤونة، وأن يحتشد المسيحيون القاطنون فى أرجائها فى الحصن برفقة نسائهم وبنيهم.

خشى أهالى الدير من أنه حيال مجيىء أعداد أكبر من موريسكيى البشرات إلى تلك البقاع، سيحملونها على الثورة قسراً؛ فهرعوا إلى الحاكم، وطالبوه بإمدادهم بمائتى جندى ليقوموا بحمايتهم، على أن يتكفلوا هم بدفع رواتبهم؛ لأنهم أناس عزل. فما كان من الرجل، الذى لا يمتلك ذاك العدد، وما من سبيل أمامه لتوفيره، إلا أن طمأنهم بعبارات حسنة؛ وعاتبهم على ذاك المطلب، وطلب منهم أن يكونوا رعايا أوفياء؛ ووعدهم أن يرسل إليهم قوات من وادى آش إذا مادعت الحاجة لذلك. ورغبةً منه فى طمأنتهم بصورةٍ أكبر، أمرهم أن يجمعوا نساءهم وأطفالهم ويودعوهم الحصن، وهو ما أراحهم كثيراً. وقد حذا أهالى قلهرة حذوهم، وكانت سائر البقاع المتبقية ستقوم بالأمر ذاته فيما بعد - لو كان الحصن يسعهم جميعًا بداخله -؛ نظرًا لضخامة

(*) راجع الباب الرابع، الفصل السادس عشر، صفحة ٨٢. (المترجمة).

السرقات ومدى سوء المعاملة الذى كانوا يلاقوه من أهالى وادى آش، بحجة أنهم لهم حظوة لدى الحكام؛ ومن مسلمى البشرات لحملهم على الثورة.

فى نهاية الأمر، أسفرت قلة دفاعاتهم عن إرسال الغورّى فى أول أيام العام الجديد أناس من البشرات، وأمرهم بدفع الأهالى إلى الثورة؛ وإذا ما امتنعوا فعليهم بسرقتهم وقتلهم. وقد وصلوا إلى كلٍ من غيبيخار ودولار أثناء انهماك غالبية السكان فى أشغالهم فى الحقول، فأشعلوا الثورة فى هذين الموضعين؛ ثم أتبعوهما بكلٍ من شريش، ولانتييّرا، والكيف، وفيريّرة. أما أهالى الديرة فلم يلجأوا معهم إلى القوة؛ لأن نساءهم كنَّ بالحصن، بيد أنهم أظهروا حذقًا شديداً مكنهم من إخراجهن من هناك؛ لأنهم حينما أدركوا أن الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ، لجأوا إلى الحاكم مولينا دى موسكيرا، بغية أن يشفع لهم لدى الحاكم - الذى كان يرفض تسليمهم النساء والأطفال - قائلاً إنه طيلة تواجدهم بالحصن لن يقدم أزواجهن وآباؤهم على القيام بالثورة؛ فألح كثيراً على ذاك الأخير لكى يسلمهم النساء. إلى جانب ذاك الخطأ -الذى كان فادحًا للغاية - تم ارتكاب خطأ آخر يفوقه أهمية، فيما يتعلق بإثارة تلك المواضع: حيث خشى الحاكم أن يقوم الثوار الجبليون الستون المحتجزون فى أقبية الحصن بإثارته فى تلك الليلة، بسبب عدم توفر الحراسة الكافية؛ فطالب الحاكم مولينا دى موسكيرا بإخراجهم من هناك، وإرسالهم إلى سجن وادى آش أو إلى أى مكان آخر. فأمر ذاك الأخير بإنزالهم إلى البلدة، وإيداعهم أحد البيوت التى تبدو منيعة؛ وقد أخرجهم الثوار منها إبان محاصرتهم لذاك الحصن. فلمّا ألفوا أنفسهم أحراراً، ارتكبوا فظائع شنيعة بحق المسيحيين الذين وقعوا بين أيديهم؛ انتقامًا لما وقع عليهم من ظلم، نجم عنه إيداعهم فى ذاك السجن، ومعاملتهم على ذاك النحو.

الفصل الثامن والثلاثون

يتناول كيف تمكن الثوار المسلمون من إثارة مواضع نهر ألمرية، واجتماعهم في بني حبوس للتوجه لمحاصرة المدينة.

فى أعقاب اندلاع الثورة فى طاعة مارتشينا، بدأ المسلمون الثائرون فى تلك المقاطعة - بعدما أطلقوا شرارة الثورة فى البقاع العليا لنهر ألمرية - فى جمع حشودهم، من أجل التوجه لمحاصرة المدينة. حيث لم يبد لهم الظفر بها أمرًا عسيرًا، على ضوء معرفتهم بما تعانى من نقص فى الرجال، والمؤن، والذخيرة. وصل الإنذار إلى ألمرية فى غضون لحظات حول ما يقوم به الثوار، والقلاقل التى يتسبب فى إثارتها من لم يفصحوا بعد عن وجهتهم؛ نظرًا لانعدام السرية - لأن المدينة كان بها ما يربو على ستمائة منزل للموريسكيين- حيث أخذ أولئك يروحون ويجيئون من القرى والجبال فى كل الآونة آمنين، بحجة الاطمئنان على شئون بيوتهم، وكانوا يجلبون معهم تحذيرات مؤكدة. كما أن الثوار أنفسهم، لكونهم أناسًا همجيين ذوى مدارك محدودة، لم يقووا على كتمان السر فى صدورهم التى تشتعل حنقًا؛ فقاموا بإرسال التنبيهات فى خيلاء، بهدف بث الخوف داخل نفوس المسيحيين؛ وباتوا يضخمون الأمور، دون أن تكون هناك حاجة لذلك، انطلاقًا من عجرفتهم.

وقد أخبر أحد الموريسكيين القادمين من غيثيخا فى أحد الأيام السيد غارثيا دى بيّارّويل علنًا، كيف أن إبراهيم الغازى Brahem el Cacis - قائد تلك الكتائب - أخبره وعهد إليه أنه سيلقاه فى أول أيام العام الجديد فى ساحة ألمرية، حيث يفكر فى نشر ألويته هناك؛ وأضاف أن عليه أن يأخذ بنصيحته، ويسلم المدينة إلى المسلمين، الذين لم

يتبق أمامهم سواها فى مملكة غرناطة؛ ليعفى المدينة من حوادث القتل والدمار الذى سيحل بها إذا ما اقتحمها الثوار بقوة السلاح. بينما جلب إليه رجل آخر رسالةً من حاجب تابيرناس - المدعو فرانثيسكو لوبيث - يعلمه فيها فى حذر كيف أنه سيلجأ إلى تلك المدينة بصحبة أهالى بلدته، وغيرهم ممن يرغبون - انطلاقًا من كونهم مسيحيين صالحين حريصين على خدمة مليكهم- فى الاحتماء فى كنفه، وأن يشملهم بعنايته؛ وإنه سيتأخر فى حمامات الحامية لمدة ثلاثة أو أربعة أيام؛ لأن امرأته على وشك الوضع.

لكن فيما بعد كشف التحذير الذى أرسله أحد الجواسيس حيلة ذاك الرجل الآثم، حيث أكد أن الموريسكى يصطحب معه أعداداً غفيرة؛ وأنه ما أتى إلا للمماطلة، بينما يحشد موريسكيو خيرغال، وغيثيخا، وبولودوى، وجبل نِيخار صفوفهم لمحاصرة المدينة. أسفرت تلك التنبيهات وغيرها عن اتخاذ المواطنين للحيطة والحذر. كانت قلة الخبز قد أعيتهم، وعلى الرغم من وفرة اللحم، فإنهم عانوا بصورةٍ أكبر من نقص الذخيرة والعتاد. رغماً عن كل ما سبق، فقد قاموا بنوبات الحراسة - العادية والاستثنائية - بمساعدة المحاربين ؛ وكانوا يخرجون كل يوم لاستطلاع البقاع الحدودية. وهكذا باتوا يتزودون بما يلزمهم ، إلى جانب المحافظة على ولاء تلك الأماكن؛ أو تعطيلهم على أقل تقدير ليحولوا دون قيامهم بالثورة دفعةً واحدة.

فى أول أيام العام الجديد، حدث أن خرج السيد غارثيا دى بيّارّويل مع بعض الفرسان والمشاة لاستطلاع أحوال قرى منطقة النهر؛ فلمّا أضحوا على مسافة ليست بالقريبة من غادور، شاهدوا الموريسكيين يغادرونها منصرفين باتجاه الروابى؛ لأنهم لم يشاءوا الاقتراب من المسيحيين كما حدث فى مراتٍ سالفة. عندئذ أدرك السيد غارثيا أنهم قاموا بالثورة، وكان يريد معاقبتهم على ذلك، لولا أنهم تمكنوا من إثارة مسلمى غيثيخا، الذين برزوا من وراء بعض الروابى شاهرين أحد عشر لواءً، ثم توجهوا لاقتحام ذاك الموضع. حينها رجع ذاك الأخير للتحصن بالمدينة، بعد أن تشكك فى قدرته على تنفيذ العقوبة التى كان يود إيقاعها بهم؛ وكذلك فقد كان يخشى أن يضربوا

عليه حصاراً يضعه في مأزق؛ لأنه كان على علم بوجود ألف موريسكي قادر على حمل السلاح داخل أسوار المدينة، ولم يكن بوسعه وضع ثقته بهم؛ إضافةً إلى أن المسيحيين القادرين على القتال لا يصل عددهم إلى ستمائة فرد، كما أن تسليحهم كان سيئًا. كان قيام المسلمين بحشد أعداد غفيرة أمراً لا شك فيه، وهو ما كان سيعرض المدينة للخطر لا محالة؛ لأنه كانت هناك مساحات كبيرة من الأسوار المهدمة والمليئة بالثغرات في شتى الأرجاء، ومن الواجب حمايتها جميعاً.

على ضوء عودة السيد غارثيا دى بيّارّويل إلى ألمرية، قضى الثوار ليلتهم تلك في غادور. وفي صبيحة اليوم التالي استكملوا مسيرتهم نزولاً بمحاذاة النهر، إلى ان عسكروا على بعد فرسخ من المدينة، عند الربوة التي يُطلَق عليها بنى حبوس؛ وكانوا قد اتفقوا على جمع حشودهم هناك. على أثر قيام جواسيسنا، الذين يجوبون منطقة النهر على صهوة الخيل بشكل معتاد بتحذير القادة من وجودهم، ظهر العديد من الآراء بالمدينة حول ما يتعين القيام به. كان هناك من يرى أن على السيد غارثيا الاعتناء بحماية الأسوار فحسب، إلى أن تحضر قوات الإغاثة؛ لأن القوات الموجودة بالمدينة لا تكفي لتقسيمها. بينما رغب آخرون - من ذوى الحماسة والشكيمة - أن يتقدم الرجل للإغارة على الأعداء المتمركزين في بنى حبوس، من أجل الإجهاز عليهم قبل أن تنضم إليهم بقية الجموع؛ مؤكدين أن ذاك هو السبيل الأوحد لتحقيق نفعهم والمحافظة على حريتهم. في نهاية الأمر تقرر أن يذهب السيد غارثيا برفقة نفر من الفرسان والراجلين لتفقد أحوالهم، ومعاينة الموقع الذي يعسكرون به، وما يمكن القيام به لمباغتتهم؛ وتفرقت الجموع على ذلك ليتوجهوا لقضاء ليلتهم. ونحن سنتوقف عند هذا الحد، على أن نعود لسرد باقي الأحداث في وقت آخر.

الفصل التاسع والثلاثون

يتناول كيفية اندلاع الثورة فى قريتى لاس ألبونيويلاس وسالاريس .

لاس ألبونيويلاس وسالاريس موضعان قريبان للغاية من بعضهما فى وادى ليكرين. كان كلاهما قد امتنع عن الثورة -إبان تتويج ابن أمية ملكًا فى بيثنار - اتباعًا لنصيحة أحد الموريسكيين ذوى الإدراك الحسن، كان يُدعَى بارتولومى دى سانتا ماريا Bartolomé de Santa María، وكانوا يكنون له احترامًا كبيرًا. وقد أفلح الرجل، انطلاقًا من كونه حاجبًا للاس ألبانيويلاس، فى إقناعهم بالتمهل، مستخدمًا الحجج الجيدة: فقال لهم إن عليهم الإفادة من المحن التى وقع فيها أناس غيرهم؛ وأن يمعنوا التدبر فيما آل إليه مصير الثورات السالفة؛ ومدى ضعف ركنهم فى مواجهة أمير ذى نفوذٍ كبير؛ وعظم ما يغامرون بفقده؛ وقلة ثقتهم فى إمكانية بلاد المغرب من إغاثتهم؛ وإنهم يعرّضون حياتهم وممتلكاتهم لخطر شديد. فلمّا أدرك فيما بعد أن القوم يعانون من اضطرابٍ شديد، وأن البلاد تغص بالمسلمين الغرباء من محركى الثورة فى شلوبانية وموتريل؛ وإن القلاقل آخذة فى التزايد كل يوم؛ وأنه لن يقوى بمفرده على إثنائهم عن المضى قدمًا فى عزمهم المهلك، لأن الأمور تمضى من سيئ إلى أسوأ؛ ذهب للتحدث مع السيد أوخيدا Ojeda - الكاهن القانونى للمحل - الذى لم يكن قد غادر ذاك الموضع بعد. وقال له أن يجمع العدد الذى يستطيع التوصل إليه من المسيحيين، ويتوجه برفقتهم إلى مكان يحتمون به، إذا لم يكن يرغب فى أن يقضى عليه الثوار الجبليون؛ وأكد له أن عدم إقدامهم على قتله، كان نابعًا من احترامهم له؛ لأنهم يعلمون أن الكاهن صديق له. وقد أمده بخمسين رجلاً، من أجل أن يتمكن من المغادرة

بصحبتهم فى أمان دون أن يعترض الثوار الجبليون طريقه؛ وقد رافقوه حتى تركوه سالمًا على مسافة فرسخين من بادول، وذلك فى أول أيام العام الجديد.

كان حظ الكاهن وافرًا لأن له صديقًا وفيًا، ففى غضون يومين أضحت الغلبة للجانب الآثم، واندلعت الثورة فى تلك المواضع. فى إشارةٍ إلى الاستقلال - وإن كانت تافهة - أخرج مواطنو لاس ألبونيويلاس رايةً قديمةً، كانوا يحتفظون بها على سبيل التذكرة من عهد حكم المسلمين؛ ورفعوها مع سبعة أعلام أخرى، كانوا قد أعدوها سرًا من أجل ذاك الغرض، من حرير التفتاه والقطن المشغول، واجتمع تحتها سائر الغلمان الصاخبين. كان أول ما فعلوه هو تكسير الكنيسة وسرقتها، وسلب كل الأغراض المقدسة. فيما بعد نهبوا منازل الكاهن القانونى وباقى المسيحيين؛ ثم تركوا ديارهم مقفرة ومهجورة، حيث لم تواتيهم الشجاعة على البقاء بها آمنين، وصعدوا إلى الجبال فى صحبة نسائهم وبنيهم ومواشيهم. حتى ذاك الحين، لم يتوان الحاجب سانتا ماريا عن إسداء النصح لهم؛ عندما رأى أن غالبية الثوار الجبليين قد غادروا المكان، أقنع الأهالى بالرجوع إلى دورهم؛ ومحاولة الاعتذار إلى ممثلى أصحاب الجلالة، متعللين بأن الأشرار قد حملوهم على الثورة قسرًا ورغمًا عن إرادتهم. وأن ذاك النهج سيتيح لهم فرصة الانتظار إلى أن يتضح ما سيؤول إليه مصيرهم، والانضمام لاحقًا إلى الجانب الذى يتماشى أكثر ونفعهم؛ وهو ما قاموا به فيما بعد. لنذهب الآن لتناول ما كان ماركيز مونديخار بصدده فى تلك الآونة.